لوط

من وحي القرآن والسُنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة

2017م

المحتويات

المقدّمة.. 4

لوط من وحي القرآن 31

من 173

صفات النبي لوط 173

1 . رسول:... 173

2 . صالح: 178

3 . مؤتى الحكم: 179

4 . مؤمن: 244

5 . منجى: 250

6 . عبد: 253

7 – عليم: 256

9 . قالٍ:.. 268

النبي لوط من السنّة.. 274

هلاك قوم لوط: 334

علاقة لوط بإبراهيم:.. 335

أهم المشاهد من حياة لوط:................................. 337

مهاجر بأهله: 338

بنات لوط:.. 342

الفرق بين الإيمان والإسلام: 342

أثر الكلمة الطيبة: 344

الأساس العملي للإسلام:.. 348

إظهار المعذرة:... 355

المقدّمة

آمن النبي لوط برسالة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، ودعا قومَه إلى طاعة الله والبُعد عن الفواحش حيث كانوا يأتون الرِّجال شهوة من دون النساء.

أرسله الله ليهدي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله، وكانوا قوما ظالمين يأتون الفواحش ويعتدون على الغرباء وكانوا يأتون الرّجال شهوة من دون النساء فلما دعاهم لوط لترك المنكرات أرادوا أن يخرجوه هو ومن آمن به.

لوط ابن أخ إبراهيم عليهما السّلام، وكان مقيما معه في أرض العراق وآمن برسالة عمّه ودعوته، وقد هاجر معه من العراق إلى فلسطين، وهناك بقي إبراهيم ولوط عليهما السّلام واستوطنا تلك المنطقة. ثمّ ذهب لوط شرق نهر الأردن حيث توجد هناك قرى سدوم وعمورة وهناك بدأت قصّة لوط عليه السّلام مع قومه حيث اختصّه الله بالنبوّة وآتاه العلم والحكمة لتبليغ قومه ونصيحتهم. قال تعالى: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}1.

بداء لوط دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن ارتكاب الأفعال السيئات والفواحش، ولكن دعوته اصطدمت بقلوب قاسية وأهواء ورفض متكبر. وحكموا على لوط وأهله بالطرد من القرية. فقد كان القوم الذين بعث إليهم لوط يرتكبون عددا كبيرا من الجرائم البشعة. كانوا يقطعون الطريق، ويتواصون بالإثم، ولا يتناهون عن

1 الأنبياء 74، 75.

منكر، وقد كانوا يأتون الرّجال شهوة من دون النساء؛ فصار الرّجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء، وصار النقاء والطّهر جريمة تستوجب الطرد.

لوط عليه السّلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السّلام, آمن به وآزره وهاجر معه حين أذوه قومه إلى أرض الشّام , قال عزّ وجلّ عن إبراهيم عليه السلام: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}2؛ فلمّا قدم لوط مع أبراهيم عليهما السّلام إلى أرض الشام بعثه الله عزّ وجلّ إلى أهل قرية "سدوم" وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له, ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والمآثم والمحارم والفواحش التي لم يسبقهم بها أحد من بني آدم كما بيّنا ذلك.

أرسل الله عزّ وجلّ ملائكته الكرام إلى إبراهيم ولوط عليهما السّلام؛ فجاءوا إلى إبراهيم مبشّرين، وإلى لوط منقذين. {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}3 أي أنّ إبراهيم قد حاول مجادلتهم في قوم لوط، وهو لا يدر أنّه لا سبيل إلى هدايتهم؛ فقد استحبّوا العمى على الهدى ورضوا بأسافل الأخلاق وأراذل الأفعال, وصار يُجادل الملائكة في ذلك قائلا: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}4؛ فطمأنته الملائكة: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ), عند ذلك سكنت نفس إبراهيم

2 العنكبوت 26.

3 هود 74، 76.

4 العنكبوت 32.

عليه السّلام وسكن روعه، ثمّ حسمت المجادلة والمناقشة بقول الملائكة :{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}5 أي: دعك من هذا الجدال وأعرض عنه وتكلّم في غيره فإنّه قد جاء أمر ربّك بإهلاكهم فلا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه ففوّض الأمر إليه؛ فهو سبحانه يعلم الظّاهر والباطن.

قد صدَّق لوط بدعوة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام واهتدى بهديه وهاجر معه، قال الله تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}6، وهذه هجرتهما من العراق إلى فلسطين والأردن حيث بعثت لوط لأهل سدوم قرب البحر الميّت. نزل لوط إلى سدوم من بلاد الأردن، التي اتصف أهلها بالرذائل حتى أنّهم يأتون الرّجال شهوة من دون النساء ولما دعاهم إلى ترك الرّذائل عصوا رسولهم فنزل بهم العذاب7.

انّه رسول مرسل: قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}8، هذه الآية الكريمة تبين أن لوطا عليه الصّلاة والسّلام رسول من رسل الله تبارك تعالى.

والرّسول في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرّسالة بالتسليم أو بالقبض. وفي الشريعة: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام.

ومن الحكمة في إرسال الرّسُل الكرام صلّى الله عليهم وسلم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف

---

5 هود 76.

6 العنكبوت 26.

7 المعلم بفوائد مسلم، 1، ص 550.

8 - الشعراء 160 – 163.

ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسُله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}9.

والإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك، قال تعالى حاكيا قول ملكة سبأ: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}10، وقد يريدون بالرّسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذا من قول العرب: "جاءت الإبلُ رَسَلا" أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرّسُل إنّما سمّوا بذلك لأنّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}11، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها 12.

إنّ إرسال الرّسُل يمثل مظهرا مهما من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزا كبيرا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذبين، إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

---

9 - المائدة 19.

10 - النمل 35.

11 - المؤمنون 44.

12 - الرّسُل والرسالات، ج 1، ص 1.

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}13، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}14. النصّ القرآني هنا يحمل في طياته كثيرا من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرّسُل وكلّ ما يملك ممّا نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلى في هذا الأمر الذي تشكلّ فيه مظهران:

المظهر الأوّل: إنّ إرسال الرّسُل لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أمّا المظهر الثاني: فإنّ إرسال الرّسُل يتضمن أمورا لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

وإرسال الرّسُل شمل الأقوام التي كفرت بالله تعالى، أو التي انحرفت عن الخلق القويم مثل قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}15،

وصف الله تعالى لوط بالعبد الصّالح؛ والصّالح هو من يكون موفّقا في حياته ومماته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

---

13 – البقرة 151

14 – النساء 64

15 – الشعراء 160 – 163.

العمل الصّالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، ويترتب على كلّا الأمرين الثواب والعقاب.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربُّ العالمين.

والصّالح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل صالحا يرضاه الخالق، فالصالح هو من يَصلُح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثيرا، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كلّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}16.

ولأنّ لوط من الأنبياء والمرسلين الكرام صلّى الله عليهم وسلم فهو بدون شكّ من الصالحين الذين هُم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحُسن خَلقه وخُلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كلّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}17.

ولأنّ كلّ الأنبياء من الصالحين (كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميّز بين احدٍ من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرّسُل الصابرين

16 البقرة 25.

17 الأنعام 83. 86.

الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}18.

الصالح هو من يُسهم في إصلاح مفاسد الآخرين، والصالح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولا وعملا، ولهذا يتوجَّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح، ولهذا، لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلبا يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولا وعملا وفعلا وسلوكا، ولذا فهو لا يعمل إلا صالحا، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}19، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حقّ يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

بدأ لوط عليه الصّلاة والسّلام مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح يستنكر استهتارهم؛ ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويطمئنهم إلى أنّه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى. ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ:

18 الأنبياء 85. 88.

19 هود 117.

(أتأتون الذّكران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون).

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدّة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذّكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذّكر والأنثى؛ وفطر كلّا منهما على الميل إلى الآخر لتحقّيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتمّ باجتماع الذّكر والأنثى، فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود. فأمّا إتيان الذّكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقّق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه إلا اختلالا أو شذوذا.

وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. والمتعة والمودة التي يجدها الذّكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقّيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثم لم يكن بدّ أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد، فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة، وإلى سنة الفطرة[20].

لم يستفيق قوم لوط من سباتهم الفكري المنزوي في زاوية مظلمة من زوايا الرذيلة التي دأبت ألا تنقاد إلا للخارجين عن طاعة الله تعالى،

---

20 – في ظلال القرآن، ج 5، ص 360.

وهذا الانزواء لم يكن فكريا فقط بل كان مكانيا، فمكان الهلاك كان محددا فلم يشمل كلّ من على الأرض ضمن شكلّ مترامي الأطراف دون حدود له، إذ يقول تعالى: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}21،

ومن هنا؛ فإنّ النّاصر قد ناصر لوط عليه الصّلاة والسّلام، ذلك لأنّ لوط ناصر لله تعالى، {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حق إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ}22.

ولأنّ الله هو النّاصر فقد نصر لوط عليه الصّلاة والسّلام، ومن هنا؛ فالنّاصر ومن ينصر مُحقّي الحقّ بدون سبب، وذلك لأنّه الحقّ ذاته، ولذا فمن ينصرن الله ينصره مصداقا لقوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}23.

ومع أنَّ الله تعالى ينصرنَّ من ينصره إلا أنّه لم يكن في حاجة للمناصرة في ذاته فهو مالك الملك وهو الكريم المتعال بل النّاس دون استثناء هم الذين في حاجة لنصره تعالى، ولهذا فمن عباده المسلمين من هم في حاجة فيتوجهون إليه بالطّلب والدعاء فيكون لهم خير ناصرٍ، أي عندما يقاتل المسلم في سبيل إحقّاق الحقّ لابدّ وأن يكون له

21 - هود 81.
22 الحج 40 . 43.
23 الحج 40.

النّاصر قريب سميع مجيب فيتحقّق النّصر بأسباب الإخلاص في المقاتلة في سبيله (في سبيل إحقّاق الحقّ) ولهذا فالنّاصر ينصرنَّ من ينصره.

والنّصر: هو المترتب على ما يُقدَّمَ من جهد في سبيل تحقّيقه، وهو لا يتحقّق إلا بامتلاك القوّة والقدرة ولا يكون على المستوى البشري إلا على يد من يمتلك الإرادة مع الاستطاعة

وقد كان لوكا عبدا مفضلا، قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}24، إنّ درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُوّلئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوّلئِكَ رَفِيقًا}25؛ فيكون لوط عليه الصّلاة والسّلام من المفضَّلين26.

والمفضَّل هو الذي تميَّز بما تميَّز به عن غيره في المقارنة فكان الخيار عليه من دونهم، ولهذا كان سيدنا لوط من المفضَّلين على العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}27.

وفي اللغة الفَضْل والفَضِيلة "معروف ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصة والجمع فُضُول، وفاضَلَني ففَضَلْته أَفْضُلُه فَضْلا غلبته بالفَضْل وكنت أَفضَل منه وتَفَضَّل عليه تَمَيَّز، والتفضيل تقديم لمن هو على الفضيلة على غيره من

24 – الأنعام 86.

25 – النساء 69.

26 – تفسير السعدي، ج 1، ص 263.

27 الأنعام 86 . 88.

الذين لا فضيلة لهم، وتفَضَّل بمعنى أَناله من فضله وأَحسن إِليه والإِفْضال الإِحسان، ورجل مِفْضال كثير الفَضْل والخير والمعروف"28.

والفضل يؤتي من الله إيتاء لمن يشاء من عباده الصالحين، لذا، كان تفضيل لوط عليه الصّلاة والسّلام مؤسس على الفضل المؤتي إيتاء، {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}29، هذا التفضيل لم تكن بدايته من لوط بل أمر التفضيل كان من آباءهم من قبلهم (وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) واستمر من بعدهم أيضا في أبناءهم وإخوانهم الذين تم اجتبائهم رُسُل كرام، قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}30. قوله (سَابِقُوا) جاءت للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها النّاس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) توجب لكم نيل المغفرة منه وتحقّق لكم الفوز بالجنّة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله عليهم الصّلاة والسّلام (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنّة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنّة هما الفضل من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء ولهذا الجنّة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}31.

---

28 لسان العرب، ج 11، ص 254.

29 - الأنعام 86 – 87.

30 الحديد 21.

31 فصلت 35.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[32].

الذين آمنوا هم من أهل الكتاب الذين يُراد لهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمّد كما آمنوا من قبله بموسى وعيسى صلّى الله عليهم وسلَّم، فإن آمنوا يضاعف لهم الثواب (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) الكفل الأوّل بسبب إيمانكم بموسى وعيسى والكفل الثاني بسبب إيمانكم بمحمّد صلّى الله عليهما وسلَّم وكذلك يدل معنى الكفلين من بين ما يدل عليه هو فوزكم في الدارين حيث طاعة الله واتباع الرّسُل دون تفريق بينهم في الحياة الدنيا ثم الفوز بالجنّة في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) وهذا النور هو من فضله تعالى الذي يؤتيه لمن يشاء متى ما شاء وكيفما شاء، إنَّه نور الهداية واليقين والطاعة واتباع الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنه النور الذي يُمكِّن المؤمن من دخول الجنّة ليزداد المؤمن نورا على نور، وهذا النور كان بأسباب الإيمان والطاعة والمغفرة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، إي؛ يغفر لكم من بيده أمر المغفرة فهو على كلّ شيء قدير.

وقوله تعالى: (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء متى ما يشاء كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك ولذا فهو ذو الفضل العظيم، وليعلم أهل الكتاب أنّ الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمّد وأمته لتكون الرسالة خاتمة وللناس

---

32 الحديد 28، 29.

كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتبعوا السبيل الحقّ الذي جاء به محمّد نبيا ورسولا.

وقوله تعالى: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}33. كلّ مسلم بالحقّ لا يشكّ في أنَّ الفضل بيد الله ولهذا يتوجَّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة وكلّ مؤمن على الحقّ يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو.

قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}34.

من فضل الله على عباده بعث محمّد عليه الصّلاة والسّلام في الأميين رسولا منهم، ومن فضله تعالى أن محمّد عليه الصّلاة والسّلام يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة نقول بحقّ أن هذا لهو الفضل العظيم فالذين كانوا في الضلال أصبحوا على الهداية مؤمنين بالله ورُسُله وكتبه، قال تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}35، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى

33 الحديد 29.

34 الجمعة 1 . 4.

35 البقرة 2.

رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}36.

وعليه: كلّ ما تقدم هو من فضل الله على عباده الذين أخصهم بالعناية والهداية (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

الله الذي بيده الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليتصدَّق ويتزكَّى وينفق كلّ حسب استطاعته وما يملك من رزقٍ، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من فضل الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتى من عند الله فليتق الإنسان ربَّه ولينفق ممّا آته من رزقه، قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ ممّا آتَاهُ اللَّهُ}37.

ولذلك، علاقة قوية في المفهوم بين الفضل والرزق والعزة فهي كلّها تؤتى من ذي الفضل إيتاء، ولذا فالعزة فضل ورفعة لا تُستمد إلا من رفيع يمتلك القوّة الساندة والداعمة، والقوّة مدد تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

وخاطب الله النّاس بقوّته وعزَّتِهِ ليُبيّنَ لهم أنه ذو الفضل، ولا متصف بالقوّة والعزة بالمطلق غيره فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

36 النساء 136.

37 الطلاق 7.

وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}38 فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفا وهو القادر على كلّ فعل، فإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون فالأمر عليه يسير، إنّه المالك للقوّة والعزة والفضل، والمؤمن هو المدرك الذي لا يعبد ضعيفا، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء إن داعٍ دعاها، وهي ضعيفة معرضة للزوال، ولهذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفا، ولا يعتقد في القوي إلا قويّا.

وبما أنّ الله ذو الفضل فهو بفضله جعل الإنسان خليفة في أرضه الذي قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}39.

إذا الخليفة قوي عزيز بالإضافة، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه، والصفات قوّة تربط الصفة بالموصوف كما تربط الخليفة بمستخلفه؛ فالله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه، وأجل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبّة وألفة وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة وعلاقات ضمير، ليكون خليفة مُصلحا في الأرض. ومن يفسد فيها من بني الإنسان يعد مخلا بشروط استخلافه فيها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}40 لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء والصالحين وملّكهُ الله من مُلكه ليحكم بالحقّ. والحكم بالحقّ، هو: الحكم بالبينة، أي بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه، ولا ميل وانحياز،

---

38 الحج 74.

39 البقرة 30.

40 ص 26.

والحكم بالحقّ الحكم بما أمر الله تعالى، لا بالمزاج والعاطفة الشخصانية، بل بالعدل الحقّ، ومن يحكم بما أنزل الله لا يمكن أن يكون مثل أوّلئك المفسدين في الأرض؛ فأوّلئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} 41 لا يمكن المساواة فالمصلحون في الأرض لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها، وهكذا لا يمكن مساواة المتَّقين الذين آمنوا بالله ورسوله مع أوّلئك الكفرة الفجرة. المساواة في هذه الحالة ظلم كبير، لا يرتضيه الله ولا يرتضيه العباد، {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}42.

وعليه: جاء الرّسول لوط عليه الصّلاة والسّلام برسالة الله إلى قومه ليواجه الانحراف الأخلاقي الذي استشرى بينهم، إذ يقول تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}43 أراد لوط عليه الصّلاة والسّلام أن يعالج المسألة الأخلاقية لديهم من خلال المسألة العقدية الروحية التي يرتبط الإنسان فيها بالله ليطلّ على تفاصيل الحياة ومفرداتها العملية من هذا الموقع الثابت في الفكر والإحساس والواقع، الأمر الذي يوحي إلينا أنّ الانحراف العملي لا يُعالج بالطريقة المباشرة التي تخاطب مفرداته وخصوصياته بشكلّ مباشرٍ، بل بالطريقة الفكرية التي تمتد إلى جذور العقيدة والروح والإحساس وتتحرك في مفردات الحياة كلّها، لأن ذلك هو الذي يخلق الحوافز العميقة التي تدفع إلى الطاعة في أوامر الله ونواهيه. فإذا كان الإنسان لا يعيش روح التقوى لله، فكيف يمكن أن

41 ص 29.

42 البقرة 134.

43 - الأعراف 80 – 81.

تقنعه ـ بشكلّ أساسي ـ أن يترك ما هو عليه من رذيلة وانحراف عن سنة الله تعالى في خلقه.

كذب قوم لوط ما جاءهم به لوط عليه الصّلاة والسّلام مثل ما كذب السابقون، فحين شاعت بينهم الفعلة القبيحة والديدنة الذميمة الشنيعة إلى حيث يباهون بها ولا يخفونها من غضب الله تبارك وتعالى، كان مساق دعوته عليه الصّلاة والسّلام يسير في جوانب عدة منها:

اتقوا الله الغالب الغيور واحذروا من سخطه

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ من قبله أَمِينٌ يؤمنكم من مكر الله وحلول غضبه وعذابه لو قبلتم منى قولي

فَاتَّقُوا اللَّهَ حقّ تقاته وَأَطِيعُونِ في عموم ما جئت لكم من عنده، وهذا باب التذكير الذي هو بوابة دعوة لوط صلّى الله عليه وسلّم.

بين لهم إنّ التبليغ والنصح ليس من وراءه من اجر، إن الأجر إلا على رب العالمين فانّه المتكفل لأجور عباده حسب أعمالهم ونياتهم فيها.

بيان عظمة الإثم في هذه الفعلة القبيحة الشنيعة، وتركهم ما خلق الله تعالى لهم من أزواج ونساء التي يترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء النوع.

هذا الطرح كان أمّامهم وفق سياق الدعوة التي جاء بها لوط صلّى الله عليه وسلّم، فصنيعهم قبيح وفيه تجاوز على حدود الله تعالى وحكمه وحكمته والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذّكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذّكر والأنثى؛ وفطر

كلّا منهما على الميل إلى صاحبّه لتحقّيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذّكر والأنثى. فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود. فأمّا إتيان الذّكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقّق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. واللذة التي يجدها الذّكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقّيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد44.

لم يكن جوابهم فيه أي تراجع عن فعلتهم الشنيعة بل كان الإصرار هو العنوان الأبرز في سياق كلّامهم مع لوط صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}45.

وبعد ما سمع لوط عليه الصّلاة والسّلام منهم ما سمع من الغلظة والتشديد في التهديد، قالَ مستوحشا منهم مستنكرا عليهم (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ هذا مِنَ الْقالِينَ) المبغضين غاية البغض بحيث اكره مساكنكم وجواركم مطلقا وأريد الخروج من بينكم ولا أبالي من تهديدكم على بالإخراج والإجلاء.

إنّ خطاب لوط عليه الصّلاة والسّلام لهم فيه سمة التحديد، فقد كان خطابه منصبا على أفعالهم دون أن يبين أي عداوة لهم أي إنّني

44 - النبوّة والأنبياء في القرآن والسنة، ج 1، ص 57.

45 - الشعراء 167.

لا أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادي أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم وغير قال لكم.

لم تؤثّر مواعظ لوط عليه الصّلاة والسّلام ونصائحه في قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع تسبح فيه الرذيلة وتمّت الحجّة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية... فعليه أن يغادر هذه المنطقة الفاسدة، وأن ينجّي من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، يقول تعالى: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِين وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}46.

قوله تعالى: (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين) القلي البغض الشديد، كأنّه بغض يقلي الفؤاد والكبد، وقوله: (مِّنَ القالين) أبلغ من أن يقول إنّي لعملكم قال، كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم47. وفرق بين كوني لا أعمل العمل، وكوني أكره من يعمله، فالمعنى: أنا لا أعمل هذا العمل، إنما أيضا أكره من يعمله، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم.

هلاك قوم لوط:

عندما بلغ الضّيق ذروته، وقال النّبي لوط كلمته، تحرّك ضيوفه ونهضوا فجأة، وأفهموه أنّه يأوي إلى ركن شديد (ركن الله) فقالوا له: لا

46 - الشعراء 169 – 175.

47 - تفسير الرازي، ج 11، ص 498.

تجزع يا لوط ولا تخف، نحن ملائكة، ولن يصل إليك هؤلاء القوم، (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)، أي: التفتت الملائكة إلى لوط وأصدروا إليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، وسيرى ماذا يحدث بهم، ولا يلتفت منهم أحد كي لا يصيبه ما يصيب القوم. ثمّ أفهموه أنّ امرأته كانت من الغابرين؛ فهي مثلهم وستلتفت خلفها ليصيبها ما أصابهم.

سأل لوط الملائكة: أينزل الله العذاب بهم الآن؟ فأنبئوه أنّ موعدهم مع العذاب هو الصبح؟ {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}48 ومن ثمّ فقد انتهى قوم لوط تماما ومحيت مدنهم. ويقال إنّ البحيرة الحالية التي تعرف باسم (البحر الميت) هي مدن قوم لوط السّابقة. هكذا دائما الفساد يربو رباء حتى ينتهي ألما، وهكذا تطوى صفحات الفساد، ولكن يا ليت النّاس يتعظون ويعتبرون.

قال تَعَالَى: {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}49، وَفسّر الْمُؤْتَفِكَات بقوله: ائتفكت انقلبت بهَا الأَرْض وهم قوم لوط، وَفِي التَّفْسِير: والمؤتفكات قرى قوم لوط، عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَانُوا يسكنون فِي مدن وَأمّهَا سدوم وأهلكهم الله عَن آخِرهم بتكذيبهم نَبِي الله لوطا عَلَيْهِ السَّلَام، وإتيانهم الْفَاحِشَة الَّتِي لم يسبقهم بهَا أحد من الْعَالمين، وَأَصله من أفكه يأفكه أفكا إِذا صرفه عَن الشَّيْء. وَقَلبه، وأفك فَهُوَ مأفوك

48 هود 81.

49 التوبة 70.

والآفكة الْعَذَاب الَّذِي أرْسلهُ الله على قوم لوط فَقلب بهَا دِيَارهمْ، والبلدة مؤتفكة وَتجمع على مؤتفكات50.

هكذا جاء قوله: (أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) لإثارة النخوة إن كانت في أحدٍ منهم، ولكن لا قدوة بينهم، وهنا تكمن علّة.

وقد أحسّ لوط أمامهم بضعفه كونه غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه، ولا أولاد ذكور يدافعون عنه، ومع ذلك دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته، وفي المقابل كان الغرباء الذين استضافهم يجلسون هادئين صامتين؛ فدهش لوط من أمرهم، وهناك ازدادت ضربات القوم على الباب؛ فصرخ لوط في لحظة يأس خانق: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}51 أي: تمنّى أن تكون له قوّة تصدّهم عن ضيفه وتقفهم عند حدّهم، وتمنى لو كان له ركن شديد يحتمي فيه ويأوي إليه، ولكن كان ركن الله أعظم من أيّ ركن ومهما اشتد. انّه الشديد الذي جعل الشدّة تنزل على القوم جميعا: فهم ومهما كانوا اشداء فلا شدّة لهم أمام شدّة الله عليهم، ولهذا التجاء شعيب الى الشديد الأعظم الذي سمع نداءه بقوله: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)؛ فأنزل الشديد المنتقم انتقامه بهم؛ أي أراد شعيب أن ينتقم الله منهم بما عملت أيديهم وبما تعمل وما هم عازمون عليه من الأعمال السيئات، وبمعنى آخر: كان قول شعيب فيهم بمثابة النداء؛ فهو ينادي العون لأنّه لم يمتلك القوّة الرّادعة للمفسدين من قومه؛ فجاءه العون انتقاما منهم من المنتقم.

وهنا فالمنتقم "هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين

50 عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 18، ص 255.

51 هود 80.

والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة"52.

المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق الباطل؛ ولذا فهو لا ينتقم إلا لحقّ وبحقّ وهو لا يظلم أحدا. والمنتقم لا ينتقم من أحد إلا لأجله، فالانتقام من الظالمين حقّ لهم وحقّ عليهم: من حيث كونه حقّ لهم لأجل أن يتذكروا لعلَّ الذكرى تنفعهم فيُكفِّرون عن سيئاتهم، ومن حيث كونه حقّ عليهم ليزداد المتقون تقوى، ويزدادوا تمسكا بالحقّ وثباتا عليه. وبهذا الأمر يقتدي المنتقم له والمنتقم منه بأن الحقّ لابدّ له وأن يحقّ.

وعليه فنحن نجزم بأنّ اسم المنتقم من أسماء الله تعالى كما سيتضح لاحقّا.

يتساءل البعض عن جواز أن تكون من صفات الله عزّ وجلّ الانتقام الذي يدل على اسمه (المنتقم)! وللإجابة عن ذلك علينا أن نعرف من هو المنتقم، ثم نحصي ممن انتقم ولماذا، وكيف.

المنتقم هو الذي بيده مقاليد القوّة والقدرة المِمكّنة من الانتقام، والانتقام فعل قوي في مواجهة فعل أو أفعال سابقة العمل بغير حقّ، فيها من المظالم ما لا يرضي العباد وخالق العباد، والانتقام نتيجة لأسباب وعلل مفسدة لما يجب أن يكون صالحا، فالمنتقم الحقّ هو من ينتقم من المنتقمين (الذين هم على الباطل)، ولذا فهو الحقّ، أي صفة حميدة ومحببة لأجل أفعال الصفات الحسان.

---

52 المقصد الأسنى، ج 1، ص 139.

إذا المنتقم الحقّ هو فاعل الحقّ، أي أنّه محقّ الحقّ ومزهق الباطل، ولذا فهو الله، وفي هذا الأمر يكون التطابق والتماثل في آيات الله المؤكدة على ترسيخ الصفات الحسان. كقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}53، وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا}54، وقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}55، وقوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}56.

ولأنّ المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق للباطل، إذا الانتقام لم تكن أسبابه ظالمة، ولم يكن بذلك ظلما، بل إنه عدل لا يحقُّهُ باطل. وعليه فالانتقام من الباطل عدل في سبيل الإصلاح والفلاح والإعمار، والخليفة هو الذي ينتقم من الظلم والظالمين لأجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

المُنْتَقِم هو العادل في العقوبة لمنْ يشاءَ57. غير أنه قد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية الآتي: "في أسماء اللَّه تعالى (المُنْتَقِم) هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء" وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}58، وقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}59 وقوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}60، وقوله

---

53 الأنفال 30.

54 الطارق 15، 16.

55 السجدة 22.

56 الدخان 16.

57 النهاية في غريب الأثر – ج 5، ص 231 ولسان العرب – ج 12، ص 590

58 الحجر 49، 50.

59 الأعراف 167.

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}61 فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود"62. فالمنتقم أفعاله الانتقامية نتائجها لا تعود عليه مباشرة، بل تعود بشكل مباشر على من ظلموا ولم يستطيعوا ردع الظلم والظالمين، ولا يستطيعون إحقّاق الحقّ، ومن يتوب بعد ظلم ويصلح ما أفسد فإنّ الله غفور رحيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}63. إما أولئك الذين لا يتوبون فإنّ الله شديد العقاب، ولهذا فجزاء السيئة سيئة مثلها ومن عفا وأصلح فأجره على الله وما ربك بظلام للعبيد، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}64. إنَّ قوله تعالى: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولمن انتصر بعد ظلمه، أي بعد أن انتقم من الظالم أو الظالمين، وهم لن يستطيعوا بعد ذلك ارتكاب مظالم فلا سبيل للانتقام منهم بغير حقّ،

---

60 المائدة 98.

61 البروج 12 ـ 20.

62 جامع الرسائل-ج1-ص356

63 المائدة 39.

64 الشورى 40 ـ 44.

لقد تم الانتقام الذي هو إحقّاق للحقّ وإزهاق للباطل، وسيظل السبيل مفتوحا أمام المنتقم للحقّ إذا استمر الظالم في ظلمه وهو يبغي الإفساد في الأرض التي جعل الله فيها الإنسان خليفة، ولذا فالعذاب سيظل لأولئك الظالمين حقّ في الدارين وهذا الانتقام لا ظلم فيه وذلك لأنه حقّ في مرضاة الله تعالى، (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المنتقم: يعلم بالمظلمة وبالظالم الذي اقترف ظلما، وهو رافض لكل مظلمة، وهو قادر على إحقّاق الحقّ، وقادر على تمكين المظلوم من بلوغ الانتصار والفوز المؤزر، وهو الذي لا يتأخر عن ذلك كلما شاء.

المنتقم المطلق هو الله القادر العادل القوي الجبار المهيمن الحفيظ سبحانه الذي ينتقم من المجرمين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}65. والمجرمون هم الذين ذُكِّروا بآيات الله ثم كفروا بها وأشركوا وظلموا النّاس، هؤلاء منهم الله تعالى منتقم، وانتقام الله من الكفرة إدخالهم جهنم. قال تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}66.

والمنتقم بالإضافة هو المهتدي إلى صراط الحقّ المستقيم فلا يظلم أحدا، ولا يتأخر عن مناصرة المظلومين، يثأر للحقّ حتى يُزهق باطل القول والفعل والعمل، ويُقدِم على أداء فعل الخيرات، وهو الذي ينتقم

65 السجدة 22.

66 الزخرف 39 ـ 43.

من الذين يظلمون، وهو الذي يكيد كيد الكائدين ويمكر بمكر الماكرين مصلحا ومُعمِّرا ومفلحا في الأرض التي استخلفه الله فيها.

المنتقم: هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة والجبارين ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة.

المنتقم هو الذي يَغلِب ولا يُغلَب، وذلك بأسباب امتلاكه لمعطيات الحقّ، أمّا الذي يُغلب فهو ضعيف القول والحجّة، وضعيف القدرة والقوّة، ولهذا من يستند على الحقّ استند على القوّة والقدرة، ومن استند على باطل استند على ضعف ووهن.

ومن أهم المشاهد من حياة لوط:

1 . إيمانه برسالة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام.

2 . نبي رسول.

3 . متطهّر، (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

4 . هاجر مع إبراهيم من العراق إلى فلسطين.

5 . اصطفائه نبيا ورسولا لأهل سدوم وعمورة بالأردن.

6 . دعوته لقومه ونصحه لهم بالحياد عمّا هم فيه من كفر.

7 . كفر قومه برسالته.

8 . كان منذرا لقومه.

9 . نبي لا عصبة له كونه لم يكن من أهل سدوم وعمورة.

10 . القوم الذي بعث لهم أهل شذوذ جنسي.

11 . قومه عصاة.

12 . قومه بلا قدوة؛ فلا يتعظون ولا يعتبرون (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ).

13 . قومه قطّاع طرق؛ فلا يَدَعون مسافرا أو تاجرا يمر في طريقهم إلاَّ آذوه، واعتدوا عليه وسلبوه ماله.

14 . أرسل الله إليه الملائكة ضيوفا مكرّمين (مبشرين ومنقذين).

15. هجم القوم عليه رغبة في ضيوفه المكرّمين.

16 . أخبره الملائكة بحقّيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها، وبأنّ القوم لن يصلوا إليهم.

17 . أمر لوط بالخروج ومن أمن معه من القرية التي فسد أهلها.

18 . نفّذ أمر الخروج ليلا.

19 . أنزل العذاب والعقاب بهم صباحا.

20 . أمطرت القرية حتى انتهت من الوجود، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}67 والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

---

67 الأعراف 84.

لوط

من وحي القرآن

إنّ لوطا عليه الصّلاة والسّلام من أنبيا الله ورسله الذين عاصروا نبي الله إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، وقد أُرسل إلى قومه مصداقا لقوله تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ، جوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}68

هذه الآيات الكريمة فيها وصف لقوم لوط ضمن حركة تعاقبية لفعل لم يرد أصحابه أن ينتهي، بل تمادوا في الفعل ممّا أكسبه سمة الظهور على الساحة البشرية، فتطبّع القوم به وصار هو لهم سمة لا تقبل المغادرة، وهذا يظهر لنا إدمان القوم على هذا الفعل دون إدراك أو وعيا حقّيقي بما يجري كما نعتقد، فالأمر سلك مسلكا لا يمت إلى الإنسانية بصلة فقد اختلفت أهواء النّاس فلم تبقى كما، جبلت عليه، إذ شقت طريقا، جديدا فيه رغبة لم تكن بالحسبان، فثنائية الذّكر والأنثى مثلت بداية البشرية فمن خلالها يحصل التكاثر الذي يمثل ديمومة الحياة واستمرارها، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}69، هذا الخلق الذي أراده الله سبحانه وتعالى أن يكون مستمرا وضّح له طريقة الاستمرار التي يكون من خلالها، فقد وضع الله

68 - العنكبوت 28 - 30.

69 - الحجرات 13.

سبحانه وتعالى الأصول لتحديد العلاقات المختلفة بين بني البشر، يقول تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}70، هذه الآية الكريمة تحيل إلى طبيعة العلاقة مع المرأة بوصفها الوعاء الذي يكمن فيه حقّيقة التناسل، والذي يكون فيه الاستمرار المطلوب، فهذا الأمر أصبح سنة الله تعالى في خلقه.

إنّ سنة الله تعالى في خلقه بقيت مستمرة دون خروج عنها، فلم ينقطع هذا النسق ولم يتحوّل إلى شكلّ، جديد يخرق سنّة الله تعالى أو أن تبتدع سنّة، جديدة تؤتي نفس سياق التكاثر ضمن العلاقة ما بين الرّجل والمرأة، يقول تعالى:{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ، جعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}71 استمرت هذه العلاقة بين الرّجل والمرأة ولم يجد الرّجل انحرافا عنها إلى أن حدث أمر مفزع خالف فطرة الله تعالى في الأرض فهو أمر تقشعر منه الابدّان، ويتفصد الجبين له عرقا ألا وهو فعل قوم لوط، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذّكرانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}72، هنا قصّة لوط مع قصّة إبراهيم.

---

70 – البقرة 223.

71 – فاطر 11.

72 – الشعراء 160 – 166.

ذلك أنّ الملحوظ فيهما وحدة الغاية والمنهج لاختلاف المستهدفين وقضاياهم.

ويبدأ لوط عليه الصّلاة والسّلام مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح يستنكر استهتارهم؛ ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويطمئنهم إلى أنّه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى. ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ:

(أتأتون الذّكران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون).

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدّة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذّكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذّكر والأنثى؛ وفطر كلّا منهما على الميل إلى الآخر لتحقّيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتمّ باجتماع الذّكر والأنثى، فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود. فأمّا إتيان الذّكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقّق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه إلا اختلالا أو شذوذا.

وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. والمتعة والمودة التي يجدها الذّكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقّيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثم لم يكن بدّ أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة

وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد، فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة، وإلى سنة الفطرة73.

لم يستفيق قوم لوط من سباتهم الفكري المنزوي في زاوية مظلمة من زوايا الرذيلة التي دأبت ألا تنقاد إلا للخارجين عن طاعة الله تعالى، وهذا الانزواء لم يكن فكريا فقط بل كان مكانيا، فمكان الهلاك كان محددا فلم يشمل كلّ من على الأرض ضمن شكلّ مترامي الأطراف دون حدود له، إذ يقول تعالى: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}74،

ومن هنا؛ فإنّ النّاصر قد ناصر لوط عليه الصّلاة والسّلام، ذلك لأنّ لوط ناصر لله تعالى، {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ}75.

ولأنّ الله هو النّاصر فقد نصر لوط عليه الصّلاة والسّلام، ومن هنا؛ فالنّاصر ومن ينصر مُحقّي الحقّ بدون سبب، وذلك لأنّه الحقّ ذاته،

73 – في ظلال القرآن، ج 5، ص 360.

74 – هود 81.

75 الحج 40 . 43.

ولذا فمن ينصرن الله ينصره مصداقا لقوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}76.

ومع أنَّ الله تعالى ينصرنَّ من ينصره إلا أنّه لم يكن في حاجة للمناصرة في ذاته فهو مالك الملك وهو الكريم المتعال بل النّاس دون استثناء هم الذين في حاجة لنصره تعالى، ولهذا فمن عباده المسلمين من هم في حاجة فيتوجهون إليه بالطَّلب والدعاء فيكون لهم خير ناصرٍ، أي عندما يقاتل المسلم في سبيل إحقّاق الحقّ لابدّ وأن يكون له النّاصر قريب سميع مجيب فيتحقّق النّصر بأسباب الإخلاص في المقاتلة في سبيله (في سبيل إحقّاق الحقّ) ولهذا فالنّاصر ينصرنَّ من ينصره.

والنّصر: هو المترتب على ما يُقدَّمَ من جهد في سبيل تحقّيقه، وهو لا يتحقّق إلا بامتلاك القوّة والقدرة ولا يكون على المستوى البشري إلا على يد من يمتلك الإرادة مع الاستطاعة من حيث:

أ ـ التهيؤ: الذي هو تطلُّع ورغبة وتأهّب لتلبية النداء متى ما صدر من مصدره الحقّ، ومن لم يكن متهيئا يكون متثاقل إلى الأرض وهو راضيا بالحياة الدنيا ولا يكون من المتطلّعين إلى الحياة العليا التي فيها فوز ونصر كبير، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

76 الحج 40.

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}77.

ب ـ الاستعداد: إعداد العدة التي تُمكّن من دخول الميدان دون خسائر أو بأقل ما يمكن من الخسائر، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}78.

ج ـ الفعل: دخول ميادين القتال وميادين العمل بعزيمة وقوّة مع تيقُّن بأن النّصر حليفا لمن يقاتل في سبيل الله تعالى، كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}79، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}80

وعليه نقول:

يتحقّق النّصر بتوفر أمور منها:

---

77 التوبة 38 ـ 40.

78 الأنفال 60.

79 البقرة 191، 192.

80 الأنفال 15، 16.

. الإيمان بأنّ النّصر حقّ وليس للمرء بدا إلا بلوغه طاعة في سبيل الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يحقّ الحقّ بِكلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ليحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النّصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}81.

. انتزاع الخوف من النفس انتزاعا، قال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النّصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}82.

. قبول التضحية بالأموال والأنفس، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}83، ولذلك الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم هم أوّلياء بعضهم بعضا والذين آمنوا ولم يهاجروا لا ولاية لهم حتى يهاجروا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أوّلئِكَ بَعْضُهُمْ أوّلِيَاءُ بَعْضٍ

---

81 الأنفال 7 . 10.

82 آل عمران 125 . 127.

83 النساء 95، 96.

وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النّصر إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}84.

. إظهار القوّة دون تردد ولا رأفة على المعتدين إلا إذا جنحوا للسلم، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}85 وقال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}86.

. القدرة على المغالبة وهي لا تكون إلا بغرس الثقة في النفس لتطمئن بما هي عليه من قوّة إيمانية صامدة وهي غير قابلة لأن تهتز فلا تهزها الرياح متى ما هبَّت عليها من قريب أو بعيد.

. الصبر على الألم دون مقابل استسلام لضغوطه المؤلمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}87.

---

84 الأنفال 72 . 75.

85 التوبة 14، 15.

86 الأنفال 61.

87 آل عمران 200.

والنّصر كما جاء في لسان العرب هو: "إِعانة المظلوم نصَره على عدوّه ينصُره ونصَره ينصُره نصْرا"88.

والمؤمن من المسلمين يعلم يقينا أنّ النّصر سيكون حليفه في كلّ مُدخل أو مُخرج بما أنَّ النّاصر مناصرا له ولن يخذله، ولن يغالبه أحدٍ بما أنَّه بمناصرته مناصر وفي مقابل ذلك من يخذله النّاصر تعالى فلن يجد له ناصرا، مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}89. أي لو يخذلكم النّاصر بخذلانكم له فمن بإمكانه أن ينصركم؟

سؤال لا إجابة له بتحقّيق النّصر إلا بنصره، وهذا الأمر أمر تسليم بالمطلق حيث من لا ينصره النّاصر عزّ وجلّ لن ينتصر. ولذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}90، أي لو لم تنصروه لن ينصركم، بمعنى أن خذلتموه بعدم الطاعة وارتكاب الفواحش وعدم تجنب ما نهى عنه وتكفرون به أو تشركون فلن يكون مناصرا لكم، ولذا عندما تشتد عليكم دوائر السوء لن تجدوا مناصرا لكم غيره فناصروه ينصركم.

الحياة جميعها مترتبة على سببٍ ومسبِّبٍ ومسبَّب وهو المترتب على وجود الأسباب وفاعليها، (المسبِّبين لها) ولأن الحياة هكذا، هكذا يكون النّصر فهو لا يمكن أن يكون إلا وان تكون من ورائه أسباب وأن يكون من وراء الأسباب مسبِّبٍ لها ليكون النّصر هو النتيجة وهو (المسبَّب) مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا النّصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ

---

88 لسان العرب، ج 5، ص 210.

89 آل عمران 160.

90 محمّد 7.

الْحَكِيمِ}91، وإلا هل هناك من يظن في أن النّصر الذي يفوز به لم تكن من ورائه أسباب ومسبِّبٍ للأسباب؟

إن كان هناك من يظنّ فعليه أن يفكِّر جيدا لكي يعرف الحقّيقة التي مفادها في هذه الآية الكريمة (وَمَا النّصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

وليعلم الجميع عندما تشتدَّ بهم الأحوال وتتأزم عليهم في ميادين المواجهة والقتال ويفاجئون بِعُدَّة وشراسة الأعداء وبلائهم في المقاتلة حينها لا ملجأ لهم إلا إليه فإنّ كانوا مؤمنين تكون لهم الاستجابة مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النّصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}92.

ولأنّ النّاصر تعالى ينصر بنصره من يشاء من عباده فكان نصره سببا لنُصرةِ من شاء، ولهذا كان نصره تعزيزا ورحمة على الذين شاء الله أن ينصرهم مصداقا لقوله تعالى: {بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}93.

قال تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}94.

يُفهم من هذه الآية الكريمة ممّا يُفهم منها أنَّ العباد المؤمنين يخافون الله ويتقوه ويسعون دائما لمرضاته تعالى ويتضرعون إليه ملاطفة وتأدبا ومحبّة ومودة أن لا يحمِّلهم ما لم يستطيعوا حمله حتى لا يفشلوا فيما

---

91 آل عمران 126.

92 الأنفال 9، 10.

93 الروم 5.

94 البقرة 286.

يُحمّلونَ به ولذا فكانت لهم أربعة مطالب في الآية الكريمة السابقة كلّ مطلب منها يُستمد من صفة مستمد من اسم من أسمائه الآتية:

أ ـ من اسمه العفو (وَاعْفُ عَنَّا).

ب ـ من اسمه الغفور (وَاغْفِرْ لَنَا).

ج ـ من اسمه الرّحمن (وَارْحَمْنَا).

د ـ من اسمه النّاصر (فَانْصُرْنَا).

وفي كلّ هذه الصفات السابقة نصر، وإلا هل هناك من لا يعرف أن في صفة العفو محقّقات للانتصار؟ فالذي طلب العفو من العفو المطلق واستجاب له في طلبه ألا يعد من الذين ناصرهم ونصرهم الله في تحقّيق مطالبهم؟

وهكذا بالتمام بالنسبة لمن طلب المغفرة من الغفور المطلق واستجاب له في طلبه ألا يُعد هو الآخر قد فاز بنصرٍ من الغفور الذي جازاه غفرانا؟

وكذلك نيل الرحمة فهي لا تنال بالمطلق إلا من الرّحمن تعالى الذي إن استجاب وهب رحمة من رحمته الواسعة لمن تضرَّع إليه في طلبه وبنيل العبد الرحمة استجابة لطلبه ودعائه الذي أخلص فيه الدعاء إليه تعالى يكون من الفائزين والمنتصرين باستجابة الرّحمن لدعائه.

ولذلك نقول:

في كلّ صفة من صفات الله تعالى تتداخل بقية صفاته الكريمة، وإلا هل يمكن أن يكون كريما لو لم يكن قويا وقادرا ومالك للملك وفعَّال لما يُريد؟ وهكذا الرّحمن هل يمكن أن يكون الرّحمن لو لم يكن

قويا وقادرا ومالك للملك وعزيزا وودودا وكريما وهكذا كلّ الصفات تتداخل كما سبق أن بينّا ذلك في موسعتنا أسماء الله الحسنى وأثرها على استخلاف الإنسان في الأرض.

ولأنّ لله تعالى الأسماء الحسنى ولأن لكلّ اسم من أسمائه الحسنى صفة مطلقة في حسنها فالرّحمن بالرحمة رحيما والكريم بالكرم كريما والنّاصر بالنّصر ناصرا وهكذا في كلّ اسم صفة أو فعل منه تستمد القوّة والقدرة والنّصر والمناصرة، لذا جعل الله تعالى في كلّ صفة من صفاته الحسنى استجابة لمن دع ربُّه وتضرع إليه وفقا لما يشبع حاجة أو كربة أو داء الم به وهو مؤمنا مسلما، ولهذا نقول: لولا أسمه النّاصر ما كان لنا في النّصر من نصيب، ولأننا نؤمن به ناصرا فهو النّاصر لنا بمناصرتنا له إيمانا وطاعة وإتباعا واحدا أحدا لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير. قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}95.

وقد يتساءل البعض:

هل يمكن أن يتحقّق النّصر إن لم يكن من ورائه مناصرا مطلقا؟

بطبيعة الحال لا يمكن أن يتحقّق النّصر بدون صفاء نية وإخلاص في العمل ومجاهدة نفس والقبول بدفع الثمن بإرادة، فالإنسان وإن جاهد بكلّ ما لديه من قوّة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد تواجهه قوّة أخرى من إنسان آخر تفوق قوّته قوّة فتهزمه بثمن أو بدون ثمن، ولكن المؤمنين حقّا هم الذين لا ييئسون ولا يقنطون من بلوغ الغايات العظام، ولهذا نفوسهم مطمئنة لما يلم بهم ابتلاءً أو يلم بهم انتصارا.

95 الحج 40.

ولأنّ الإنسان وإن امتلك القوّة المادية فهو لن يبلغ القوّة المطلقة وإن كان قويا فهو في دائرة النسبية يدخل مجالات المقارنة ممّا يجعله مره أقوى وأخرى أقل قوّة وثالثة متوسط القوّة ولهذا فهو معرض للهزيمة مع كلّ مقارنة من المقارنات الثلاثية السابقة، ولن يتحقّق له النّصر إلا بانبعاث القوّة فيه من قوّة النّاصر المطلق الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

ولأنّ النّاصر هو القريب وهو السميع المجيب والعليم الحكيم فهو مالك الملك والقوّة والقدرة وكلّ الصفات الحسنى لذا لا استغراب في مناصرته لمن يناصر الحقّ إحقّاقا ويزيح الظلم حقّا.

وقد يتساءل سائلا رغبة لاطمئنان قلبه:

هل النّاصر ناصرا للعامة أم للخاصة؟

نقول:

إنه النّاصر لكلاّهما؛ ولكن لكلّ سبيله في المناصرة.

فالعامة الأبواب مفتَّحة أمّامهم إن شاءوا وعملوا، ولذلك فالنّاصر ربُّ العامة والخاصة، وإن لم يشاءوا ولم يعملوا فلن يكون لهم النّصر ملازما.

أمّا الخاصة هي الفئة المتهيئة والمستعدة والعاملة على نيل النّصر وانتزاعه بالقوّة إرادة دون ظلم أو إفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ، وهؤلاء هم أنصار الحقّ لله تعالى ولأنهم كذلك سيجدون النّاصر الذي بيده الأمر والنهي ميسِّرا لهم النّصر الذي لن يتحقّق إلا على أيديهم ولهذا المتثاقلين إلى الأرض فئة لا يتحقّق على أيدهم النّصر مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحبّهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كلّمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلّمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}96.

النّصر لا يتحقّق إلا بامتلاك الحجّة والإخلاص في العمل، ولأن الأمر متعلق بامتلاك الحجّة والإخلاص في العمل، فإن الحجّة مهما عظمت لن تكون بيد الإنسان إلا في دائرة الممكن ودائرة النسبية ولهذا كلّ إنسان هو في حاجة لمن يناصره لأجل بلوغ النّصر، ولذا جاء الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مناصرين للحقّ وأهله، وجاء العلم مناصرا لمن ألم به، ولكن مهما المَّ الإنسان من العلم علما فلم يؤت منه إلا قليلا ولهذا فهو في حاجة لمن يمتلك مقاليد القوّة التي بها يتحقّق النّصر، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}97.

يُفهم من الآية الكريمة السابقة أن أنصار الحقّ هم أنصار الله، ولهذا بعث الله تعالى الرّسُل مناصرين للحقّ، وأنزل الكتاب مناصرا للحقّ، وجاء العدل إحقّاقا للحقّ ليقوم النّاس بالقسط، وأنزل الحديد قوّة وفيه منافع كبيرة للناس الذين أُلِين لهم والذين نوَّعُوه وسيلة مصنوعة للدفاع

96 التوبة 38 ـ 40.

97 الحديد 25.

والحماية وتحقّيق النّصر، وعليه أقول لا نصر إلا بالإقدام والعمل وقوّة الإرادة وشدة العزيمة لا بالتثاقل أو الانسحاب من ميادين العمل الحقّ، ولهذا جاء قوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

ولأنّ النّاصر هو القوي العزيز القادر إذا كيف لا يتحقّق النّصر إن أراده نصرا متى ما يشاء وكيف يشاء لمن يشاء وأينما يشاء؟

أقول القرآن خير دليل وخير شاهد على تحقّيق النّصر لمن يشاء، كيفما يشاء، ومتى ما يشاء، وأينما يشاء؟ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}98.

هذه الآيات الكريمة خير شاهدٍ على ما تحقّق من نصر للعاملين عليه بجنود مُسَّخرة من النّاصر، وهي الطيور التي ناصرة أصحاب الحقّ في الله تعالى، وكانت سببا مسخرا من النّاصر تعالى في هزيمة أصحاب الفيل المعتدين ظلما وبهتانا؛ وبهذه الآيات العظام أزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}99.

بدون شكّ أنَّ لله جنود يسخرون وفقا لمشيئته تعالى كما سخروا انصارا يوم معركة أصحاب الفيل وله جنود أخرى لم تُرى بعد وهي الجنود المسخَّرة لمناصرة الذين يصلحون الأرض ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حقّ وهم المؤمنون بالنّاصر لمن شاء كيفما شاء، متى ما يشاء، وهم المنتهون عمَّا نهى والمجتنبون لما أمرهم اجتنابه ويدعون

98 الفيل 1 . 5.

99 الفتح 4.

للخيرات، ولهذا الطيور التي بعثها النّاصر لمناصرة أصحاب الحقّ هي غير المألوفة في الأرض إنها الجنود المقاتلة، هذه الطيور قد تمت رؤيتها وهناك من الجنود المسخرة بإذنه وأمره لمناصرة من يشاء من عباده كما ناصر رسوله محمّد عليه الصّلاة والسّلام بجنود لم تُرى فجعل كلّمة الذين كفروا هي السفلى وكلّمة الله هي العلياء مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِّمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلّمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}100.

ولأنّ النّاصر هو الله كما جاء في هذه الآية الكريمة، إذا النّاصر اسم من أسمائه الحسنى ولذا فهو مثل أي اسم من أسماء صفاته، أي كما أنّ الرّحمن هو الله والرّحيم هو الله والكريم هو الله والنصير هو الله كذلك النّاصر هو الله ولا فرق في شيء من صفاته الحسنى، ولأنّ رسول الله عليه الصّلاة والسّلام مناصرا لله فيما يشاؤه أن يُحقّ، لذا كان الله هو النّاصر له بجنود لم يروها.

وعليه مع أنّ النّاصر هو الله تعالى إلا أنّ النّاصر لن ينصر من لم ينصره، فهو النّاصر للحقّ والمبطل للباطل ولهذا لن يكون مناصرا لأصحاب الباطل بل هو مناصرا لأصحاب الحقّ كما ناصر رسوله الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام يوم أخرج من قريته بغير حقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قوّة مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}101.

---

100 التوبة 40.

101 محمّد 13.

والذين ليس لهم قوّة معنوية ومادية في سبيل إحقّاق حقّ وإبطال باطل أوّلئك لا ناصر لهم، مصداقا لقوله تعالى: {فَمَا لَهُ مِنْ قوّة وَلَا نَاصِرٍ}102.

يُفهم من هذه الآية الكريمة أمرين:

1 . القوّة وتتمثل في:

أ . قوّة العقيدة.

ب . قوّة الإيمان.

ج . قوّة العزيمة والإصرار.

د . قوّة الإرادة.

هـ . قوّة التهيؤ.

و . قوّة الاستعداد (العدة والمناصرين سواء كانوا من ذوي قربى أو من الأحلاف).

ر . قوّة الفعل (تخطيط مع وضوح الغايات).

ز . قوّة العمل (الإقدام).

2 . النّاصر: هو الله، ولهذا يتحقّق النّصر بأحد السببين قوّة تُحقّ الحقّ وتُزهق الباطل أو استجابة من النّاصر لعباده الذين أخلصوا وجوههم إليه واحدا أحدا لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

---

102 الطارق 10.

وعليه لا تناقض في الأمر بين توفر القوّة في مرضاة الله تعالى وبين أن يعمل الإنسان ويخلص في سبيله فيكون له النّاصر وليا يوم لا وليا إلا هو عزّ وجلّ، ولهذا المسلم وهو يجاهد في سبيل الله يؤمن بأن نصر الله قريب مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّى يَقُولَ الرّسول وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}103، بدون شكّ أنَّ النّاصر هو الله تعالى ولأنّه الله فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}104.

ومن خلال استخراجنا السؤال القرآني، (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ)؟

يتمّ التعرف على الإجابة بأن النّاصر هو الله، ولهذا نحن دائما نقول أنّ النّاصر أسم من أسمائه الحسنى.

ولأنّ صيغة السؤال جاءت ظرفية (زمنية) جاءت الإجابة أيضا ظرفية (زمنية) بقوله تعالى: (إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ).

النّاصر في الوقت الذي يناصر فيه عباده الصّالحين والمصلحين في الأرض وهم مؤمنين في الوقت ذاته ينتقم من الذين يظلمون مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}105. ولهذا فالنّاصر جاء اسم من أسمائه الحسنى محقّقا للرحمة على الوجهين:

1 . وجه النّصر: (وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ).

---

103 البقرة 214.

104 البقرة 186.

105 الروم 47.

2 . وجه الانتقام: (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا).

وعليه لقد جاء ت الرحمة نصرا متراتبا في دائرة المنطق من حيث جاء الانتقام من الذين أجرموا أوّلا فكان النّصر من بعده محقّقا ثانيا مصداقا لقوله تعالى: (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) أي بتحقّيق الانتقام من المجرمين شُفيت قلوب المؤمنين واطمأنت فكان لهم النّصر بأسباب المناصرة من النّاصر المطلق.

ولأنّ النّاصر هو الله قال تعالى: {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}106 أي عندما يكون النّاصر هو الله عزّ وجلّ فبشّر المؤمنين بأن الفتح الذي ينتظرونه قريب، ولإيمانهم بأن النّاصر هو الله الذي جاءت منه البشرى فهم لا يشكّون في تحقّيق النّصر على أيديهم فيزدادون إيمانا مع إيمانهم ويزدادون ثباتا، ولذلك كان لهم النّصر محقّقا يوم الفتح العظيم لمكة، الذي يوم مجيئه هلل المسلمون مع رسولهم الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام بحمد الله واستغفروه وهم تائبون إليه مصداقا لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النّاس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}107.

وعليه نسأل:

النّصر ممن؟

لا شكّ في ذلك أنه النّصر من الله تعالى.

ولأنّ النّاصر هو الله تعالى إذا لا شكّ في أنّ النّصر فعل من أفعاله المطلقة وهذا الأمر يجعل في أسمه النّاصر صفته التي بها يوصف.

---

106 الصف 13.

107 النصر 1 . 3.

ولأنّه النّاصر عزّ وجلّ بالمطلق لذا لا محقّق للنصر غيره فالذين يتخذون من دونه أربابا لن ينصرون متخذيهم أربابا، فأوّلئك هم القاصرون عن تحقّيق النّصر حتى لأنفسهم فما بالك بأن يحقّقوا نصرا لغيرهم، قال تعالى: {وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}108.

ولأنّ النّاصر هو الله تعالى قال في كتابه الحكيم: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}109، أي لا ناصر غيره، ولهذا فهو النّاصر.

وعلى خليفة الله في أرضه أن ينصر الحقّ بالحقّ وينصر المظلوم من الظالم حتى يفك القيد عنه ويمكنه من ممّارسة حريته بإرادة وأن ينصر من يستنصر به من المسلمين، وعليه أن يعلم أنَّه لا نصر إلا من عند الله النّاصر فليتقي الله ربُّه (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) فإن نصر الخليفة ربُّه يجده خير ناصرٍ له في كلّ مكان وزمان فلا يتردد الخليفة في أداء الخير الذي به يتحقّق النّصر لمن هم في حاجة إليه.

اللهمّ إنّك قد نصرت رُسُلك الكرام صلوات الله وسلامه عليهم بإتمام رسالاتهم فانصر رسالة الإسلام وانصرنا مسلمين، ولا تجعلنا متثاقلين إلى الأرض ولا مستعجلين فيها، بل من المتدبّرين لأمرهم وما يتعلّق به من أمر.

اللهمّ إنَّك النّاصر العزيز فانصرنا نصرا عزيزا، وثبت أقدامنا على الحقّ حتى ننتصر على أعداء الحقّ، اللهمّ إنّك النّاصر بالقوّة فمدّنا بقوّة من قوّتك بها تتهيأ الأنفس وتقوى الإرادة ويتمّ الاستعداد وينجز العمل والفعل ويصدق القول ويُصنع التاريخ.

---

108 الأعراف 192.

109 الفتح 3.

قال تعالى: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ}110، وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}111.

هذه الآيات الكريمة أسبغت على عذاب قوم لوط سمة التحديد المكاني، ذلك أنّ النجاة كانت متحقّقة للنبي لوط عليه الصّلاة والسّلام ومن معه من المؤمنين ضمن الوجود الأرضي، وهذا يفضي إلى أنّ الأرض الأخرى لم تتعلق بهذا الهلاك المتحقّق، فالفساد كان في مكان واحد والهلاك كان أيضا في مكان واحد، وهنا تتضح وجود نبيين في زمان ولكن ليس في مكان واحد، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم تكن قضيته مع قومه تتشابه أو حتى تتقارب مع قضية قوم لوط، فقد كانت مختلفة اختلافا كبيرا إذ انصبت على قضية رئيسة هي مدار كلّ الرّسُل والأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ألا وهي قضية التوحيد، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا، جنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحبّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي

110 - الحجر 65، 66.

111 - القمر 33 – 38.

وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}112، هذا التقابل الحاصل بين رسولين في زمان واحد يتحقّق فيه الاختلاف في طبيعة القضايا المعالجة، فقضية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تختلف عن قضية لوط صلّى الله عليه وسلّم، فالأوّل كانت قضيته التوحيد، أمّا الثاني فكانت سمة خلقية، هذا الاختلاف الحاصل لم يوصل إلى نهاية واحدة، فضلا عن وجود أمر مهم يفرق بين الاثنين ألا وهو تعرض إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلى الإحراق، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسلاما عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكلًّا، جعلْنَا صَالِحِينَ}113؛ وهنا تتبادر إلينا بعض التساؤلات منها:

لماذا هذا الاختلاف في النهاية؟

لماذا هذا الاختلاف في البداية؟

لماذا لم تكن النهاية واحدة؟

ألم يستحقّ قوم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الهلاك كقوم لوط؟

---

112 - الأنعام 74 – 81.

113 - الأنبياء 66 – 72.

هل أنّ الانحدار الخلقي عقوبته أوّلى من الشرك بالله تعالى؟

هل في هذا التخصيص من العذاب أطروحات، جديدة؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها تلملم أطرافا مهمة لقضية تجد صداها في الفكر العقدي الذي لا يتوانى في أن يطرح ما يضفي إليها سمة الوضوح والبيان.

ومع ذلك يمكن أن تثار احتمالات منها:

- قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام موحدون يفعلون الفاحشة.

- قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام كافرون يفعلون الفاحشة.

وعليه:

فإنّ دعوة الرّسول لوط صلّى الله عليه وسلّم، جاءت لتدعو للتوحيد وتعالج الفاحشة التي استشرت بينهم وبناء على القاعدة التي تقول: (إنّ الله لا يهلك المؤمنين)،

فنحن نرجّح أن يكون قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام من الكفار، ولذا، بدأ معهم رسولهم بدائهم الظاهر (الفاحشة) حتى يطهرهم من هذا الإثم ويدعوهم إلى عبادة الله مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}114

فكان قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام العصاة يعدون الطهارة خروجا عن مألوفهم الشاذ.

إنّ هذا التصرف المنفرد لقوم لوط يعكس صفاتهم وسماتهم التي كانوا عليها، فالذي نعتقده أنّ هذا الفعل لم يفعل مباشرة دون أرض خصبة

---

114 الأعراف 82.

مهدت له فتحقّق هذه الأرض الخصبة تمثلت في خلق هؤلاء القوم، فالمؤكد لنا أنّهم أصحاب أخلاق وضيعة وصفات منكرة، يتهاونون في كلّ شيء حتى في إعلان أقبح الأفعال أمّام الملأ من النّاس، وهذا بطبيعة الحال يدفعهم إلى ارتكاب أشنع الأفعال وأعظمها وهذا كان باعترافهم، كما يقول تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ، جوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}115، هذه الآيات الكريمة تمثل الحلقة القصيرة من قصّة لوط تجيء مختصرة، إذ تبرز قوم لوط بالسمات التي هم عليها وموضحة موقف لوط عليه الصّلاة والسّلام منهم، فقد أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية. فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال، وترك النساء، على غير الفطرة التي فطر الله النّاس عليها. بل عامة الأحياء.

وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية. فقد يشذ أفراد، لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية، فيميل الذّكور لإتيان الذّكور؛ وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي، محرومين من الاتصال بالنساء. أمّا أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره، مع وجود النساء وتيسر الزواج، فهذا هو الحادث الغريب حقّا في تاريخ الجماعات البشرية!

لقد، جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر، لأنّه، جعل الحياة كلّها تقوم على قاعدة التزاوج؛ فقال: (سبحان الذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض، ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون)، فجعل

115 - النمل 54 - 56.

الأحياء كلّها أزواجا سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه النّاس في شتى المخلوقات، والتزاوج يبدو أصيلا في بناء الكون كلّه فضلا على الأحياء فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب وإلكترونات، أي من كهربائية إيجابية وأخرى سلبية، وهي وحدة الكائنات المكررة فيها، جميعا كما يبدو حتى الآن.

وعلى أية حال فالحقّيقة المضمونة أنّ الأحياء كلّها تقوم على قاعدة التزاوج. حتى التي لا يوجد لها من، جنسها ذكر وأنثى تجتمع خلايا التذكير والتأنيث في آحادها، وتتكاثر بهذا الاجتماع.

ولما كان التزاوج هو قاعدة الحياة في ناموس الخلق، فقد، جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة، التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تتوقف على تفكير. وذلك كي تسير الحياة في طريقها بدافع الفطرة الأصيل. والأحياء يجدون لذتهم في تحقّيق مطالب الفطرة. والقدرة المدبرة تحقّق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة في كيانهم بلا وعي منهم ولا توجيه من غيرهم. وقد، جعل الله تركيب أعضاء الأنثى وأعضاء الذّكر، وميول هذا وتلك بحيث تحقّق اللذة الفطرية من اجتماعهما. ولم يجعل هذا في أعضاء الذّكرين وميولهما.

ومن ثم يكون عجيبا أن تنحرف الفطرة انحرافا، جماعيا كما حدث في قوم لوط، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم116.

إن استدراج الفكر والغوص في هذه المتاهة الإنسانية الشنيعة لتفكيك فكر قوم لوط، يجد أنّ فعلهم هذا لم يكتسب الفردية المطلقة، بل اكتسب سمة الجمع المطلق، ممّا يفضي بأنهم:

متفقون.

---

116 - في ظلال القرآن، ج 5، ص 387.

متراضون.

متواطئون.

وهذا قد اكسبهم وعيا، جمعيا حول هذا الفعل، فكان لهم سمة واضحة لا يخجلون منه بل يطلبون المزيد، فضلا عن ذلك دخلوا في صفات أخرى منها:

التكذيب: يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}117.

المجاهرة بالصد عن دعوة لوط صلّى الله عليه وسلّم: يقول تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}118.

إنّ استمرار هذا الفعل يحيك صورة مُغْبَرَّة عن البشر، فيخرجهم من دائرة الإنسانية إلى دائرة الحيوانية، وهذا الأمر يكون بين وجهين:

الوجه الأوّل: يكون في دائرة الحيوانية، وهذا متوافق مع الإحالة إلى الحيوانات وان لم تفعله، إلا أنّه يدخل في دائرة ذهاب العقل وتجرده من كلّ القيم والأفكار والنواميس وحتى الإدراك فقد شبه الله تعالى اليهود في قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}119،"ضرب الله لهؤلاء مثلا بحال حمار يحمل أسفارا لا حظّ له منها إلا الحَمل دون علم ولا فهم، ذلك أن علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيره مخلوطًا بأخطاء وضلالات ومتبعا فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من

117 - الشعراء 160 – 162.

118 - الشعراء 167.

119 - الجمعة 5.

الهدى والدعاء إلى تزكية النفس وقد كتموا ما في كتبهم من العهد بإتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال"120

الوجه الثاني: خروجه من التكوين الخلقي الذي، جبل عليه الإنسان.

إنّ فعل قوم لوط يثير فينا عدة تساؤلات منها:

لماذا لم يفعل هذا الفعل قبل قوم لوط؟

لماذا فعله قوم لوط؟

هل هناك مسببات له؟

هل هناك، جذور له؟

إنّ هذه التساؤلات تكسبنا، جرأة في البحث عن مكنونات هذا الفعل الذي ارتبط بزمن وبقوم، والمشكلّة الكبرى أنه لم ينته بعقوبة قوم لوط، بل استمر إلى وقتنا هذا لما وصل إليه بعض الشباب والرجال من خسة ووضاعة، إذ وصل الأمر إلى وصفه بالمرض المزمن.

إنّ البشر عامة وجدوا أنفسهم في الحياة الدنيا أمّام أفكار إنسانية مختلفة، قد يختلف معها البعض وقد يتفق، ذلك أن الله تعالى أعطى للإنسان إرادة الاختيار وحرية الفعل، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}121. هذه الاختيارات فيها عملية تحريك العقل حول اختيارات صحيحة تكون مطابقة لكلّ المرجعيات التي أتاحها الله تعالى لعباده، وهنا ينبري لنا أمر الخلافة الذي أراده الله تعالى، يقول تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي، جاعِلٌ

120 - التحرير والتنوير، ج 15، ص 80.

121 - البلد 8 – 10.

فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}122 هذه الخلافة لم تكن مطلقة دون قيود، ولم تكن أمرا هامشيا ؛ إنّما وجدت من أجل الإصلاح، هذا الإصلاح لا يكون مقتصرا على زمن دون زمن، ولا على مكان دون آخر؛ إنما هو منفتح على كلّ سياقات الحياة المختلفة، وبمختلف الأطر التي تكون، وهذا ما يمنح الإصلاح اليد الطولى في كلّ شيء، وهذا يوصلنا إلى أن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّمهم يد الإصلاح في الأرض، فنزولهم كان ضمن حالة إصلاحية لا تقبل التأجيل، فالترك يكون من ورائه ضياع النّاس، جميعا، وضياع النّاس يخرج أمر الخلافة من دائرة الإصلاح، ولذلك، كان خطاب الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم يتمحور داخل هذه الدائرة، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}123.

إنّ ترك الحبّل على الغارب من شأنه أن يجعل الفعل الفاسد منتشرا فيصيب الأرض، جميعا، ولهذا نعتقد أن عذاب قوم لوط وإنهاءهم، جاء لبتر المرض من، جذوره كي لا ينتشر وليكون عبرة وعظة لمن يأتي من البشر من بعدهم، يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}124.

---

122 - البقرة 30.

123 - هود 88.

124 - يوسف 111.

إنّ عذاب قوم لوط اكتسب سمة خاصة يعكس شناعة الفعل الذي ارتكبوه، يقول تعالى: {فَلَمَّا، جاءَ أَمْرُنَا، جعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}125؛ فعند سماع أو قراءة ما، جرى لهم لا نقف مكتوفي الأيدي ونتمتم مع أنّفسنا أنّهم استحقّوا هذا العذاب فسحقًا لهم، وفي الوقت نفسه يفعل هذا الأمر بيننا، فما نسمعه من كلّ الوسائل المتاحة لدينا الآن يمنحنا مسؤولية، جديدة ومهمة كبيرة وان، جاز لنا أن نقول: أكثر من النبي لوط صلّى الله عليه وسلّم، فنحن حملة رسالة خير المرسلين محمّد صلّى الله عليه وسلّم:

كيف لا نغير ما يحصل؟

كيف لا نصلح ما يحصل؟

كيف لا نحرك ساكنا لما يحصل؟

كيف نتهاون لما يحصل؟

كيف نسمح لان يحصل ما يحصل؟

كيف ندير ظهورنا لما يحصل الآن؟

إنّ هذه الاستفهامات هي استبطان لكلّ ما يدور الآن ضمن أروقة تخلوا من الخوف من الله تعالى، وهذا يعود بنا إلى الإصلاح الذي هو رسالة كلّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم.

إنّ عملية الإصلاح لابدّ أن تأتي ضمن شكلّ علمي مرتب، تأتي بنتائج مرضية تحاول تقويم الخطأ البشري وإعادته إلى ما كان عليه من

---

125 - هود 82، 83.

إتباع أوامر الله تعالى وسنة رسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن اللجوء إلى أساليب غير علمية وغير مدروسة، فمن شأنها أن تأتي بنتائج عكسية تكون وخيمة على المجتمع بأكمله.

إنّ العقوبة الرّبانية هي مفتاح التصحيح الذي يجب أن يتبع، إذ يقول تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}126. في القصاص حياة لكم، أي لنفوسكم؛ فإنّ فيه ارتداع النّاس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع النّاس؛ لأنّ أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنّه يَسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفا بالعقوبات، ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر كما كان عليه في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين، وليس الترغيب في أخذ مال الصلح والعفو بناقض لحكمة القصاص؛ لأنّ الازدجار يحصل بتخيير الولي في قبول الدية فلا يطمئن مضمر القتل إلى عفو الولي إلاّ نادرا وكفي بهذا في الازدجار127.

ولأنّ الله هو الحقّ؛ فالحقّ لابدّ وأن ينصر من يكون على الحقّ، ومن هنا جاءت المناصرة للوط عليه الصّلاة والسّلام، وفي ذلك يقول الحقّ تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}128. ولذا؛ فالنصير من أسماء الله الحسنى ورد اسما مرتين في القرآن الكريم مرّة في صورة الأنفال مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}129 ومرّة في صورة

126 – البقرة 179.

127 – التحرير والتنوير، ج 2، ص.124.

128 الحديد 25.

129 الأنفال 40.

الحج، مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}130.

وورد في تسع آيات صفة مباشرة وغير مباشرة كما هو مبيَّن في السور والآيات الآتية:

1 . قال تعالى: {كَفي بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفي بِاللَّهِ نَصِيرًا}131.

2 . قال تعالى: {أُوَلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}132.

3 . قال تعالى: {وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}133.

4 . قال تعالى: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}134.

5 . قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}135.

6 . قال تعالى: {وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}136.

7 . قال تعالى: {وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}137.

---

130 الحج 78.

131 النساء 45.

132 النساء 52.

133 النساء 75.

134 النساء 89.

135 النساء 145.

136 النساء 123.

8 . قال تعالى: {ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}138.

9 . قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}139.

النصير أسم صفة للملازمة الداعمة بالقوّة والقدرة مع من يستوجب المناصرة، ولِذا عندما يعلم المناصر بأنّ النصير المطلق معه أينما يكون تشتد قوّته وتتعاظم بشدة وقوّة النصير، فيُهزم التردد ويقلع الخوف وتطمئن الأنفس وتتضاعف المحبّة لدخول ميادين القتال في سبيل إحقّاق الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَأمّا مَنًّا بَعْدُ وَأمّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الجنّة عَرَّفَهَا لَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحبّطَ أَعْمَالَهُمْ}140.

النصير اسم من أسماء الله الحسنى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}141.

---

137 النساء 173.

138 الإسراء 75.

139 الإسراء 80.

140 محمّد 3.

141 الأنفال 40.

وبتحليلنا لهذه الآية الكريمة التي جاءت بداية بضمير عائد على الكافرين الذين ورد ذكرهم في الآيتين السابقتين عليها، بمعنى فإن أدبر أوّلئك الكفرة والمشركون عما دعوتموهم إليه من سلام تجنب لقتالكم ظلما وعدوانا وما دعوتموهم إليه إيمان بالله ورسوله، فإنّ أبوا وعصوا إصرارا على الكفر وقتالكم، فقاتلوهم، وأعلموا يقينا أنّ الله معكم نصيرا.

ولذا فالقتال في الإسلام لم يكن غاية في ذاته بل هو لأجل تحقّيق السّلام والأمن كي لا يعم الفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ وكي لا تكون الفتنة التي بها تسود المظالم، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}، فالغاية إذا من القتال هي أن يكون الدين لله تعالى، فالدين به يتحقّق السّلام وتعمر الأرض ويكون الإنسان عليها متوجا خليفة.

ومع أنَّ القتال حقّ في سبيل إحقّاق الحقّ إلا أن الإقدام عليه ليس بالأمر الهين، ولهذا جاءت المؤازرة المحقّقة للطمأنينة في قوله تعالى: (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) فقوله (فَاعْلَمُوا) بمعنى: فثقوا يقينا أن لكم مناصرة من الذي لا يُهزم أبدا، فلا تترددوا في إعداد العدة وأقدِموا ولا تخافوا، فالذي يجب أن يخاف هو من لا نصيرا له، أمّا أنتم أيها المسلمون حقّا فلكم النصر في كلّ معركة حقّ ومن يستشهد منكم يصبح مع الأحياء الذين هم عند ربّهم يُرزقون؛ إذا قوله تعالى: (فَاعْلَمُوا) إخبار بما لم يكن لديهم من علم، وهذا الإخبار من الله تعالى بالنسبة للمؤمنين حقّا مُحفِّزَ لهم على دخول المعارك وهم متيقِّنين من الفوز والنصر المؤزر.

إذا النصير يحقّق ممّا يحقّق لمن يقاتل في سبيله أمور منها:

أ ـ النّصر على الذين يودون أن يعم الفساد في الأرض ولا يودون إصلاحا فيها وهم يسفكون الدماء بغير حقّ، قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}142.

ب ـ الاستشهاد الذي به تُكتب الحياة السرمدية، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقّوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرّسول مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}143.

وعليه نقول:

النصير هو الذي يمتلك مقاليد القوّة والقدرة ويعلم مكامن الضعف في المعتدين والظالمين فيزدها ضعفا على ضعفها ويعلم مكامن القوّة في المدافعين عن الحقّ فيزدها قوّة على قوّتها مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}144.

---

142 الحج 40.

143 آل عمران 169 ـ 173.

144 آل عمران 124 ـ 127.

أمّا النصير على المستوى البشري فهو المتأهب غير المتردد والمستعد غير المتأخر عن الإقدام على مناصرة الحقّ وأصحابه وهو من يمتلك القوّة ويوظفها عن إيمان راسخٍ لا عن عاطفة مؤقتة.

والعبد النصير هو من يستمد صفته وقوّته من صفة النصير المطلق فلا يتأخر عن موعد مناصرة وهو على بيّنة وإرادة من أمره والأمر الذي من أجله كان نصيرا {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}145 الخطاب التساؤلي في هذه الآية الكريمة موجّه للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين، أي لماذا لا تقاتلوا الظالمين الذين يعتدون على الضعفاء منكم من النساء والرجال والولدان الذين يدعون الله سرا وعلانية بأن يجد لهم مخرجا من هذه القرية التي طغى فيها الكفرة والمشركين على المستضعفين الذين لا قوّة لهم سوى دعاؤهم الله تعالى بأن يجعل لهم من يناصرهم على الأعداء ويخرجهم من هذه القرية، لذا جاءت المخاطبة لأنصار الله وهم المؤمنين حقّا فقاتلوا في سبيله مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}146.

يُفهم من هذه الآية أنّ الذين يقاتلون في سبيل الله هم الأنصار والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت هم الكفرة الفجرة، ولهذا فالنصير المطلق يناصر من ناصره ويتولاه رعاية وعناية وحفظا حتى يخرجه من الظلمات إلى النور مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ

145 النساء 75.

146 النساء 76.

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}147.

النصير لا يمكن أن يكون بعيدا، فإن كان بعيدا يكون من الغائبين عند الضرورة والحاجة، ولا يمكن أن يكون جاهلا فإن كان جاهلا فقد المعرفة التي بها يتمكن من اتخاذ قراره عن وعيا وإرادة حرة متى شاء كيفما شاء أينما شاء مع من يشاء، إذا لابدّ أن يكون النصير قريبا ويكون عالما، ولهذا كان النصير المطلق أقرب إلينا من حبّل الوريد مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حبّلِ الْوَرِيدِ}148، وقربه إلينا أقرب من حبّل الوريد يدل على حضوره الدائم وعلمه الدائم الذي لا يحتاج لمن يُنبههُ أو يدعوه أو يناديه فالمناداة لا تكون إلا للبعيد أمّا القريب فهو الذي يرى ويسمع قبل أن نرى ونسمع، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}149.

بطبيعة الحال إن لم يكن النصير سميع بصير فكيف له أن يكون مناصرا، فالمناصرة تُطلب في كلّ كبيرة وصغيرة فهي لا تقتصر على الأشياء الظاهرة فقط بل تتعداها إلى الباطن وإلى ما كان متناهيا في الصغر والدقة ولهذا لا يمكن أن تتحقّق المناصرة على أرض الواقع إن لم تكن صفات وأفعال المناصر على الإطلاق، حتى يستطيع أن يعلم وينبأ بكلّ كبيرة وصغيرة، قال تعالى: {إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ

147 البقرة 257.

148 ق 16.

149 المجادلة 1.

فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}150.

ولأنّ الله نصيرا لمن ينصره فلِمَ لا نقيم له الصّلاة؟ ولِمَ لا نؤتي في سبيله الزكاة؟ ولِمَ لا نعتصم به واحدا أحدا؟ قال تعالى: {فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}151ولأنه نعم المولى ونعم النصير فنعمه تتعدد ومناصرته تتعدد على أوجهٍ منها:

1 . إنَّ الله نصيرا لمقيمي الصّلاة، قال تعالى: {فَأَقِيمُوا الصّلاة إِنَّ الصّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}152.

2 . نصيرا لمؤتي الزكاة، {وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}153.

3 . نصير المعتصمون به واحدا أحدا لا شريك له في الملك والأمر، {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}154

4 . نصير لِمن يحقّ الحقّ ويُزهق الباطل، {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ

150 لقمان 16.

151 الحج 78.

152 النساء 103.

153 البقرة 110.

154 النساء 146.

أَنْ يحقّ الحقّ بِكلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}155

5 . نصير لِمن يأمر بالمعروف وينهى عن النكر، قال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}156.

6 . نصير لِمن استغفره وتاب إليه، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}157، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}158

7 . نصير للصائم طاعة لله تعالى، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاما مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

---

155 الأنفال 7، 8.

156 آل عمران 113 . 116.

157 آل عمران 135، 136.

158 النساء 110.

الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}159

8 . نصير لمن حجَّ إلى بيته الحرام، {إِنَّ أَوّل بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}160.

9 . نصيرا لِمن جاهد في سبيله تعالى، {لَكِنِ الرّسول وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأوّلئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}161.

10 . نصير لِمن أمن به وبملائكته وكتبه ورسله، {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}162.

11 . نصير لمن آتى المال على حبّهِ ذوي قربى ويتامى ومساكين وأبناء سبيل والسائلين وفي الرقاب مصداقا لقوله تعالى: {وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حبّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}163.

---

159 البقرة 183 . 185.

160 آل عمران 96، 97.

161 التوبة 88، 89.

162 البقرة 177.

163 البقرة 177.

12 . نصير لِمن أوفي بعهده إذا عاهد مصداقا لقوله تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}164.

13 . نصير للصابرين في البأساء والضراء مصداقا لقوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أوّلئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}165.

14 . نصير لِمن لا يلبس الحقّ بالباطل ولا يكتمه، {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}166.

15 . نصير لِمن يستجيب له، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}167.

16 . نصير لِمن يقرضه قرضا حسنا، {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}168.

17 . نصير لمن يتصدَّقَ من حلاله، {إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}169

وعليه أقول:

164 البقرة 177.

165 البقرة 177.

166 البقرة 42.

167 البقرة 186.

168 التغابن 16، 17.

169 يوسف 88.

النصير سُمِّي نصيرا لأنه كثير المناصرة دون انتظار مقابل.

قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}170 مطلب من رسول كريم إلى من اصطفاه وبعثه نبيا رسولا بأن يجعله على الحقّ في كلّ بداية ونهاية وفي كلّ حركة وسكون وفي كلّ تنقل وإقامة، ولأنّ الأمر متعلق بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام فقد فسَّر المفسرون أن هذا الأمر الذي بشأنه طلب الرّسول ربَّه أن يدخله مُدخل صدق ويخرجه مُخرج صدق هو متعلق بهجرة محمّد عليه الصّلاة والسّلام من مكة إلى المدينة، ولكن في مفهوم الآية الكريمة السابقة معنى يسمح لنا بالقول إنَّ الأمر يتعلق بكلّ أمرٍ فيه خير، ولهذا فهذه الآية تُعد فاتحة لأبواب الفلاح والصلاح والإصلاح وأبواب الخير لمن أراد أن ينجوا من ظلمٍ أو عقبةٍ أو مكيدةٍ ليكون في حفظ الله ورعايته.

أمّا قوله تعالى (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) بدون شك لله جنود السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}171، وعندما كان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في حاجة وهو يعلم أنَّ لله جنود السماوات والأرض طلب من ربِّه أن يجعل له سُلطانا يناصره على مغالبة الباطل وإبطال كيد الكائدين ومكر الماكرين، فجاءته المناصرة استجابة لدعائه مصداقا لقوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}172.

170 الإسراء 80.

171 الفتح 8.

172 الإسراء 81.

ولأنّ النصير مالك الملك فهو يناصر بالمطلق أي لو لم يكن له الأمر وله الملك وله القوّة والقدرة وله الهيمنة وله العزة ما كانا نصيرا بالمطلق، ولأنه يملك كلّ شيء بأمره فهو النصير، ولأنه كذلك فلا مناصرة ولا نصر إلا من عنده {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}173.

وهكذا فهو دائما نصيرا للأنبياء والمرسلين والصديقين والمخلصين له الدين، فقد ناصر موسى بهارون، وناصرهما معا بسلطان من عنده أي ناصرهما بالحجّة التي كان يفتقداها مناصرة حتى كانت لهما الغلبة، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}174.

إذا النصير هو الله تعالى الذي لا شكّ في مناصرته لك إن كنت من عباده الصالحين، ولهذا كان أسمه النصير ملازما لأجل تحقّيق أفعال المناصرة، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفى بِاللَّهِ نَصِيرًا}175، بدون شك الله أعلم منّا بأعدائنا، فهو يعلم السرَّ والجهر ويعلم بما يكنّ الأعداء قبل أن يكنّوه ويعلمه مكنونا وقد نقع في منافقتهم لنا ونحن لا ندري ولهذا ليس للمؤمن بدا من أن يولي أمره إلى الله قائلا ما قاله تعالى لمحمّد ليقوله لأعدائه: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}176.

وعليه نقول:

المناصرة على أوجه منها:

---

173 آل عمران 126.

174 القصص 35.

175 النساء 45.

176 الأعراف 196.

أ . المناصرة بسلطان الحجّة، كما هو حال موسى وهارون قال تعالى: (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).

ب . المناصرة بسلطان من جنده مصداقا لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)، وقال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}177

ج . المناصرة من المؤمنين المحبّين للحقّ والعاملين على إحقّاقه، كما هو حال محمّد عليه الصّلاة والسّلام والأنصار بالمدينة الذين ناصروه على الحقّ وإحقّاقه، ومن قبله عيسى الذي ناصروه الحواريون مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}178.

د . المناصرة بالإمداد والعدة {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}179.

وعليه المناصرة حقّ بين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى واحدا أحدا لا شريك له، له الملك وبيده الأمر، لذا يجب على العبد أن يكون نصيرا للحقّ وأصحابه ولأجل بلوغه ذلك فعليه بأمور منها:

أ . العلم الذي به يتعلّم الحجّة.

---

177 التوبة 40.

178 آل عمران 52.

179 التوبة 41.

ب ـ العمل الذي به يكتسب الخبرة.

ج ـ الإيمان الحقّ الذي به يصبر حتى يكون أسوة حسنة.

د ـ الحكمة حتى يتصف بها في قوله وفعله.

ولذا فمن لا يكون على هذه الفضائل لا يمكن له أن يكون نصيرا ومن يستمد صفاته من النصير المطلق يوصف بأنه نصير.

وعليه؛ فإنّ عذاب قوم لوط لم يأتي عرضه مباشرة في القرآن الكريم كباقي عذابات الأمم السابقة، بل مر بمحلتين ثم بعد ذلك تحقّق:

المرحلة الأوّلى:

هذه المرحلة تعكس نقطة مهمّة تدخل في سياق مكانة كلّ نبي، ذلك أنّ مرور الملائكة عليهم السّلام بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام له دلالات كثيرة، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ، جاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاما قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ، جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ، جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}180. هذه الآيات الكريم تستعرض بداية التوجه إلى قوم لوط، وهنا تتبادر لنا بعض التساؤلات منها:

---

180 - هود 69 – 76.

لماذا التقى الملائكة مع إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم؟

هل كان مرورهم به عليه الصّلاة والسّلام مرورا عابرا؟

لماذا، جادلهم حول قوم لوط؟

هل كان لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام منزلة خاصة تختلف عن النبي لوط صلّى الله عليه وسلّم؟

هل كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مرجعا للوط صلّى الله عليه وسلّم؟

إنّ المرور بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يحمل دلالات عدة، من ذلك كما نعتقد أنه رسول نبي، مرجع للوط الرّسول.

فالمكانة التي يتبوأها، والمهمة الملقاة على عاتقه تجعل المرور به أمرا يفصح عن مكانته، فكان لقاء الملائكة به عليه الصّلاة والسّلام لقاءا عبر عن عظمة هذا النبي الكريم الحليم الذي وصفه الله تعالى بأنه (أمة) إذ يقول تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}181، والحديث الذي دار بينه عليه الصّلاة والسّلام والملائكة، اتسم بالرحمة والرأفة التي يحملها عليه الصّلاة والسّلام رغم شناعة فعل قوم لوط وقوله تعالى: (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) هذه المجادلة حاولت التركيز على صرف العقوبة عن قوم لوط وهذا يظهر لنا سمة الداعي إلى الإصلاح، وتشكلّ مع هذا الجدال إكرام الله تعالى له بالولد بعد البقاء سنين طوال دون ذرية، وهذا من كرم الله تعالى له.

181 - النحل 120 – 122.

إنّ كلّ ما حصل مع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن أمرا عابرا، بل له دلالات عظيمة مرتبطة بواحد من أوّلي العزم صلّى الله عليهم وسلّم، إذ يقول تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}182.

المرحلة الثانية:

تبدأ هذه المرحلة بوصول الملائكة عليهم والسّلام إلى قرى قوم لوط، إذ يقول تعالى:{وَلَمَّا، جاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}183، وهؤلاء الرّسُل هم الرّسُل الذين بشروا إبراهيم بالولد (إسحاق) عليهم السّلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه: الأوّل: أنه ظن أنهم من الإنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم. الثاني: ساءه مجيئهم لأنه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادرا على القيام بحقّ ضيافتهم. والثالث: ساءه

182 - الأحقّاف 35.

183 - هود 77 – 81.

ذلك لأنّ قومه منعوه من إدخال الضيف داره. الرابع: ساءه مجيئهم، لأنه عرف بالحذر أنّهم ملائكة وأنّهم إنّما، جاءوا لإهلاك قومه، والوجه الأوّل هو الأصح لدلالة قوله تعالى: (وَجَاء قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) وبقي في الآية ألفاظ ثلاثة لابدّ من تفسيرها:

اللفظ الأوّل: قوله: (سِيءَ بِهِمْ) ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر. قال الزجاج: أصله سوىء بهم إلا أنّ الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

واللفظ الثاني: قوله: (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاقة والأصل فيه البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوته، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة. فيقال: مالي به ذرع ولا ذراع أي مالي به طاقة، والدليل على صحة ما قلنا أنّهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالأمر ذراعا.

واللفظ الثالث: قوله: (هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ) أي يوم شديد، وإنما قيل للشديد عصيب؛ لأنّه يعصب الإنسان بالشر184.

هذه بداية النهاية لقوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، فكان حال القوم إلا لوطا ومن معه أنهم، جميعا:

مشتركون.

مساهمون.

راغبون.

---

184 - تفسير الرازي، ج 8، ص 445.

متفقون.

وذلك بدلالة قوله تعالى: (يهرعون) هذه اللفظة غطت على كلّ وصف لقوم لوط، إذ فيها دلالة الدفع الجماعي المستمر الموصل إلى المبتغى المراد، وهذا عمل فيه مشاركة واضحة، وفيه حث لبعضهم البعض، وهذا ينتج لنا دلالة الاتفاق المفضي إلى تبني الإصرار الجماعي الذي لم ينفع معه أي إصلاح.

هذه المرحلة تطرح لنا أمرا في غاية الأهمية ألا وهي وجود امرأة لوط في سياق هذه الأحداث العظام، لكن هذا الوجود كان بطريقة مغايرة لما هو متوقع من زوجة نبي، إذ يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّار مَعَ الدَّاخِلِينَ}185.

هذه الآية الكريمة مثل ضربه الله عزّ وجلّ عن حال الكفار في أنّهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأنّ عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرّسولين لم يغن الرّسولان عنهما بحقّ ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله (وَقِيلَ) لهما عند موتهما أو يوم القيامة: (ادخلا النّار مَعَ) سائر(الداخلين) الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط186.

185 - التحريم 10.

186 - تفسير الزمخشري، ج 7، ص 97.

أمّا قضية الخيانة ففيها استفهامات عدة لكن عملية المقاربة بين حال امرأة لوط وبقيت الفساق فيها تقابل نعتقد أنّ مكنونه واضح لا غبار عليه أنهم مشتركون، جميعا في الصد عن دعوة النبي المرسل، فامرأة نوح ولوط كانت خيانتهما نفاقهما وإخفاؤهما الكفر، وتظاهرهما على الرّسولين، فامرأة نوح قالت لقومه إنه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلى لوط عليه الصّلاة والسّلام فيمتنع أن تكون خيانتهما بالفجور، وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط، وقيل: خيانتهما في الدين187.

إنّ عذاب قوم لم يكن كسائر عذابات الأقوام السابقة، فهو شكلّ مغاير فيه استدراج للفكر الإنساني كي يتبصر ويعيد حساباته ليرى ما فعل أوّلئك النّاس وكيف كانت عقوبتهم، فعقوبتهم بينها الله تعالى بقوله: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا، جاءَ أَمْرُنَا، جعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}188، وقوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}189. تتبادر إلينا بعض التساؤلات حين التعرف على العذاب الوارد بهذه الصورة لقوم لوط منها:

187 - تفسير الرازي، ج 15 ص 390.

188 - هود 81 – 83.

189 - الذاريات 31 - 37.

لماذا هذا العذاب؟

هل هناك علاقة بين طبيعة هذا العذاب وأفعال قوم لوط؟

لماذا هذا البتر للقوم بأكملهم؟

هل في نوعية هذا العذاب دلالات مستقبلية للناس كافة؟

إنّ مهمة الإصلاح انتهت بعد وقوع العذاب على قوم لوط، وان النبي لوط عليه الصّلاة والسّلام خرج من دائرة التبليغ إلى دائرة الحجّة عليهم، فكلّ السنوات التي قضاها عليه الصّلاة والسّلام بين ظهرانيهم والتي كانت صورة واضحة للمصلح الذي يريد اقتلاع الفسوق من، جذوره لم يتحقّق فيها الإصلاح المرجو، فقد كانوا قوما فاسقين لم يغيروا أنفسهم حتى ولو من باب المحاولة، فقد استمروا على:

- عصيانهم.
- تمردهم.
- صدهم.
- مجاهرتهم.
- طغيانهم.

وهذا خلق حالة من الانفصال بين دعوة لوط عليه الصّلاة والسّلام وبينهم، فلم ينظروا إلى الدعوة بأيّ منظار حتى ولو من باب المراجعة، وهذا شكلّ حاجزا منيعا لم يعرفوه حقّ المعرفة إلا بعد أن ظهرت أمّامهم علامات العذاب ومن ثمّ أصبحت ديارهم خاوية.

إنّ عملية الإصلاح لم تقف عند محور واحد بل تشكلّت من عدة محاور كان أخرها الشكلّ الذي طرحه عليهم لوط صلّى الله عليه وسلّم،

إذ يقول تعالى: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}190 فقوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمٌ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) ففيه قولان: قال قتادة: المراد بناته لصلبه. وقال مجاهد وسعيد بن، جبير: المراد نساء أمّته؛ لأنّهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدّعوة. قال أهل النحو: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، لأنّه كان نبيا لهم فكان كالأب لهم. قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوّلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأوّلو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوّلى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوّلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}191 وهو أبّ لهم وهذا القول ما نختاره، ويدل عليه وجوه: الأوّل: أنّ إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟ الثاني: وهو أنّه قال: (هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم. أمّا نساء أمته ففيهن كفاية للكلّ. الثالث: أنّه صحت الرواية أنّه كان له بنتان، وهما: زنتا، وزعورا، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أنّ أقل الجمع ثلاثة، فأمّا القائلون بالقول الأوّل فقد اتفقوا على أنّه عليه السّلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان، بل المراد أنّه دعاهم إلى التزوج بهن، وفيه قولان: أحدهما: أنّه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان. والآخر: أنّه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وهكذا كان في أوّل الإسلام بدليل أنّه عليه السّلام زوج ابنته

190 - هود 78.

191 - الأحزاب 6.

زينب من أبي العاص بن الرّبيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك192.

إنّه النبي لوط المؤمن، الذي تجسّد الإيمان فيه صفة، وهي الصّفة التي لا تسمدّ إلّا من المؤمن المطلق، وهو الودود الذي يخاف على بناته المؤمنات الكريمات، ولهذا فالودّ لا يكون إلّا من ودود، والودود لا يمكن أن يكون كذلك إلّا إذا استمدّ صفة الود من الودود المطلق، ومن هنا كان الودّ صفة من صفات النبي لوط عليه الصّلاة والسّلام، والودود "هو الذي يحبّ الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثني عليهم"193.

والودود "الذي يَوَدُّ عبَادَهُ الصالحين فيحبّهم ويقربهم ويرضى عنهم ويتقبَّلُ أعمالَهم، وهذه محبّة خاصّة بالمؤمنين، أمّا المحبّة العامة فالله هو الودود ذو إحسان كبير لمخلوقاته من جهة إنعامه عليهم وإكرامه للإنسان واستخلافه بينهم، حيث أسجد له ملائكته واستخلفه في أرضه على سبيل الابتلاء، واستأمنه في ملكه انتظارا لمزيد من الإكرام في دار الجزاء، وبعث إليهم الرّسُل وأنزل عليهم الوحي من السّماء، كلّ ذلك بفضله وكرمه وعطائه ومدده"194.

الودود: هو الله المتصف بالود، ولأنّ الود من ذات الله فإنّ استمداده لا يكون إلا منه، ولهذا فالله الودود مصدرُ لكلّ ودّ.

---

192 - تفسير الرازي ج 8، ص 446.

193 المقصد الأسنى، ج 1، ص 122.

194 أسماء الله الحسنى، ج 23، ص 10.

الودود: هو غير منقطع الود، وهو الذي يود المودود بما لا يكو ن في حسبانه، أو أنّه في حسبانه ولكنّه في غير دائرة المتوقّع الزّماني أو المكاني، أو الاثنين معا.

والودود: هو من يملك ما لا يملكه غيره، في الوقت الذي يكون الغير في حاجة ممّا يملك المتصف بالود، ولذا فالود لا يقابله إلا ود، والود لا ينتج إلا محبّة بها تطوى المسافات بين الودود المطلق والودود بالإضافة، وهكذا يمتد الود من ودودٍ إلى مودودٍ من بعده مودود، ولهذا فالود يستخلف فيمن تهيأت نفسه لمبادلة ودٍّ بودٍ.

والله تعالى ودود بالآتي:

1 . ودود بمغفرته: قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[195].

مع أنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أنّه لم يخلقه على الكمال، فهو يُخطئ ويصيب ولأنّه كذلك فكان فضله عليه بالاستغفار ودا، ولأنّ فعل الفاحشة من الأفعال النواقص، فمن يرتكبها أو يظلم نفسه ويذكر الله فالله يغفر له فعلته لكلّ ذنب دون الشرك به، ولذا فالخليفة يذكر ربّه دون إصرار على فاحشة فيغفر له ذنبه، ولذلك لا يغفر الذنوب إلا الودود عزّ وجلّ. وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ

195 آل عمران 133 . 136.

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}196، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}197.

2 . ودود برحمته: قال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}198.

الرّحمة مكوّن قيمي من أفعال الخير، وتستمد من الرّحمن، وهي لا تمنح إلا من أبواب الود، ولذا فللرحمة أبواب مفتّحة لمن يود أن يدخل منها لمودة الرّحمن خوفا من عذابه، والخليفة بطبعة الإيماني هو دائما في حالة انتظار للفوز برحمة الودود، ممّا يجعله فاعلا للخير ومحرضا على فعله. وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ

---

196 الزمر 23.

197 الصف 10 . 13.

198 الإسراء 54 . 58.

اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}199، وقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}200.

3 . ودود بعفوه: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلاة وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}201، الله تعالى خلق الإنسان ويعلم بحاله وما فيه من غرائز فطرية، وما له من حقّوق في المعاشرة الزوجية، ولأن لكلّ ظرفه فقد يتعرض الخليفة لظروف تحول بينه وبين التطهُّر فيسر له بواسع عفوه أن يتيمّم إذا تعرض لمجيء الغائط أو لا مس النساء، ولذا فمن وده التيسير والعفو ممّا يجب أن يقوم به الخليفة لو لم يتم التعرض لمواقف وتحول الحوائل بين تأدية الفريضة في وقتها. قال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}202.

والخليفة هو من يستمد صفة الود من الودود المطلق ليكون الود المعاملة بين النّاس، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

199 القصص، 71 . 73.

200 الجاثية 30.

201 النساء 43.

202 النساء 98، 99.

الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}203، وقال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}204.

4 ـ ودود بحفظه: قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}205.

الله ودود وهو بالود حفيظ، ولذا فالحفظ نتاج عناية ربانية، ولأنّ الودود جَعَلَ في الأرض خليفة، والخليفة هو من يستمد صفاته من صفات الله تعالى، ولكي يختص بصفة الحفظ، فليتقي الله ربّه في كلّ قول وفعل، وفي كلّ سر وعلانية، وليكن حفيظا للعهد إذا أبرم عهدا، وحفيظا على الأرض بالفلاح فيها، وحفيظا على أداء العمل إذا ما كلّفَ به في مرضاة الله حتى يكسب وده، ويجب عليه رعاية الكبير وحفظه ورعاية الصغير وحفظه، ورعاية المسكين واليتيم والسائل والمحتاج بود ورحمة، وأن يكون وحفيظا على حمل الأمّانة، وطاعة الوالدين، وحفيظا على كلّ ما يحافظ على بقاء النوع الإنساني، وحفيظا بكلّ ود على أداء الصّلاة والزّكاة وصوم رمضان والجهاد في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل وتجنب ما أمر الله بتجنبه والانتهاء عما نهى عنه وحفيظ

---

203 البقرة 178، 179.

204 الشورى 40، 41.

205 هود 56، 57.

على شكره وطاعته، فله الحمد على وده وحفظه. قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}206.

والخليفة بالإضافة قال: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}207.

5 . ودود بحسن خلقه: قال تعالى: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحيم الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}208.

لقد خلق الخالق كلّ شيء بحسنه، وفضّل الإنسان على ما خلق بحسنٍ من ماء مهين، والمهين هو المتماسك باللين التام، ومع أنّنا نحس بلين الماء كلّما حاولنا الإمساك به بين اليدين، إلا أنه إذا ما انحدر في الشلالات كان قوّة بها تتولد الكهرباء وإذا ما داهمتنا كانت القوّة التي لا نستطيع مقاومتها، ولذا فمن هذا الماء المبارك المهين نحن كنا ويكون الخلفاء من بعدنا والوارثون.

وعليه فمن لين الماء المهين كان الود فينا، ومن قوّته إذا ما انحدر من أعالي الشلالات نثور ونغضب لكرامة ولدين الله إذا ما تعرض

---

206 سبأ 20، 21.

207 يوسف 55 . 57.

208 السجدة، 6 . 9.

لاعتداء الظالمين، ومن قوّته كان العقل قوّة ينير الدرب ويصنع المستقبل وينقل الإيمان حتى يحقّق العزّة.

وقال تعالى: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حبّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}209.

وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}210.

6 . ودود بكرمه: قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أوّلئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}211. وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}212، وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}213.

الكريم هو المعطي بدون منة، والمالك الذي لم يكن في حاجة لِما يملك، سبحانه يملك الملك من أجل ما يملك. ولأن الكريم معطٍ بدون

---

209 عبس 18 . 32.

210 التين 4 . 8.

211 الأنفال 2 . 4.

212 ياسين 11.

213 الحديد 11.

منة، فهو ودود بما يعطي ويرزق، والخليفة هو الذي يملك من الملك المطلق، ويرزق من هم في حاجة بالعطاء والعمل والتصدق والتزكي دون أن ينتظر مقابل ذلك إلا مرضاة الرازق عزّ وجلّ، وهو الذي يعلم أنّه يعطي ممّا أعطاه الودود المطلق فلا يمن.

7 . ودود برزقه: قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}214، مالك الرزق هو مالك أمره، ومالك الرزق لم يكن في حاجة لرزقٍ، ولهذا فهو الخالق لمن هم في حاجة لرزقه، وجعل الخليفة ليرزق من رزقه من هم في حاجة، والخليفة هو من يعلم أن ما يعطي من رزق هو في أساسه عطاء من معطٍ لا يمن ويعلم أن الرزاق رزقه لا ينضب سبحانه لا إله إلا هو. قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}215.

8 . ودود بإنزاله الماء الطهور المخرج للثمرات: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنَا أَنْعَاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}216، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كلّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حبّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ

---

214 الذاريات 55 . 58.

215 النور 37، 38.

216 الفرقان 48 . 49.

انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}217
وقال تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصّلاة وَيُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}218.

سبحانه وتعالى خلقنا ممّا خلقنا من ماء مهين، وخلق لنا الماء نعمة بدونه لا تكتب لنا الحياة، وبدونه لا تنبت الأرض العشب، وبدونه لم نتنقل عبر البحار والمحيطات، وبه ولَّدنا الطاقة التي تنير المنازل وتحرك وسائلنا التي صنعناها بالقوّة المستمدة من القوي الودود، ولهذا تسخَّرت لنا الأنهار لتنقل لنا ماء عذبا طهورا، والمحيطات تتبخر حتى يكون السحاب ركاما فيسقط المطر بوده رحمة ماء طهورا.

9 . ودود باستخلافه: قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}219.

لقد ميز الله الإنسان باستخلافه في الأرض دون غيره ممّا خلق، وبهذا الاستخلاف نال المستخلف وده بحمل الأمّانة التي كان بأمرها ظلوما جهولا، وليهديه سبيل الحقّ بعث من المستخلفين أنبياءً ورسلا صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وجعلهم الوارثين وكان فضل الله عليهم كبيرا. وعليه فمن المستغرب أنّ البعض لا يذكر خالقه ليستغفر ذنبه، ولا يوحده وهو الواحد الأحد.

217 الأنعام 99.

218 إبراهيم 31، 32.

219 النمل 62.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}220.

ما يعلمه الله لا يعلمه الملائكة فلو كان الملائكة يعلمون ما كان لهم الاحتجاج على اختيار الله للخليفة، ولأنهم يسلمون بما يأمر الله عزّ وجلّ فكان الملائكة أوّل الساجدين طاعة لأمر الله بالمطلق. وكان الاختلاف مع إبليس المستكبر الذي عصى الأمر، وبرغم ذلك ظل الإنسان خليفة والحمد لله أنّنا من المستخلفين فيها، وندعو الله أن يجعلنا من المصلحين لا المفسدين ويجعلنا من الصالحين ومن الوارثين. قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}221.

10 . ودود بعزّته: قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا

220 البقرة 30 . 34.

221 الأعراف 74.

يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}222.

كم يشعر الإنسان بالاعتزاز عندما يقدم على أداء واجب ويحمد ويشكر عليه، وكم تملأه العزة بإيمانه عندما ينظر إلى المشركين وهم لم يبلغوا بعد ما يمكنهم من امتلاك العزة التي بلغ أعاليها بتوحيده واحدا أحدا لا شريك له، ومع ذلك يأسف لهم وهو يأمل بلوغهم اليقين وبهذا سيكون داعية لذلك حتى تعم رحمته الأرض ومن عليها من العباد، ولأنه الودود فهو لا يقفل باب التوبة لمن يشاء أن يتوب إليه. قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}223.

11 . ودود بإشفائه: قال تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}224، وقال تعالى: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}225.

الإنسان مخلوق لا يملك لنفسه ملكا إلا ما رحم، فعندما يمرض يلتجئ إلى الطبيب لعلاجه وعندما يعطش يسعى للحصول على الماء ليرتوي من ظمئه، وعندما يجوع يسعى للعمل الذي به يتحصل على ما يشبع جوعه، وإذا لم يتمكن من بلوغ ذلك فهو يعلم أنه سيتعرض للمرض وحتى الموت إن لم يرحمه الله بواسع وده فيمكنه من بلوغ ما عجز عن بلوغه قبل الاتكال عليه وقبل أن يثق إيمانا تامّا بأنه الشافي من كلّ مرض وداء ويعلم يقينا إن الطبيب لا يستطيع الشفاء إذا لم

222 فاطر 10، 11.

223 المنافقون 8.

224 الشعراء 80.

225 التوبة 14، 15.

يشفه الله اللهم أشفنا من كلّ مرض وداء واجعلنا من الطائعين بودك ورحمتك. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}226. شفاء القرآن لمن آمن به كتابا محفوظا وإعجازا خالدا ودينا ميسرا بود من الودود، فهو شفاء للنفس من كلّ غم وهم، بطمأنة وتقوى، والقرآن رحمة بآياته وحججه والحِكم التي تجيب على كلّ سؤال، والعلم الذي يمتلئ به الكتاب المحفوظ، فيه حل لمشكلّ الإنسان في الهداية والعمل الصالح، وفي العدل والحكم والتعاون والتآلف والمحبّة والمودة والتآخي.

12 . ودود بإراثه: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأوّلئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمّانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أوّلئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}227، من بعد الاستخلاف في الأرض يكون الاستخلاف في الجنّة بالعمل الصالح في الحياة الدنيا، ولذا فالله يود المستخلفين بالميراث في الجنّة، قال تعالى: {قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا}228.

---

226 الإسراء، 80 . 82.

227 المؤمنون 1 . 11.

228 الفرقان 15، 16.

13 . ودود بتأليفه ذات البين: قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}229.

الودود هو الذي يستمد الود منه ويسود بين العابدين له محبّة ووفاء وصدق وتعاون وتآزر، ولهذا ينهى الودود الخليفة عن التفرق والفتنة والاختلاف عليه وهو الواحد القهار، كيف ولماذا يختلفون ويتفرقون بعد ما جاءتهم البينات التي لم يكن من بعدها ما هو غامض أو خفي؟!. قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}230.

14 . ودود بحبّه: قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حبّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}231.

الودود هو الذي يعطي ما يشاء ممّا يملك لمن يشاء دون أن ينقص من ملكه شيء، وهو الودود بعطائه ورضاءه وهو الذي استخلف من

---

229 آل عمران 103 . 105.

230 الأنفال 62، 63.

231 الإنسان 8 . 11.

استمد الود منه محبّة بين النّاس ليكون لذوي القربى واليتامى والمساكين والفقراء والسائلين حقّ معلوم يدركه الخليفة حقّا بينا لا شك فيه فيقدم على إظهاره وإعطائه لمن هم في حاجة إليه وبهذا يكون الخليفة من الوارثين من بعد استخلاف في الأرض وطاعة. {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حبّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصّلاة وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أوّلئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}232.

15 . ودود بلطفه: قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}233، من له نصيب أينما يكون يأتي به الله مودة خالصة لمن هو في حاجة إليه، قال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}234.

لطف الله بالعباد أنّه جعل الهداية فيهم والرّسُل منهم وإليهم فقد أسبق عليهم خلق الرزق قبل خلقهم ليجدوا ما يشربون ويأكلّون ويشبع حاجاتهم، فلو لم يكن الرزق ما كانت الحياة وفقا لمعطيات الخلق التي نعرفها ونعلمها كما نعلم أنه بالمطلق إنّه على كلّ شيء قدير، ولذا فلطف الودود بالعباد أنّه ودهم بالحياة والرزق وودهم بالعقل لتكون

232 البقرة 177.

233 لقمان 16.

234 الشورى 19، 20.

الهداية إليهم ثمّ تصبح منهم جيلا بعد جيل حتى تعم بلطفه الأرض المستخلفين فيها.

16 . ودود بعدله: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}235، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}236.

كلّ المستخلفين فيها يكرهون الظلم وذلك لأنه مقت عظيم، ولولا فضل الله ورحمته لكانت العبودية بين النّاس إلى أبد الابدّين، ولهذا حرم الله العبودية عدلا بين النّاس ورحمة، والعدل في أساسه إحقّاق حقّ وإزهاق باطل، ولأنّ الله هو الحقّ جعل العدل بين العباد طاعة، ولأنه ودود لم ينص على حكم العباد بل نص على الحكم بينهم بالعدل وهذا دليل على تعميم المساواة، فلا فرق بين المستخلفين فيها إلا بالعمل الصالح.

والخليفة هو من يتبع عدله فيما أمر ونهى قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ

235 النحل 90.

236 النساء 58.

كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}237

17 . ودود بنهيه: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}238، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}239.

الله الذي أمر بالطاعة هو الذي نهى عن طاعة، ولذا فالفرق كبير بين الطاعة التي أمر بها الله وبين الطاعة التي نهى عنها، فطاعة الحقّ بأمره والانتهاء عن الظلم من أمره، ولهذا لا طاعة لمن يدع من دونه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}240.

18 . ودود بإحقّاقه الحقّ: قال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصّلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُون}241.

---

237 البقرة 282.

238 النحل 90.

239 الحشر، 7.

240 الأنعام 56.

241 البقرة 42 . 46.

إحقّاق الحقّ بين المستخلفين فيها عبادة وطاعة، ولذلك نهى الله عن تغليف الحقّ بالباطل ونهى عن كتم الشهادة وقولها حقّ، ولذا فالصّلاة حقّ لا ينبغي الإغفال عنها وإيتاء الزكاة حقّ فلا ينبغي تأجيله أو تأخيره أو الامتناع عن إيتائه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحقّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}242، وقال تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يحق الحقّ بِكَلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}243، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}244.

19 . ودود بزهقه الباطل: قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ}245.

الباطل هو ما ليس بحقّ، وما ليس بحقّ في منهج الخليفة لا يُحقّ، ولذا فمن اتبع الهدى ليس له بدّ إلا أن يحقّ الحقّ ولو كره المجرمون والظالمون والمشركون، ولأنّه الودود عزّ وجلّ كان وده للذين يقذفون بالحقّ على الباطل حتى يدمغه ويزهق، وعليه فمن يزهق باطلا ينال رضا الله ووده. قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيحق الحقّ بِكَلّمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

242 الأنعام 57.

243 الأنفال 7، 8.

244 الحج 62.

245 الأنبياء 18.

الصُّدُورِ}246، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}247.

20 . ودود بهدية: قال تعالى: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}248.

الهداية إرشاد لصواب وحقّ، فالله الهادي لمن يشاء متى ما شاء وكيف شاء، ومن يستمد هدايته من الله يستمد منه الاستخلاف في الأرض، ومن ينل هداية الله ورضاه يكن من بعد الاستخلاف من الوارثين في الجنّة، ولذا لا يمكن أن يتم الدخول إليها إلا بهداية من الهادي المطلق، ومن دخلها كان من الفائزين الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}249، وقال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حقّ تِلَاوَتِهِ أوّلئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأوّلئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}250.

21 . ودود باصطفائه للرسل والأنبياء: قال تعالى: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأوّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ

---

246 الشورى 24.

247 الإسراء 81.

248 البقرة 213.

249 البقرة 38، 39.

250 البقرة 120، 121.

مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}251، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}252.

في بداية الخلق كانت الأخلاق فطرية غرائزية وذلك لأنّ الخالق خلق قلة لا كثرة ثم بعد أن ساد التكاثر بإذنه وانتشرت البشرية في المعمورة ساد من بين ما ساد الفساد في الأرض، ولأن الله خلق الإنسان ويوده أن يكون خليفة له في الأرض وفي أحسن تقويم، مصلحا فيها لا مفسدا وسافك دماء، لم يكن راضيا عما يعمله المفسدون فاصطفي الأنبياء والرّسُل مبشرين ومنذرين ومحرضين على أفعال الخير، فأنزل عليهم الصحائف والكتب والرسالات السماوية من عنده عزّ وجلّ، فكانت النصيحة والحكمة والحجّة بين أيدي النّاس، فنهى عن المنكرات والمفسدات وحرم ما يضر ويُهلك ولا يفيد ولا ينفع النّاس ويفرق بينهم، وترك الهداية بالحسنى وبدون إكراه حيث لا إكراه في الدين خاصة بعد الرسالة المحمّدية الخاتمة.

ولأنّه ودود بعث الرّسُل مبشرين ومنذرين يعلّمون النّاس طريق الخير والفلاح والهداية، فيهدونهم إلى ما يجب أن يقال وأن يُعمل أمّامهم حتى يروا كيف تقام الأعمال وتؤسس الحجج، وكيف تؤخذ الحقّوق وتؤدّي الواجبات وكيف تُحمْل المسؤوليات، وكيف تمارس العبادات، فكانت عبادة الواحد الأحد على أيديهم وتجنب المفسدات على أيديهم، واتباع الهداية وأداء الشعائر على أيديهم، فكان الخليفة المصطفي عليه الصّلاة

251 الزخرف 6 . 8.

252 آل عمران 31 . 34.

والسّلام منذرا للكافة {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}253.

قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}254، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}255

22 . ودود بإنزاله الكتاب: قال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أوّلئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}256.

---

253 ص، 65 . 70.

254 الحج 75 . 78.

255 النساء 64، 65.

256 البقرة 1 . 5.

الهداية قول وفعل لطاعة ودود مطلق، وحتى لا يكون أمر الهداية اجتهادا بعث الله الرّسُل بالكتب فكان لكلّ قوم هادٍ إلى أن جاءت الهداية الخاتمة، والحكمة من الرسالة الخاتمة كتاب واحد من ربٌّ واحد للناس كافة هو: لأجل إبعاد كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى نزاع وفرقة وفتنة وإفساد في الأرض، أو خصام واختلاف باسم الله أو باسم الرّسُل السابقين لمحمّد عليهم جميعا الصّلاة والسّلام، والله رؤوف ودود بالعباد، ومع ذلك فالكثيرون لم يهتدوا بعد إلى القول الحقّ الخاتم. وهذه من أعباء حمْل الأمّانة التي حملها الإنسان وهو ظلوما جهولا، لذا فالخليفة هو من أدرك هذا العبء الذي قبل بحمله من اصطفاهم الله وميزهم بحمله، ولأنّه يعلم فهو يبشر بكلّام الله ويرشد به ويرشد إليه، ويُذكِّر به، وينهى عما نهى الله عنه، ويحرض على ما يحرض عليه. وعليه فالحمد لله الذي بعث في الأميين رسولا قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقّوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النّاس فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}257، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرّسُل وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكلّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا

---

257 الجمعة 2 . 6.

مَا يُؤْمِنُونَ}258، وقال تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}259.

23 . ودود برأفته: قال تعالى: {وَمِنَ النَّاس مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}260.

في كلّمة الرأفة ظهور لإحساس الخالق بالمخلوق، وحرصه وعنايته به، لذا جعل الرأفة فينا في أحاسيسنا ومشاعرنا حتى كنا على عاطفة بأكبادنا وآبائنا وأبنائنا وأحفادنا وبأنفسنا ومعتقداتنا وديننا الذي ارتضاه لنا وارتضينا، وبأوطاننا وبني عرقنا وإخوتنا في الإيمان، هذه رأفة في قلوبنا والخليفة هو من يغار برأفته على ما ذكر إحقّاقا للحقّ وإزهاقا للباطل، واحتراما وتقديرا لمن له الحقّ علينا ولمن لنا الحقّ عليه، فمن رأفة الله بنا إنّه لا يودّ أن تشيع الفاحشة في الدين وبين الذين خلقهم الله بوده في أحسن تقويم ليعمروا الأرض ولا يفسدوا فيها. قال تعالى: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}261، وقال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}262.

24 . ودود بحلمه: قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حبّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

---

258 البقرة 87، 88.

259 البقرة 231.

260 البقرة 207.

261 النور 18 . 20.

262 آل عمران، 30.

لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}263.

الحلم لين واللين لا يكون إلا بودٍ، ولذا فالودود حليم في مخاطبة خلقه ورؤوف بهم لا يستعجل على حسابهم وعقابهم يمهل ولا يهمل يدرك الحقّ ويستوجبه فعلا، ولكن يعلم الضعف الذي يلم بالإنسان والغفلة التي يمر بها في كثير من الأحيان، فترك له الأمر والفرصة حتى يتاح له التبين والإدراك لتكون الفرصة له في التصحيح والتصويب، ولأنه رؤوف يغفر الذنوب السابقة للاستغفار بالنسبة للذين لم يعلموا من قبل علم اليقين، أي الذين لم يبشروا بما يجب أن ينهون عنه، أمّا أوّلئك الذين علموا وعصوا ثم استغفروا فإن الله غفور رحيم لكلّ شيء إلا الشرك فإنه أمر عظيم. وعليه فالحلم قانون المودة في التعامل بين النّاس بالاحترام والتقدير والتفهُّم وإعطاء الفرصة لأجل التصحيح والتصويب والعودة إلى الدين والعرف الذي أعتاده النّاس في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل وإعمار الأرض والفلاح فيها. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}264.

---

263 البقرة 261 . 263.

264 المائدة 101 . 103.

25 . ودود بعلمه: قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}265، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}266. وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}267.

العلم نور به يتم إدراك الحقّ واتباعه، وبه تتسع دائرة المعارف وتضيق وتقفل دائرة الجهل، به يدرك اليقين، وبه تقفل أبواب الكفر والشرك، به يعم العدل بين المستخلفين في الأرض، وبه يتم التمكن من بلوغ الجنّة، إنه ود من ودود خبير، فالعلم حقّ يجب أن يعم النّاس ويكون بينهم معاملة تهذب السلوك وتصقل الألسن وتصاغ به المفردات والجمل والنصوص التي تحكم أعراف النّاس وقوانينهم في الحياة، وبه يتم إدراك الحقّيقة التي يسعى الباحثون إلى معرفتها. فالعلم بالنسبة للخليفة مكتسب من عليم خبير، والعلم بالنسبة للخليفة هو دائما في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، أمّا في دائرة الخالق فإن الودود علام الغيوب. إذن العلم المخرج من الظلمات إلى النور ود به تتحسن أحوال المستخلفين فيها، ولو لم يكن الودود عليما خبيرا ما كان لنا من علمه

265 البقرة 255.

266 البقرة 235.

267 المائدة 116.

شيء وما كان لنا الخروج من الظلمات إلى النور ولذا فالعلم منه ود متكامل لمن علمه الله الأسماء واستخلفه فيها بوده.

26 . ودود بحكمته: قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}268،

الحكمة مضمون محمول في الكلّمة والجملة والنص، وهي الصياغة التي تحمل في مضمونها المثل العليا للناس، وتحمل في مضمونها قصص بحالها، ولذلك فمن أوتي الحكمة أوتي خيرا كثيرا، الحكمة ذات دلالة لأخذ العبر والاقتداء بما يجب وترك ما يجب تركه، إنها الاختصار المفيد النافع للقول، وبها يتم الاتعاظ، وعليه فمن الحكمة أن يشكر الله على نعمه ووده وفضائله الحسان، ومن الحكمة أن لا يظلم أحد أحدا، ومن الحكمة أن يفوز الأبناء برضا الوالدين وطاعتهما في غير معصية الله. قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

268 البقرة 269.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}269

27 . ودود بجنته: قال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}270،

دائما جزاء الإحسان إحسان، فمن زرع خيرا حصد جزاء وفيرا، ومن زرع شرا حصد عقابا شديدا، ومن استخلف في الأرض بعمله الصالح فاز بالجنّة ومن لم يكن من المستخلفين الطائعين سيكون في جهنم اللهم قنا عذاب النّار واجعلنا من الوارثين في الجنّة والفائزين فيها لا الخاسرين إنّك سميع مجيب تجيب دعوة الداعي إذا دعاك، دعوتك بما دعاك به يونس عليه الصّلاة والسّلام بلا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، دعوتك بعزتك لمحمّد ونصرك له عليه الصّلاة والسّلام. قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}271.

---

269 لقمان 12 . 19.

270 الإنسان 12 . 22.

271 النساء 124، 125.

28 . ودود ببعثه: قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}272، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}273.

حياة الخلائق لا تدوم ووده دائم، أي ما يسجل يحفظ في كتاب محفوظ ويبقى شاهدا حيا لا يموت إلى يوم يبعثون، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد، تفنى الخلائق ويبقى الملك لله الواحد القهار، ولذا فالوجود يمر بالمراحل الآتية:

أوّلا: مرحلة خلق الشيء من لا شيء: سبحانه على كلّ شيء قدير. قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}274، وقال تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}275، وقال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}276.

ثانيا: مرحلة خلق الشيء من الشيء: فالله خلق التراب وخلق منه بني الإنسان في أحسن تقويم. قال تعالى: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ

---

272 الأنعام 36.

273 المجادلة 5، 6.

274 البقرة 117.

275 آل عمران 47.

276 النحل 40.

وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}277، وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}278.

ثالثا: مرحلة التكاثر: قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}279، وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}280، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}281.

رابعا: مرحلة الانتهاء: وهي المرحلة الساكنة التي ينتقل إليها المخلوق من الحياة إلى الموت فيظل من حيث الوجود ساكنا لا عمل يزيد ولا عمل ينقص، ولا حركة ولا تكاثر، مرحلة الموت مؤقتة مثل الحياة مؤقتة، ولأنهما يقعان في الزمان المؤقت فإن النهاية لهما دائمة بعد موت الموت فيبعثون فسبحان الذي يحي الموتى، قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

277 آل عمران 49.

278 آل عمران 59.

279 ياسين 36 . 40.

280 النحل 72.

281 الأنعام 165.

شَيْءٍ شَهِيدٌ}282، وقال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}283. وعليه فالموت بقاء في الوجود الساكن ولو لم يكن للموتى وجود ساكن ما بعثهم الله يوم بعثهم الذي لا يعلمه إلا هو، البعث مرحلة ولادة جديدة بأعمال سابقة، في حياة جديدة لا علاقة لها بالحياة الأوّلى إلا الأعمال المحفوظة للمساءلة والمجازاة التوّابية أو العقابية.

المرحلة الخامسة: مرحلة البعث: إنها مرحلة الحياة الدائمة، الباقية سرمديا لمن رضي الله عنهم ورضوا عنه قولا صادقا وعملا صالحا وتصديقا تامّا وطاعة لا ضلال في ذلك الزمان الذي طويت سجلاته بالموت الذي جعل الموتى في مرحلة انتظار للبعث، والبعث هو الولادة الجديدة في الحياة الحيوان. قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}284، وقال تعالى: {فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}285، وقال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}286.

وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوّلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمّانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوّلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ

282 المجادلة 6.

283 الزمر 30.

284 الحج، 6، 7.

285 الشورى 9.

286 البقرة 28.

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}287.

الودود اسم محبّبٌ إلى القلوب، مرتبطٌ بالحنان والرّحمة والعطف، اسمٌ يوقع في نفس المؤمن راحةً وأملا وطمأنينة، والخليفة يرى في حبّ الله تعالى له خيرا جزاءا لإيمانه بالخالق عزّ وجلّ، واسم الودود يفتح أمّام المذنب فسحات أملٍ واسعة باتساع توبته، فلا ييأس من رحمة وحبّ الله تعالى، وهذا الود أيضا هو بمثابة دلائل على جهل الكافر وجحده بمن يتودد إليه بالعطاء والمنح.

والودود اسم من أسماء الله الحسنى، وهو في اللغة من صيغ المبالغة، والود مصدر المودة، فعله ودَّ الشيء وُدّا ووِدّا ووَدا، والود يرتبط بالأحاسيس والمشاعر وما تأمله القلوب في طاعة الله تعالى.

فالودود هو مصدر الود، أي أنّه المصدر الذي يستمد الود منه، ولذا فالودود لا حيز لحسد يشغله، وبالغة المنطق الود صلة أخلاقية بين النّاس، وبينهم وبين خالقهم (مصدر الود المطلق).

ولارتباط هذا الاسم بالرحمة واللطف فقد لزم ارتباطه بالتأكيد بالحبّ، هذا الحبّ الذي يقربك من الخالق عزّ وجلّ الذي يحبّك ويتودد إليك هذا وهو الذي خلقك وأنت ملكه وهو القوي وأنت الذي تستمد قوتك منه، إنّه الودود الذي وسع وده وحبّه كلّ تائب وكلّ عابد وكلّ مخلوق في هذا الكون.

---

287 المؤمنون 1 . 16.

والود بين الخلائق بمعناه هو الظهور الواقعي لمشاعر المحبّة الكامنة، أي أنّه تجسيد لها، وبهذا يكون هناك فرق بين الحبّ والود رغم ارتباطهما مع بعض، فالحبّ ما استقر في القلب، لكن الود ما ظهر في الفعل، وهذا يتضح عندما يحبّ الإنسان شخصا فإن مشاعر الميل نحو هذا الشخص هي الحبّ الذي يشد الآخر شدا، ويشد الاثنين في واحد، والود يتبع النية، ولذا فالأعمال بالنيات ولكلّ أمر ما نوى فهو يعلم ما تكنه الصدور {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}288، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}289. فالود هو التعبير الظاهر عن مشاعر الحبّ تجاه من نحبّهم فنحن بذلك نكون ودودين نتودد إليهم بما نظهره من أفعال كالابتسام لهم والبشاشة في وجههم أو كتقديم الهدايا لهم ومجاملاتهم في مناسباتهم السارة والحزينة، ولو لم نظهر هذه التعابير لهم فإننا نكون نحبّهم بما نحمله لهم من مشاعر الحبّ في قلوبنا ولكننا لا نتودد لهم فنستخلص من هذين المعنيين أن كلّ ودود محبّ وليس كلّ محبّ ودود.

وقد ورد في القرآن الكريم اسم الودود في موضعين:

الأوّل: عندما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن وُدّه بنفسه وذلك في قوله تبارك وتعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}290، فالله هو الخالق الأوّل والآخر كلّ شيء بيده فهو يبدئ ويعيد، وهو في ذاته هو الغفور الودود ذو العرش المجيد،

---

288 هود 5.

289 الحج 46.

290 البروج، 13 . 16.

أي أن الله هو الودود الذي بوده يغفر ويبدى ويعيد وهو على كلّ شيء قدير سبحانه.

الثاني: ما جاء على لسان نبي الله شعيب – عليه الصّلاة والسّلام – واصفا ربه بقوله: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}291، محبّة شعيب عليه الصّلاة والسّلام لربّه تعالى جعلته يظهر وده الذي استمده من الودود المطلق ليعلنه أمّام قومه وهو راغب لهم ود من الله تعالى إذا ما استغفروه وذلك لأن في الاستغفار إجلال له، ولأنّه سميع مجيب فهو بودّه يعفو يغفر لهم، ولو لم يكن عزّ وجلّ ودودا ما كان غفورا وغفّارا.

والودُّ مصدر المودَّة، والمودة مصدرها الودود، وهذا الود يكون في جميع مداخل الخير، وقال ابن الأثير: الودود في أَسماءِ الله تعالى فَعُولٌ بمعنى مَفْعُول من الودّ المحبّة يقال وددت الرجل إِذا أَحبّبته فالله تعالى مَوْدُود أَي مَحْبُوب في قلوب أَوّليائه أَو هو فَعُول بمعنى فاعل أَي يُحبّ عباده الصالحين بمعنى يَرْضى عنهم"292.

291 هود، 89 . 95.

292 لسان العرب، ج 3، ص 453.

فالودود المطلق هو الذي لا يضاهي ودَّه ود، لأن حبّه أعلى درجات الحبّ وأصفاه وأنقاه فلا يخالطه حقّدٌ أو غلٌ أو دسٍّ على من أحبّ، ولا تحذوه مصلحة أو منفعة فيمن يحبّ، إن الله سبحانه وتعالى يحبّ بصفاء ونقاء فهو ودّ خالص لا يتغير، وبهذا يكون ودّه أرقى درجات الحبّ وأقواها وأسمى معانيه، وهذا الحبّ لا يكون دافعه الخوف والرهبة ممن أحبّ، ولا يمكن أن تتجلى هذه المعاني إلا في ودودٍ واحدٍ فقط هو الله عزّ وجلّ، الودود المطلق الذي يتقرب إلى عباده الصالحين وأوّليائه ويتودد إليهم، وقربه يكون دائما وأبدا، قال تعالى في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}293، أي إنّ الله تعالى قريب من عباده يستمع إليهم ويستجيب لدعائهم، فقد أكد على قربه تعالى من أوّلياءه وعباده الصالحين بالرّبط بينه وبين استجابة دعواتهم، وأيضا في قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}294. هذه الآيات الكريمة علامة دالة على كمال وده لعباده الصالحين والمصلحين في الأرض ولذا فالدعاء لا

---

293 البقرة، 186.

294 غافر، 60 . 66.

يُستجاب إلا من العبد القريب من الودود الكريم، وكذلك قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}295، وقوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حبْلِ الْوَرِيد}296.

والله سبحانه وتعالى ودودٌ في حبّه لرسله وأنبيائه وعباده المصلحين الصالحين، يحبّهم محبّة الخالق العظيم لخليفته في أرضه الذي أطاع أمره وصدقه، فيُظهر الله تعالى لهم حبّه بقبول أعمالهم وإجابة دعواتهم وطمأنينة نفوسهم، كما أنه يمنحهم محبّة وود خلقه فيهم، وحسن الاستماع إلى نجواهم كما في قوله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}297، وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}298، وكذلك يمنحه أعلى المراتب شرفا يوم القيامة كما في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}299.

وإذا حاولنا سرد دلائل من القرآن الكريم على مدى الود الذي ربط بين الخالق سبحانه وتعالى وبين رسله وأنبيائه لما حصرناها، بل أننا سنلحظ أروع الصور لاحتضان المولى لهؤلاء الخلفاء المرسلين، وأنبل

295 هود، 61.

296 ق، 16.

297 النساء 14.

298 إبراهيم، 39.

299 البروج، 14.

ملامح التودد والحبّ والعطاء وأوّلها كانت مع نبينا محمّد – عليه الصّلاة والسّلام – في قوله ومع أنَّ في كتابه الكريم: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}300 بطبيعة الحال الصبر لحكم الله طاعة تامة ومودة صادقة تبادلها مودة الصدق بالرعاية والعناية والحفظ، وبالتالي سبح يا محمّد بفضل ربك ولا تخاف. فقد تعرض الرّسول عليه الصّلاة والسّلام للأذى الشديد وكان المولى عزّ وجلّ يطمئن قلبه ويهدئ نفسه بالتأكيد عليه بأن المولى يرعاه ويحفظه من كلّ سوء، وأيضا عند خروج الرّسول عليه الصّلاة والسّلام من مكة ويشده الود إليها نزل كلّام الله تعالى عليه واعدا إياه بالعودة إليها في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}301، المعنى إن الله الذي أنزل عليك دين الهداية وهو القرآن فهو كما أنزل عليك هذا القرآن وأنت لا تشك في إنزاله عليك كذلك تيقّن وتأكد بأنك ستعود بإذنه إلى مكة فاتحا بالقوّة والنصر حليفك وأنت محاط بالرعاية والعناية الرّبانية، وهنا أيضا نستحضر موقف سيدنا موسى – عليه الصّلاة والسّلام – عندما اجتمع السحرة فقد خاف في نفسه من هول هذا الموقف لولا تهدئة قلبه عليه السّلام من الخالق عزّ وجلّ وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى أَمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ أوّل مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا

300 الطور، 48، 49.

301 القصص، 85 . 88.

حبّالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}302، وكذلك ما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السّلام عندما بعث الله تعالى له الملائكة فشك في أمرهم كما في قوله عزّ وجلّ: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}303، إن الله تعالى قد بدل خوف سيدنا إبراهيم سريعا إلى طمأنينة فلا يمكن أن يرضى الخالق عزّ وجلّ لخلفائه الصالحين بالخوف والشك، ولذا فيودهم بوده هيمنة وحفظا.

والود الصادق الذي ينشأ بين الخالق عزّ وجلّ وخليفته في الأرض لابدّ أن يكون ودا متبادلا، فعندما يحبّ الله تعالى عبده الصالح فهو بالتالي سوف يجعل حبّه في قلب عبده الخليفة هو المحرك لسمعه وبصره وجوارحه وروحه، ولعقله ووجدانه وحسه، فيقدم هذا الخليفة حبّه للمولى عزّ وجلّ على سواه من متاع الحياة الدنيا من أموال وأبناء بل سيكون حبّه لخالقه ورسوله الحبّيب – عليه الصّلاة والسّلام - فوق حبّه لنفسه أيضا وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف الذي رواه أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحبّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّار" 304، كذلك في الحديث الشريف: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام مَتَى السَّاعَةُ قَالَ

302 طه، 65، 69.

303 هود، 69، 70.

304 صحيح البخاري، ج 1، ص 26.

لَهُ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ حبّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحبَبْتَ"305.

وللمحبّة صفتان:

. محبّة بدأ بها الله تعالى لعبده زارع حبّه عزّ وجلّ في قلب هذا الخليفة الذي استحقّ بعلم الله تعالى محبّة خالقه، وقد منح الخالق سبحانه وتعالى هذا الحبّ للعبد ابتداءا منه دون طلب أو سؤال، والمؤمن الصادق هو الذي يحافظ على هذا الود ويقويه.

. ومحبّة جعلت هذا الخليفة شاكرا لربه سبحانه وتعالى على نعمة حبّه ووده وجعْلِه من خلفائه الأصفياء.

والود الذي يقربك من الله سبحانه وتعالى لا يأتي إلّا بالتقرب إلى الخالق الذي هو في الأصل قريب من خلقه، ويكون هذا التقرب بعدة أمور منها:

. الإكثار من ذكر الودود، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}306، وقد جاء في الحديث الشريف أن حبّ الله تعالى لابدّ أن يكون ملازما لذكره والمداومة على شكره وحمده، عن أنس بن مالك قال: سمعت النبي عليه الصّلاة والسّلام يقول: "علامة حبّ الله حبّ ذكر الله، وعلامة بغض الله بغض ذكر الله"307.

305 صحيح مسلم، ج 13، ص 91.

306 الأحزاب، 41 . 43.

307 شعب الإيمان للبيهقي، ج 1، ص 480.

أيضا التوكلّ عليه في كلّ أمورنا، لأن من شأنه كسب حبّ الله تعالى به، فالمولى عزّ وجلّ قد أحبّ من عقد النية وتوكلّ عليه كما في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبّ الْمُتَوَكلّينَ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكلّ الْمُؤْمِنُونَ}308، وليس هناك قدوة لنا مثل أنبيائنا الكرام ورسلنا وقد كانوا دائمي التوكلّ على الله سبحانه وتعالى كما جاء في القول الكريم: {إِنِّي تَوَكلّتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}309.

وكذلك في جعل النية في كلّ عملٍ نقوم به هو رضا الله تعالى والإخلاص في القول والفعل، ومهما كان العمل طالما هو في خير لابدّ أن نعقد النية فيه خالصة لله تعالى، وهذا ما جاء به الحديث الشريف: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَدَّانُ فَقِيلَ لَهَا مَا لَكِ وَلِلدَّيْنِ فَقَالَتْ: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – عليه الصّلاة والسّلام – قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ اللَّهِ عزّ وجلّ عَوْنٌ فَأَنَا أَلْتَمِسُ ذَلِكَ الْعَوْنَ"310

وكذلك السير على خطى الرّسول – عليه الصّلاة والسّلام – كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كلّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ

308 آل عمران، 159، 160.

309 هود، 56، 57.

310 مسند أحمد، ج 50، ص 194.

وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ الْكَافِرِينَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}311.

والخليفة الذي استحقّ هذه الأمّانة التي استخلفه الخالق بحقّ هو الذي يظهر وده لله تعالى في أعماله وفي تعامله مع من حوله من قريب أو بعيد، فنجده واصلا للرحم متوددا لهم، طائعا لوالديه حتى ينال رضاهما في غير معصية الله، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحبّ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}312، ونجده أيضا متواضعا مُودا لمن يعملون معه حتى ولو كانوا أقل منه مرتبة، لا يبدأ النّاس بالسوء ولا يمكر بهم ولا يسخر منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوّلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}313، فالخليفة هو من لا يجعل المحرك والدافع لإظهار وده مصلحته الشخصية، بل يملأ قلبه بالتسامح والغفران اللذين من شأنهما رد المذنب وردع العاصي، ولنا في رسول الله – عليه الصّلاة والسّلام – أسوة حسنة، فعندما أصابه قومه في غزوة أحد لم يدعُ عليهم بل دعا لهم بالمغفرة، قَالَ النَّبِيُّ عليه الصّلاة والسّلام حِينَ كَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ،

311 آل عمران، 30 . 34.

312 النساء، 36.

313 الحجرات 10، 11.

وَشَجُّوا وَجْهَهُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". ما أجمل ود الرّسول الكريم على بني قومه وما أجمل ود الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، إنه أروع مثل لود الخليفة المستمد من حبّ الودود المطلق.

فالود هو السبيل لتجميع قلوب النّاس وعواطفهم ووحدتهم، والود الحقّيقي يجعلك صادقا في أعين النّاس أي أن وده يتجلى في كثرة ود المسلمين من حوله فيحبّ للعاصي التوبة، وللمحسن حسن المنزلة فيتقرب بذلك لكلّ من حوله من أجل الحقّ وإحقّاقه ومن أجل الباطل وإزهاقه، فيكون مرشدا لغيره من النّاس سواء المسلم أو الكافر لطريق الحقّ، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}314، آيات كريمة حجة بين النّاس بالحقّ، فمن يملأ قلبه الإيمان لا يظلم أحدا، ومن يكفر ويشرك تملأه البغضاء، ولأن الإسلام مؤسس على المحجّة البيضاء، فإن الخلفاء تملاهم المودة وحَسُنَ بذلك رفيقا، والعداء بين النّاس لا يدوم بل الذي يدوم هو المودة، ولهذا فالودود لا يرى خيرا بين النّاس إلا المودة، وهذا ما يحصل في عصرنا هذا فرغم انتشار الفساد، وظهور الفتن على الدين الإسلامي، إلا أنّنا نجد كثيرا ممّن كانوا على ديانات أخرى قد اعتنقوا الإسلام على أيدي دعاة مسلمين لا يملكون إلا قوّة الحقّ الذي

314 الممتحنة، 6. 9.

لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}315 فالخليفة هو المحبّ لله تعالى والمحبّ لرسله ولا يفرق بين أحد منهم مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}316.

وعليه فالخلفاء هم المحبّون للخير والعاملون من أجله يصلحون ولا يفسدون يتبعون سنة الرّسول الكريم محمّد صلوات الله وسلامه عليه ولا يبدون تبديلا {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}317.

الخليفة الودود هو الذي له في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان نهجه عليه الصّلاة والسّلام اللين والود والصبر وهذا كان سبب التفاف النّاس حول الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام وعدم النفور منه، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا

315 فصلت 41، 42.

316 البقرة 284، 285.

317 الأحزاب 23، 24.

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}318 كما جاء في قوله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}319، فالقسوة لا يقابلها إلا القسوة، ولا ينتج عنها إلا النفور والحقّد والكراهية، بعكس اللين والود اللذان يطهران أشد القلوب قساوة، ويُدمِعان العيون العاصية محبّة بعد استغفار وتوبة، ويذيبان جليد الحقّد من القلوب، ولهذا فإننا نجد أن النهج الذي سلكه رسولنا الكريم – عليه الصّلاة والسّلام – كان اللين والود كيف لا وقد علّمه ربه ورباه، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}320، فكان عليه الصّلاة والسّلام محبّا ودودا لينا لا يرد الأذى بمثله، ولا يذكر مساوئ أحدهم أمّام الخلق، بل أنّه كان يبحث عن مواطن الحبّ في النفوس.

وعلى هذا النهج لابدّ أن يكون خليفة الله، محبّا لله تعالى أوّلا وأخيرا ومحبّا لنفسه حبّا يجعلها تأبى الفساد والمعاصي، حبّا يجعلها طاهرة من الكره والحقّد والحسد، فالذي يحبّ ذاته على أنها نعمة من الخالق عزّ وجلّ وقاها بهذا الحبّ من المهالك والمفاسد، فينأى عن الآثام والرذائل، ولا يرضى لها سوى معالي الأمور وأفضل الأحوال، فهي نعمة من الله وعلى الخليفة أن يحافظ على هذه النعمة الغالية التي أودعها الله تعالى فيه.

318 الأحزاب 21، 22.

319 آل عمران، 159.

320 النجم 1. 14.

وإذا نظرنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق والود القائم بينهما لوصلنا إلى عظمة هذا الخالق ومع أنَّ، فبالرغم من ضآلتنا بالنسبة لخالقنا وهو خالق هذا الكون الشاسع، إلا أنه بقوّته وعظمته يتودد إلى هذا المخلوق الصغير الذي كرّمه تعالى وخصه على باقي المخلوقات وحملّه أمّانة لم يستطع غيره تحملها، وإذا نظرنا وجدنا أن الملائكة وهي مخلوقات الله تعالى لا تتوقف عن عبادة خالقها وشكره وتنفيذ أوامره، لكنّ الله سبحانه وتعالى أحبّ الإنسان وأعطاه ومنحه وجعله خليفته في الأرض وتودد إليه رغم قدرته تعالى على الاستغناء عن البشر إذا أراد، لكنه سبحانه وتعالى كريمٌ وعليمٌ بخلقه جميعا وكان هذا رد الله تعالى على الملائكة حين أراد الله أن يجعل الإنسان خليفة له وذلك في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}321.

والخالق عزّ وجلّ يتقرب إلى عباده لا خوفا ولا طمعا ولا ضعفا، بل يتقرب إليهم ودا صافيا، مخافة عليهم لا مخافة منهم، وقوّة إليهم وتقديرا لخلقهم في أحسن التقويم، واعتبارا لاستخلافهم في الأرض وتوريثهم في الجنّة، فالعباد منهم الموحَّد المطيع ومنهم المشرك العاصي، ومنهم المحسن ومنهم المذنب، ومنهم العالم ومنهم الجاهل، ومنهم المصلح المفلح ومنهم المفسد وسافك الدماء، ومع ذلك فهو يتودد إلى الصالحين منهم بإجابة دعواتهم وقبول أعمالهم، أمّا عباده المذنبين فلهم أيضا نصيب من ود الخالق عزّ وجلّ تتجلى في رحمته لهم وعفوه عنهم وقبول توبتهم إذا ما استغفروا وتابوا، مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ

321 البقرة، 30.

أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}322، يتودد للعلماء بهذا الكون وما فيه من أسرار يجعلهم يكتشفونها ويصلون إلى درجات عالية من الإيمان به وبعلمه وقدرته قال تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاس وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}323.

إذن الودود يتودد إلى عباده بنوعين من الود هما:

ود عام وهو: ود لكلّ الخلق بصفة عامة سواء كانوا مسلمين أو كفارا أو مؤمنين يتودد إليهم باللين والعطف، فهو الودود لكافة خلقه بواسع كرمه وسابغ نعمته عليهم عزّ وجلّ، فكرمه وحبّه يتسع لكلّ تائب عائد عن ذنبه، وكلّ تارك للفساد والكفر، لا يعجّل العقاب بل يؤجله متيحا للعاصي فرصا للرجوع للحقّ.

322 الزمر، 52 . 56..

323 فاطر، 25 . 30.

ود خاص: خص به الأنبياء والرّسُل، وخص به أيضا عباده الصالحين والشهداء والمخلصين القائمين على عبادته والباحثين عن رضاه وعن حبّه، فكيف لا يخصهم الكريم الودود الحنّان بأكبر ود فيقربهم منه ويجعل مراتبهم أشرف وأسمى المراتب؟ وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحمن وُدًّا}324، أي سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها النّاس مودّات القلوب، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوّليائه بكرامة خاصة325.

والله تعالى قويٌ في وده لخليفته في الأرض من أنبيائه وأوّليائه الصالحين الذين يطيعونه ويخلصون له في العبادة ويحكمون في الأرض بما أمر الله تعالى به كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ 326، وهو أيضا ودودٌ في قوّته لأنه لم يجعل قوّته على المستضعفين والمساكين بل سخّر قوّته لشد عزم الإنسان ونصرته على الشر، كما وعد الله تعالى عباده المؤمنين: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}327

324 مريم، 96.

325 الكشاف، ج 4، ص 124.

326 المائدة، 48.

327 الشورى، 37 . 39.

وهو ودود في كرمه، فلا يكرم لغرض أو طمع، وكريم في وده، إذ أنّ حبّه ومودته تفيضان على البشر مهما قدموا للخالق عزّ وجلّ، وفي الحديث الشريف التالي توضيح لهذا المعنى: عن ابن عباس أن النبي عليه الصّلاة والسّلام قال: "من قاتل دون نفسه حتى يقتل فهو شهيد، ومن قاتل دون أهله حتى يقتل فهو شهيد، ومن قتل في حبّ الله فهو شهيد"328.

وقد ودنا أيضا الخالق بالنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، وأنعم على جميع خلقه بها، لكنّ المؤمن المطيع يعرف أن هذه النعم جميعها تستوجب أن نشكر الخالق عزّ وجلّ عليها وهي نعم لا تعد ولا تحصى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾329، وأن يتدبر معنى الود الكامن في معنى هذه النعم، أمّا العاصي فلا يتدبر معناها ولا يفقه كيفية شكر الخالق عليها، بل في كثير من الأحيان يجحد بها، وأوّلها نعمة القرآن الكريم الذي جعله الله سبحانه وتعالى هداية للبشر ورحمة، كما في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}330، بالرغم من تحذير المولى عزّ وجلّ لهم، كما توضحه لنا الآية الكريمة: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا

---

328 مصنف عبد الرازق، ج 10، ص 116.

329 إبراهيم، 34.

330 البقرة، 97 . 101.

تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}331، لكنّهم ابتعدوا عنه فابتعد عنهم.

وهناك صور كثيرة تتجلى فيها محبّة الودود المطلق للبشر منها رحمته بعباده، فالرحمة تنتج عن الود، إن الله عزّ وجلّ يسمع شكوانا ويستجيب لدعائنا، ويرحم مرضانا، ويرفع البلاء عنا كلّما دعوناه مخلصين، ووهب لنا مسببات الجنّة لمن أراد، فرحمنا بذلك من عذاب الحريق، وقبل كلّ هذا أهدانا نعمة الإسلام، وجعل سيدنا محمّد – عليه الصّلاة والسّلام – شفيعا لنا، وهذا تودد من الله سبحانه وتعالى إلى عباده أجمعين بالرحمة، وذلك بمكافأة المطيع بالثواب وقبول توبة المذنب الخاطئ الذي لجأ إليه، وبالرغم من أننا نعرف أنه ومع أنَّ قوي عزيز لا يحتاج للعباد في شيء ولكنه يرحمهم عند اللجوء إليه لحبّه فيهم وتقربه منهم رحمة بهم، مع أنّه يستطيع أن يعاقب أشد العقاب إذا أراد كما فعل مع الأقوام السابقة التي طغت وتجبرت ولم تصغِ إلى كلّام الله وظلمت، كما في قوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُون﴾332، فلولا تودده ورحمته لعجل بالعقاب لكلّ عاصٍ وخاطئٍ فلا يكون لهم مجال للتوبة والرحمة.

وهو أيضا ودودٌ في لطفه فهو يُنزل علينا الصبر والسكينة عند حلول المصائب والكوارث، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

331 النساء، 115. 116.

332 الذاريات، 40. 44.

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾333 فينجي من يشاء منهم من الكوارث، فبحبّه لعباده تلطف بهم مانحا لهم نعمة الصبر والرضا بالقضاء. وهذا يكون من باب التودد إلى العباد.

هو أيضا سبحانه وتعالى لطيفٌ في وده إذ انه لا يمنع رزقه عن العباد بذنوبهم في الدنيا بل أنه يتودد إليهم عامةً بالعطاء والرزق حسب علمه بعباده وتودد الله دائما رحمة ومغفرة للعباد، فهو المتودد لهم بالشفاء أثناء المرض وبالوفرة أثناء الحاجة وبإحقّاق الحقّ أثناء ظهور المظالم، وبالعلم بعد الجهل وبالحكمة والهداية بعد الضلال وباليقين بعد الشك، والخليفة يتودد إلي الودود بالاستغفار والطاعة والعبادة والتوبة، ولهذا قال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}334، فقد تكون هذه النعم سببا في خروج العاصي من عصيانه بتفكره في هذه النعم واعترافه بأنها من الله الواحد الرازق الودود فبذلك يكون قد حل به لطف الله تعالى فينجو من عذاب الحريق.

لذلك على الودود بالإضافة أن يكون شاكرا طائعا محبّا لله تعالى، ولعباده المؤمنين يتودد إليهم لما في قلبه من حبّ لله تعالى، يملأ قلبه التسامح والعفو وعلى علاقة طيبة بذي القربى وبجيرانه الأقارب والأباعد

333 البقرة، 156.

334 الشورى، 19 . 23.

لأنّ القلب إذا عمُر بحبّ الله فاض بحبّ العباد، فيكون بذلك متصفا بصفات الله عزّ وجلّ من خلال عمله وطاعته للمولى، فأضفي عليه الخالق من صفاته العُلى ما يجعله أهلا لخلافته سبحانه وتعالى في الأرض، وهذه الخلافة لا يستحقّها كلّ إنسان لمجرد كونه إنسان، حتى وإن كان مسلما، فليس كلّ مسلم هو خليفة لله سبحانه وتعالى وإن كان هذا ما يجب، ولكن يستحقّها من أطاع مُستخلفه فالتزم بالأوامر وابتعد عن النواهي وأكثر من الطاعات وتخلّق بالصفات الحسان، فبهذا يكون أهلا لخلافة الله تعالى في الأرض ليحكم بحكمه ويطبق شرعه ويعمر الأرض كما أراد الخالق عزّ وجلّ في قوله تعالى مخاطبا خليفته: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ335﴾، وهذا الخطاب من الخالق عزّ وجلّ المستخلِّف إلى نبي الله داوود عليه السّلام وهو المستخلَّف في الأرض خلافة جبرية، حيث اصطفاه الله تعالى واختاره ليكون نبيا له وخليفة، فما بالك بالخليفة الاختياري أفلا يكون هذا الخطاب شاملا لهم؟

بلى يكون هذا الخطاب شاملا لهم، بل هو آكد في حقّهم أكثر ممّا هو في حقّ الخليفة بالإجبار، فالأنبياء والرّسُل يكون الله قد اصطفاهم ونقاهم من المفاسد والأخطاء كما في قوله تعالى في كتابه العزيز واصفا أصفي خلفائه على الإطلاق سيدنا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَ}336.

335 ص، 26.

336 النجم، 3، 4.

فلابدّ أن يكون تودد الخليفة لله لا ينازعه أي تودد آخر فتكون محبّة المولى عزّ وجلّ هي الغالبة على فؤاده، لأن محبّة الله تعالى هي روح الأعمال، فلا عمل للعبد يكون لغير وجه الله تعالى ورضاه هو عمل مقبول، فمن عقد النية خالصة لله عزّ وجلّ ينال رضاه ومودته وهذا ما أخبرنا به المولى عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}337.

ويكون التودد متبادلا بين الخالق ومع أنَّ وخليفته، فالله تعالى يضع محبّته في قلب خليفته الذي رضي عنه وهذه نعمة من الله عليه وهو لا يعطيها لمن لا يسعى خلفها، فالمؤمن الذي أحبّه الله يجعل بالمقابل محبّته في قلب هذا المؤمن، وبهذا يتبادل الخالق عزّ وجلّ المودة والحبّ بينه وبين خلفائه وعباده المخلصين، وهذا الود هو الذي هون على الأنبياء والمرسلين الأهوال والعذاب في تبليغ النّاس دعوة الله لهم بالتوحيد، وهذا الحبّ هو الذي شد أزرهم عند اشتداد الأزمات والمصائب وليس أصدق على ذلك من دعاء الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ربه عند لجوئه للطائف وتعرضه للعذاب والضرب والكفر "اللهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلّني! إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك"338.

---

337 الشورى، 20.

338 جامع الأحاديث، ج 35، ص 409.

وبما أنّ الود أشد عمقا وأعم من الحبّ، لأنّ الحبّ يبقى مستترا داخل النفس، أمّا الود فهو التعامل بإظهار هذا الحبّ أي لابدّ أن يظهر ويتوضح الود في التصرفات ولا يبقى كامنا داخل زوايا الذات لهذا فقد ظهر ود الله لنا جليا وهناك حديث للرسول – عليه الصّلاة والسّلام – يوضح هذا الأمر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: "إِذَا أَحبّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحبّ فُلَانًا فَأَحبّهُ فَيُحبّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحبّ فُلَانًا فَأَحبّوهُ فَيُحبّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ"339.

وودّ الله سبحانه وتعالى للعبد يبدأ بمجرد بث الروح فيه، فيهب له الحياة ويخرج إلى الدنيا بقدرة القادر عزّ وجلّ، وينبض قلبه مستبشرا بالحياة، ولا يتركه الله وحيدا بل يجد من يعتني به ويلبي له احتياجاته من مأكلّ ومشرب وملبس وحنان ورعاية، ويتجلى هذا الود بتوضيح السبل للعيش الكريم والصحيح في مراحل النمو وهدايته لطاعة الواحد الأحد الذي لا شريك له في الأمر والملك، ولهذا من يتعلم طاعة الواحد الأحد لا يمكن أن يطيع من لا يطيعه بالمطلق، فلا أجمل من أن يعيش الإنسان حياته وهو متوددا إليه بشكره وحمده على نعمه التي أنعم بها عليه من عقل وسمع وبصر وحس وذوق وأكثر من ذلك ممّا لا يحصى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}340، وأن يكون موقنا أنّ الله أقرب إليه من نفسه التي قد تأمره بالسوء أحيانا ومن أمه وأبيه اللذان ربياه وهو اللطيف به الرؤوف الرّحيم والودود عزّ وجلّ يدعو عباده إلى التوجه إليه ومناجاته، والتودد إليه دائما، فلا أحبّ إلى الله سبحانه وتعالى من شكوى عبده المتضرع إليه، فالمؤمن

339 صحيح البخاري، ج 18، ص 468.

340 إبراهيم 34.

المخلص لله تعالى هو الذي يلجأ إليه دون سواه سواء أكان مسرورا فيشكر خالقه ويحمده، أو إذا مسه الضر فلا يتجه العبد المؤمن الصادق إلا لهذا الخالق الودود الكريم السميع للدعاء القريب للداعي، ولنا في رسلنا وأنبيائنا خير مثال وقدوة، فمع معاناتهم الشديدة لكنهم توكّلوا على الله تعالى وبثوا شكواهم إليه وهذا ما حدث مع سيدنا أيوب عليه الصّلاة والسّلام عندما اشتد عليه المرض والتعب، فقد حدثنا القرآن الكريم عن مناجاته في قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}341 وكذلك أيضا قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}342، وأيضا قول الله في كتابه العزيز: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾343، فلا أقرب من الخالق سبحانه وتعالى من خليفته المؤمن الذي يناجيه ويدعوه، ولا أحبّ من صوت المؤمن إلى الله عزّ وجلّ وهو يستغيث به ويحمده ويتوجه إليه.

فالخليفة على وثوق بأنه على ودْ من ودود مطلق، ولذا فهو على حالة من مبادلة ود بود، وهو على يقين بأن الله تعالى يبادله هذا الود بأكثر، وأن ينعكس هذا الود في حياته كلّها فيكون ودودا مع جنسه ويأمل بكلّ ودّ أن تكون الهداية قاعدة للتفاهم والتفهم بين بني آدم، حتى يعم الود العلاقات بين الأب وأبنائه والزوج وزوجه، والمعلم

341 الأنبياء، 83.

342 الأنبياء، 87، 88.

343 الأنبياء، 89، 90.

وطلابه، والجار وجيرانه، والراعي ورعيته، والعادل والمعدول بينهم، أهله وعائلته المقربون.

الودود تعالى قريب من عبده مادام عبده وخليفته يتودد إليه بالشكر والذكر والحمد على كلّ حال كما جاء في الحديث الشريف: عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام يَقُولُ: "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النّار عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"344، فهل هناك من جزاء للتقرب إلى الله تعالى أروع من هذا الجزاء الكريم الودود الذي خص به خليفته على الأرض؟ إنه الودود الكريم في وده وحبّه وحتى في لومه للذين لم تخشع قلوبهم بعد كما جاء في قوله تعالى في كتابه العزيز: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحقّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}345.

المتمعن في اسم الودود لابدّ أن يخرج بعدة نتائج هامة:

أوّلها: مدى اتساع حبّ الله تعالى للخلق، حبّ لا يتبعه مصلحة ولا نوايا أخرى فهو الغني عن العباد إذا عصوا أو امتنعوا عن إطاعة أوامر الخالق كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}346، وكذلك يؤكد الله تعالى غناه عن العالم إذا أراد ذلك في

344 سنن الترمذي، ج 6، ص 190.

345 الحديد، 16.

346 محمّد، 38.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}347 أي أن الله تعالى يقول يا أيها النّاس أنتم أوّلو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتُنْجِح لديه حوائجكم {وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ} عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم {الْحَمِيدُ} يعني: المحمود على نعمه؛ فإنّ كلّ نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكلّ حال348، وبالرغم من ذلك فقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون الشاسع بإتقان ودقة وجعل هذا التآلف والانسجام في مكونات هذا الوجود على تباينها وتعددها ترتبط بعلاقة تودد مع بعضها البعض لخدمة هذا الإنسان، وهذا من مظاهر تودد الله تعالى الجلية للإنسان.

وثانيها: يوضح لنا هذا الاسم مدى جهل الكفار وطغيانهم، فلو أنهم فقط نظروا إلى الكون الشاسع الممتد حولهم لتوصلوا إلى ربط الصلة بين مكونات هذا العالم وبين تودد الودود إليهم، لأن هذا الكون ما هو إلّا تودد من الودود للإنسان فلينظروا إلى الشمس ويتدبروا أهمية خلقها لنا ويتساءلوا إذا لم يكن لها وقت للمغيب ما الذي سيحدث؟ أليس حبّا بخلقه جعل لها مشرقا معلوما ومغيبا معلوماً {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}349 وكذلك القمر كما في قوله عزّ وجلّ: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحقّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي

---

347 فاطر، 15 . 17.

348 الطبري، ج 20، ص 454.

349 الفرقان، 47.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}350، وهذه الأنهار الجارية والينابيع التي تصب وكذلك الأمطار وغيرها من دلائل هذا الود العظيم للخالق العظيم، ألا يعتَبر توددا للخلق كلّ مسخرات هذا الكون.

أيضا هذه الطيور المتباينة والأسماك والأنعام على اختلاف أشكالها وأنواعها هي لسد حاجات الإنسان سواء الحاجة المادية من مأكلّ ومشرب أو الحاجة الروحية لما فيها من متعة للعين وابتهاج للنفس كما وضح الله لنا في كتابه العزيز: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكلّوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}351.

وثالثها: ردع المسلم عن الزلات والذنوب بأن يتذكر ود الخالق سبحانه وتعالى له، فيكفي أن يتذكر المسلم عند نيته بارتكاب ذنب ما أن الله فضله على باقي مخلوقاته واستخلفه في أرضه، وأنّه ستر عليه وأكرمه بكثير من النعم والعطايا، فهل يكون هذا هو رد الإنسان عليه؟ ألا يكفي لهذا العبد أن يعلم أنّ الله لا يسجل ذنب على أي إنسان إلا بعد ارتكابه مع علمه الواسع بالغيب؟

ويكفي أن يعرف أنّ الله كريم في وده ومغفرته ولا يتجاوز الحد العادل في العقاب بل أنّه يزيد من الحسنة ويضاعفها لكي تغلب على السيئة في ميزان أعمالنا وهذا ما وضحه لنا خالقنا الودود في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

350 يونس، 5، 6.

351 النحل، 11.

الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}352

رابعها: أنّ اسم الودود يفتح للمذنب بابا للأمل والتوبة والتسامح، فلا ينغمس مع يأسه في منحدر الفساد والرذيلة، فالود دائما يفتح الأبواب المغلقة، بل أنّ الودود بوده وكرمه في تقربه لخلقه يتقرب إلى عبده المذنب بالغفران والسماح إذا عاد وتاب عما ارتكبه، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}353، وكذلك قوله سبحانه تعالى في التخفيف عن المذنبين ومنحهم أمل المغفرة منه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}354.

بل أنّنا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى أعلن عن حبّه للتائبين عن ذنوبهم، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ

---

352 الأنعام 159 . 165.

353 آل عمران، 135، 136.

354 الزمر، 53.

الْمُتَطَهِّرِينَ}355. إذن ود الله الكريم الحنّان يمثل واحة من الظلال يستريح فيها المذنب من عناء خوفه.

وحتى ود الله سبحانه وتعالى ودٌ كريم لأن الخالق لم يحدد أي زمن للتوبة، ولم يجعل لها سن معين لا تقبل من بعده، بل أنّه ترك باب توبته مفتوحا طوال العمر وفي أي مكان وهذا ما جاء في الحديث الشريف عن أبي قلابة، قال: "إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره، فقال: وعزتك لا أخرج من صدر عبدك حتى تخرج نفسه، فقال: وعزّتي لا أحجب توبتي من عبدي حتى تخرج نفسه – أو قال: روحه"356، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}357.

خامسها: إن العبد إذا أدرك هذا الاسم بكلّ معانيه السامية سوف يتجه إلى الخالق عزّ وجلّ بكلّ جوارحه مؤديا للطاعات ولأوامره حبّا به لا خوفا منه، فبذلك يكون قد دخل من أشمل وأوسع الأبواب لنيل رضى الله تعالى فيتجه إليه الخليفة محبّا لا خائفا، طوعا لا كرها، راكضا لا متمهلا، بذلك سوف يستشعر مدى حبّ الله تعالى له وحرصه على دخول جنته، وسيعلم مدى رقي المعاملة التي يتعامل بها هذا الخالق العظيم الودود مع عبده الضعيف المحتاج لرضاه عزّ وجلّ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}358. وعندها سوف يسارع هذا الإنسان في طاعته ورضاه كما سارع سيدنا موسى – عليه

355 البقرة، 222.
356 جامع معمر بن راشد، ج 3، ص 347.
357 النساء، 48.
358 الحديد، 28.

الصّلاة والسّلام – لطلب هذا الرضى في قوله تعالى في كتابه العزيز: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}359.

سادسها: أنّ هذا الاسم يخلق المودة بين النّاس، سواء أكان بالزواج والمصاهرة والنسب أو بتقارب النّاس بشتى الوسائل، كما في قوله عزّ وجلّ: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}360، فالودود سبحانه وتعالى لم يجعل النّاس متنافرين بل قاربهم من بعض لنشوء المودة والحبّ بين النّاس جميعا، لذلك جعل الله تعالى الود على لسان رسوله – عليه الصّلاة والسّلام – من معالي الأمور، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى النّاس»361.

سابعها: تأتي أهمية هذا الاسم أيضا من كونه بابا واسعا للشعور بالطمأنينة والأمّان في صدر الخليفة، فعند نشوء مثل هذا الود المتبادل بين الخالق سبحانه وتعالى وبين عبده المخلص، ويصبح هذا الود مبعثا للسكينة عند حلول الأزمات، كيف لا وهذا الود يجعل العبد المحبّ لله تعالى يستشعر قرب خالقه الودود في نفسه؟ قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}362، فيبتعد بذلك شبح الخوف من الآخرين في نفوسنا، ونطرد كلّ أشكال الهلع والجبن، وقد جسد لنا رسولنا الكريم – عليه الصّلاة والسّلام – هذا الموقف عندما كان مع صديقه ورفيقه

359 طه، 84.

360 الروم، 21.

361 مسند الشهاب القضاعي، ج 1، ص 319.

362 الرعد، 28.

في هجرته أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في غار ثور، كما جاء في قول الله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}363، فشدة قرب الرّسول عليه الصّلاة والسّلام من ربّه وحبّه له هما اللذان منحاه هذه الثقة بمن أحبّ فاطمأن قلبه وطمأن رفيقه "طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصّلاة والسّلام: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما"364.

فالتودد إلى الله عزّ وجلّ إذن يجلب لنا الإحساس بالأمّان والسكينة، وهما شعوران يجعلانا نتدبر هذا المعنى لهذا الاسم الرفيع، وبالتالي فإن هذا الخليفة عندما يستشعر ذلك كلّه ويجد ما يحتاجه من الأمّان والراحة في ود الله تعالى سيكون من المستحيل عليه أن يفرط في هذا الحبّ الرفيع، فيتكون لدى هذا المؤمن المطيع الخشية من عصيان المولى وإنذار بالخوف من الابتعاد عن هذه العلاقة الودية بينه وبين خالقه، كما في قوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾365، بذلك يتوكلّ العبد على خالقه الودود ولا يخشى غيره فيتخلص من خوفه من النّاس، ولا يخشى إلا الواحد الأحد، ويمتلئ قلبه بالثقة والقوّة المستمدة من حبّ الله تعالى

---

363 التوبة، 40.

364 الكشاف، ج 2، ص 422.

365 الأنعام، 15.

والتوكلّ عليه كما في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}366.

فسبحان ربي الودود الظاهر بالمحبّة على عباده جميعا، يصلهم ويمدهم بالإحسان والعدل والغفران حتى يصلوا إلى جنات النعيم، فقد سبقت رحمته غضبه، ورافق علمه حلمه.

ثامنها: الرضا بقضاء الله وقدره هو من النتائج الأساسية التي يخرج بها الإنسان من التدبر في معنى هذا الاسم، فالودود بالإضافة إذا كان صادقا في وده لله سبحانه فإنه يرضى بما قدره الله تعالى عليه، فهو يعلم تمام العلم أن الله عزّ وجلّ ودود يود خلقه ولا يظلم أحدا من خلقه فسيكون على ثقة كاملة بأن ما يصيبه من عند الله تعالى، عندها سيصل إلى اقتناع تام بأن ما يحل به من هم وحزن سواء كان بذهاب المال أو فقد الأحبّاب أو غيرها من الهموم والأحزان هو خير من الخالق عزّ وجلّ.

والرضا بقضاء الله تعالى وقدره من علامّات حبّ الله تعالى وشكره، كما جاء في الحديث الشريف: عن الرّبيع بن أنس، عن بعض، أصحابه قال: "علامة حبّ الله كثرة ذكره، وعلامة الدين الإخلاص لله، وعلامة العلم الخشية لله، وعلامة الشكر الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره"367

تاسعها: إنّ الودّ سبب لإنجاح المهمات التي أنيطت بنا سواء كانت من الخالق عزّ وجلّ كالعبادات وعمارة الأرض أو كانت من المهمات

366 الرعد، 30.

367 تعظيم قدر الصلاة للمروزي، ج 2، ص 298.

الدنيوية التي تحملناها بحكم مسئولياتنا في هذه الحياة، فبالود نستطيع أن نقوم بعباداتنا على أكمل وجه، وأن نعمر الأرض بالحبّ والود.

عاشرها: المتمعن في اسم الودود يتضح له جليا دعوة الله تعالى لنا بالتآلف والوحدة، فالود الذي يربط الخالق بعبده يقوى من نفس هذا العبد وعندما يقوى يستطيع المواجهة والتحدي، وهذا نفسه ينطبق على الأمة الإسلامية، فدعوة الخالق عزّ وجلّ لنا بالتودد لبعض والمحبّة من شأنها أن توحد هذه الأمة، فالنّاس بالود يتحدون وبالعداوة يتفتّقون، وهذا المعنى نجده في حديث الرّسول – عليه الصّلاة والسّلام – قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"368، فإذا تخيلنا الأمة الإسلامية في توادها وحبّها لبعض مثل الجسد الواحد الذي يرتبط مع بعضه البعض، لوصلنا إلى درجة من الوحدة ما تكفي لنهوضنا، لأن الجسد الواحد يكمل كلّ عضو فيه الآخر لكي يستمر هذا الجسد في الحياة وكأنها علاقة ود تقوم بينهم، وهذا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون لا ينقطع الود والحبّ بينهم بل يزيد بارتباطهم بالودود الكريم.

على الإنسان أن ينمي هذا الود السامي بمعناه بينه وبين خالقه، ولا يكون ذلك إلا بحرص هذا العبد على نيل رضا مولاه عزّ وجلّ وذلك بأمور عديدة منها: الإكثار من ذكر الخالق سبحانه وتعالى، وأن يكون قلبه عامرا يفيض بحبّ الله تعالى، وإتباع سيرة رسولنا الكريم – عليه الصّلاة والسّلام – كما جاء في كتابه الحكيم: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم}369، فحبّنا

368 صحيح مسلم، ج 2، ص 468.
369 آل عمران، 31.

لله تعالى لا يكتمل إذا كان دون حبّ رسوله الكريم عليه الصّلاة والسّلام، وكذلك بكثرة النوافل والسنن المحبّبة، وأن نحبّ المسلمين خاصة والخلق عامة، فلا نؤذي أحدا ولا نبدأ بالسوء، وأن نكون على إيمان بأن الله تعالى يودنا في كلّ أمر فدفع الضرر عنا هو ود منه إلينا، وكلّ طعام وشراب هو ود منه لنا، وكذلك كلّ نوم هادئ مريح هو تقرب من الخالق لنا، ومن أروع صور هذا الود السامي أن نتذكر أن كلّ ليلة ينزل من السماء دعوة حبّ من الله عزّ وجلّ لكلّ مذنب للتوبة والغفران، واستجابة لكلّ طالب حاجة فيلبيها له، لهذا فإن حبّنا للخالق عزّ وجلّ هو نقطة في بحر حبّ الله سبحانه وتعالى لنا، هذا الود البحر الزاخر بالخيرات والعطايا والسخاء.

ومن الأهمية بيان الود الموصوف به المولى عزّ وجلّ، لأن هناك أنواعا من المحبّة والود ينتج عنه الضعف والتذلل، وهذا طبعا يستحيل في حقّ الله سبحانه وتعالى، لأنّ الحبّ الموصوف به عزّ وجلّ غير قائم على الضعف ولا الخنوع، إنّما هو حبّ قائم على الإحسان لنا والرحمة بنا والكرم معنا والقوّة والعزة، وهذا هو الحبّ الذي يختص به عباده المخلصون المستحقّون لهذا الود، وهذا ما نراه جليا في قوله تعالى عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}370، فالله تعالى محبّته للمؤمنين تعني حفظه وستره وعزته ونصره لهم، وقوله تعالى في كتابه الكريم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

370 المائدة، 54.

وَالْأَرْضَ بِالحقّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}371.

من المستغرب أن يكون بعض البشر لا يستشعرون هذا الود من الودود المطلق، ورغم كلّ هذه الدلائل وغيرها يصرون على عدم الشكر ورد الود، وأي إحسان قد يقدمه شخص للإنسان يضاهي إحسان الخالق عزّ وجلّ الذي خلق الإنسان من لا شيء كما في قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}372، وبعد أن خلقه أهدى له أمه وأبيه وأهداه نعمة العقل وأحسن إليه بالعديد من النعم الأخرى طيلة حياته فهل يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان كما في قوله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}373.

فلا أقل من أن يتودد الإنسان إلى خالقه عن طريق إقامة الصّلاة والصوم والحج كما أحبّنا الودود أن نكون في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أوّلئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}374. وغض البصر كما أمرنا الله في قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}375، وكذلك الإنفاق لقوله ومع أنَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}376، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قال

---

371 إبراهيم، 19، 20.

372 الإنسان، 1.

373 الأنعام، 162.

374 لقمان، 4، 5.

375 النور، 30.

376 البقرة، 267.

تعالى، {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}377.

فالخالق الودود قد تودّد إلينا بالكون كلّه، فلنتودد إليه نحن بالإيمان والطاعات والإحسان، ليمتلئ فؤادنا وروحنا بحبّ الله، وحبّ من أحبّهم، وحبّ ما يحبّه من الأعمال، فلا يُعتبر ودودا كلّ من أحبّ المعاصي وتودد إليه، أو تودّد إلى من تجمعه به تلك المعاصي، فذلك لا يمكن أن يكون ودا، لأنّ الود يكون لكلّ ما هو خير ونفع، كمثل من يُخيل لهم أنهم يتحابون في مجالس شرب الخمر والفساد، أو من يبسطون أيديهم بالحبّ لأعداء الله تعالى، كما في قوله عزّ وجلّ: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}378 أي أنه لا تجد يا محمّد قومًا يصدّقون الله، ويقرّون باليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله وشاقّهما وخالف أمر الله ونهيه {وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ)379، فكلّ ودّ لغير مرضاة الله هو خداع وخيال، لأنّ الخالق عزّ وجلّ وضح لنا الفرق بين الود الحقّيقي المقبول من العبد والذي يقربه من خالقه وبين هذا الحبّ الموهوم بين العبد ومن ابتعد عنهم الله ونبذهم من رحمته، فالودّ الموصوف به خلفاء الله تعالى في الأرض له علامّات منها:

---

377 آل عمران، 104.

378 المجادلة، 22.

379 تفسير الطبري، ج 23، ص 257.

أوّلا: أن يكون ودّا صادقا خاليا من النفاق وليس كمثل المنافقين في مولاتهم الكفار كما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}380، أو من يتودد لشخص ما بهدف تحقّيق مصلحته، إنما هو ود عامر بكلّ معاني النقاء والصفاء.

ثانيا: أن يكون ودا دائما جاريا مع دماء هذا الخليفة، لا ينقطع ولا يتوزع ولا يتجزأ، ويكون ودا ثابتا لا ينقص مع حلول المحن والمصائب وأن يكون هذا الود بمثابة درع يقيهم خوف الأعداء كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}381.

وثالثا: أن يكون هذا الود الصافي لاستحقّاق الودود ود أكثر.

رابعا: أن يصل الخليفة بهذا الود إلى مرحلة إيثار حبّ الله ومودته على كلّ ما عاداه، فيضحي بنفسه وماله وولده من أجل هذا الودود العظيم كما جاء في محكم آياته عزّ وجلّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}382.

خامسا: الشعور الدائم بعدم وفاء الخالق عزّ وجلّ حقّه من الود والحمد والشكر، فالمؤمن الحقّ هو الذي يصاحبّه شعور بأنه مقصر في حقّ الله، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ثُمَّ تُصِيبُ

380 المجادلة، 14.

381 آل عمران، 173.

382 الحجرات، 15.

شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار" 383، ويتكون هذا الشعور لدى المؤمن لعلمه ويقينه بأنّ ودّ خالقه له لا يمكن أن يُرد بمثله لعدم المقدرة من العبد على ذلك.

والود من المولى عزّ وجلّ للخلق ليس ودا واحدا بل هو ود متفاوت، يختلف باختلاف سعي الخليفة لوده، ومرضاته، فالله تعالى بعلمه المطلق والمسبق بخلقه يفضل بعضا على بعض، دون أن يكون في هذا الاختلاف والتباين ظلما للعباد، فسبحانه العادل الكريم منزه عن الظلم، وهذا ما جاءت به الآيات الحكيمة: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}384، وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}385، أي أنه "قال داود وسليمان: الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا به من العلم، دون سائر خلقه من بني آدم في زماننا هذا على كثير من عباده المؤمنين"386.

فالتميز بين عباد الله هي نعمة من الخالق سبحانه وتعالى يهبها لمن يستحقّها، بالود يفضل بعضنا ويخصه، وبالود يشكر خليفته هذا الفضل.

تبارك الخالق الودود ذو الجلال والإكرام، الذي وهب لنا نعمة التودد إليه وإلى خلقه، فكيف لنا أن نتصور أن الكون لا يرتبط بهذا الشعور الراقي، الحمد لله الودود الكريم الرّحيم الذي لولا فضله علينا ما هدانا، وما يسر لنا سبل المحبّة، وما بث فينا حبّا إن وعينا جوهره نجونا

383 سنن ابن ماجه، ج 12، ص 237.

384 الإسراء، 21.

385 النمل، 15.

386 الطبري، ج 19، ص 437.

من النّار، وما منحنا أملا بالمغفرة والتوبة والسماح كما كان هذا أمل الداعين المؤمنين في الآية الكريمة: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}387، وما فزنا بجنات النعيم كما وعد الله عباده المؤمنين في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}388.

قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالحق وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}389. ومن هنا؛ فإنّ لوط يتكلّم بلغة الوكيل والكفيل، (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) وكأنّه يقول: أنا الوكيل ولا غيري، أنا ولي الأمر ولا وكيل غيري، ولهذا فهو المتوكلّ على الله في كلّ أمر وهو متحدّي الصّعاب.

ولأنّه المتوكلّ على الله فهو الصبور، ولهذا فالصبر والتوكلّ صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته والعلم بما سوى الله وضعفه، فمن العلم بالله يعلم الخليفة أنّه تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كلّ مكان وكلّ وقت، وعالم بما سوى الله فغير الله زائل وهذا يجعل الأمر يهون عليه، فيلزم الصبر على الزائل الذي لا يدوم، ومن يؤذى في

387 البقرة، 286.

388 يونس، 9.

389 الحجر 61 . 71.

مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخرج صبرا وتوكّلا على الله لذلك النّاس قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متوكلّ على ربه، يترك الأوطان ويفارق الأهل والإخوان طلبا للرزق بصبر وتوكلّ، قال تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}390، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:(الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ)391.

والإقامة برفق لأنّه لا رزق بغلظة، فروي في الإحياء "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم"392.
- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكلّ لا بتوكلّ. قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم}393.

وفي الجمع بين الصبر والتوكلّ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكّلون) ذكر ما يساعد على التوكلّ وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كلّ يوم برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب فنسعى صبرا وتوكّلا بالعمل على لله الوكيل.

390 النحل 126 . 128.

391 مسند أحمد، ج 3، ص 355

392 تخريج أحاديث الإحياء، ج 2، ص 284

393 العنكبوت 60.

والرزق يتطلب الشكر والشكر فيه الزيادة فيضا من الله على الشاكر المتوكلّ على الله سبحانه، قال تعالى: {كلّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ}394.

ويوضح الله تعالى إن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادّي، والرزق المعنوي عند الله، فقد خلق الرزق المادّي للاختبار في دار الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}395.

ولهذا أخبر تعالى أنّ المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأنّ الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبّة من حقّوق الله، وحقّوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحقّ الزوجات، والممّاليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، وكلّ أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها، وكلّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فثوابها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، وضرب الله مثل الدنيا وحالها وذكر أن فيها نوعين:

– نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبّه، بل ربما لحقّته مضرته وهو المال والبنون.

---

394 سبأ، 15

395 الكهف، 46.

-ونوع يبقى وينفع صاحبّه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا}396

فالله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكلّ عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدّي إلى تمسك المؤمن بما انزل الله والعمل بما أراد ليحقّق الخلافة على الأرض، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربه (والباقيات الصالحات) لأنّها بلا أدنى شك (خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابا وَخَيْرٌ مَّرَدّا) في الدنيا وفي الآخرة.

ومن التوكلّ على الله تسليم الأمر إليه وحده والاعتماد عليه في كلّ شيء من أمر الدنيا والآخرة لذا فنحن نعيش في نعمة الله الوكيل لأننا مسلمون له قد أسلمنا أمرنا لله "وهذا المعنى في كتب اللغة، وَكلّ بالله وتوَكلّ عليه واتّكلّ استَسْلم إليه"397.

ومن التوكلّ في أبهى صوره ما جاء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في القرآن الكريم قال الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ

396 مريم 76.

397 لسان العرب، ج 11، ص 734

اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}398.

فإنّ من يرغب (عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أبي الأنبياء بعد ما عرف من فضله لأنه الداعي إلى التوحيد والتسليم لله والتوكلّ عليه (إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) ومن السفاهة الجهل بحقّيقتها التي خلقت من أجلها، فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلى ربها ومن الرجوع: رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ورجوع إجباري بدعوة الله لها بأن ترجع إليه {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}399.

وهذه الدعوة الطيبة لا تتأتى إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه الله من أجله وهو التسليم والتوكلّ عليه، لا بجهل قيمة نفسه وامتهانها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكلّ على الله، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن رغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي اختاره الله في الدنيا.

(وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) فأسلم لله وتوكلّ عليه لذلك قد أثابه في الآخرة (وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الذين لهم أعلى الدرجات بتوكلّهم على ربهم.

---

398 البقرة 127--133

399 الفجر 27-30

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) وهذا أمر الله لمن يريد الثواب في الدنيا والفوز في الآخرة، والجواب بما قاله نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي قَالَ: امتثالا وطاعة لله ربّ العالمين (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أسلمت إخلاصا، أسلمت توحيدا، أسلمت محبّة، أسلمت إنابة، أسلمت توكّلا عليك يا رب فأنت حسبي ونعم الوكيل، ثم أورث ذلك اليقين والتوكلّ والتسليم في ذريته، ووصّاهم بالإسلام والتوكلّ على الله رب العالمين، وجعلها كلّمة باقية في ذريته، وتوارثت فيهم، حتى وصلت لنبي الله يعقوب فوصى بها بنيه، وتكررت الدعوة إلى الإسلام بترك الأمر لله والتوكلّ عليه والخروج من الحول والقوّة والحسب والنسب إلى حول الله وقوّته وأمره وحكمه لأنّه سبحانه وتعالى صاحبّ الأمر ف(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)400، ولأنّه صاحبّ الأمر فهو الوكيل الذي يلجأ الكلّ إليه ويسلمون أمرهم له لأنّ إرادته أن يسلم له الخلق، فجعل دينه الإسلام ولا خلاف على ذلك ولا حجة إلا القول (أسلمت وجهي لله) وهذه الدعوة للعالم بان يعودوا إلى الانقياد لله والتوكلّ عليه كما قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}401.

ومن التوكلّ على الله والتسليم له والانقياد لأمره واليقين بأن لله تعالى ما سكن في الليل، وتحرك في النهار، وهذا يدل على الاستغراق الزمني والمكاني، وبما أن له أمر ما سكن فله بالتالي أمر المتحرك في الزمان والمكان كما سبق أن أوضحنا، وحال المؤمن المتوكلّ على الله

400 - الروم، 3

401 آل عمران، 19، 20.

يقول في عجب: هل أتخذ من دون الله وليا وهو خالق السماوات والأرض؟ وهو يطعم الخلق جميعا، الساكن والمتحرك، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنه وكيل عليهم حافظ لهم، وهو جلت قدرته لا حاجة له فيهم إلا نفعهم، ونفعهم في عبادته، وهذا ما جاء في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}402 ومن يعرف ذلك لابدّ وأن يسلم لله ويعلن انقياده التام له ويبتعد عن الشرك به ولا يتخذ من دونه وكيلا، تصديقا لقوله تعالى: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا}403، ويظهر ذلك التسليم في قول الله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}404.

والمراد هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا ووكيلا. لأنّه فاطر السماوات والأرض وهو الذي يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليا وكيلا. أمّا بيان أنه فاطر السماوات والأرض، فلأن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكلّ ما سواه من الموجودات. وأمّا بيان أنه يطعم ولا يطعم فهذا لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبدئ لكلّ ما سواه من

402 الذاريات، 56-58.

403 الإسراء 2

404 الأنعام، 13-16.

المخلوقات، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع. ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنيا ومتعاليا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالدليل القاطع صحة أنه تعالى فاطر السماوات والأرض، ولهذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليا لأنّ ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلى الله الغني القوي. والله سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ضرب من مخالفة العقل والمنطق.

فقوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ وليا) يمنع القرب من غير الله تعالى. وهذا يقتضي ممّن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى فلا يجعل في قلبه يقينا إلا بالله، وقطع العلائق عن كلّ ما سوى الله تعالى. ثم قال تعالى: (قل إنّي أمرت أن أكون أوّل من أسلم) ذلك أن النبي عليه الصّلاة والسّلام سابق أمته في الإسلام لقوله {وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين}405.

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أوّل المتوكّلين المسلمين لله أمره ربّه بقوله: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوّل الْمُسْلِمِينَ}406 وهذه الآية الكريمة تدلُ على أنَّه – عليه الصّلاة والسّلام – مؤدِّي العِبَادة مع الإخْلاص، وأكد الله ذلك بقوله تبارك وتعالى: لاَ شَرِيكَ لَه، وهذا من أقْوَى الدَّلائل على أنَّ شَرْط صحة الصّلاة أن يُؤتَى بها مَقْرُونةً بالإخْلاصِ، والإخلاص على وجهين:

405 الأنعام، 163

406 الأنعام 162.

- الإخلاص في الحياة بأن يكون الهدف منها طاعة الله بالإسلام له والتوكلّ عليه، واستنفاذ العمر كلّه في جعل كلّمة الله هي العليا وكلّمة الباطل هي السفلى ولا يتأتى ذلك إلا بالعمل الصالح.

- الإخلاص في الممّات بالخروج من الدنيا والقلب غير متعلق بها وقد استفرغها المؤمن من قلبه بالكلّية، وملأ قلبه بطاعة الله، فلا يتوجه إلا لله في الصّلاة والحياة والممّات والنسك والفروض والنوافل.

ومن التوكلّ على الله ما ورد في حشد من الآيات نذكر منها قوله تعالى:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}407، وهي دعوة صريحة للجوء إلى الوكيل الناصر وهو فعل أمر واجب التنفيذ يا مريد الخلافة هلا اتخذت المنهج وتدبرت تفاصيله الذي لا يوجد فيه اختلاف لأن هذا المنهج من لدن حكيم خبير.

ولأنّه الوكيل المطلق، فلا توكلّ إلا عليه، ومن يتوكلّ على غيره يُذل حيث لا اعتماد إلا على الوكيل المطلق، فالبشر هم في دائرة النسبية، متقلبون إلا من آمن بالوكيل المطلق فلا يسلم أمره لغيره، ولذا لا وكالة بالمطلق إلا للحقّ المطلق، والوكيل هو المهتم بالأمر دون مقابل لحاجة، إنه الخلاق الرزاق ذو العرش المجيد.

- وفي التوكلّ الكفاية لأنّه الكافي الذي يكفي من توكلّ عليه.

---

407 النساء، 81، 82..

– ومن التوكلّ تدبر القرآن لأنه المنهج الأمثل للمتوكلّ، لأنه من لدن حكيم خبير وليس من فعل بشر أو من تلقين معلم لذا فلا مجال لنقص فيه من خلاف وتعارض.

ويقول الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}408.

(ولله ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لكونه غنيا عزيزا لا يجب العوز والحاجة في صفاته، وجميع المخلوقات تذل بحاجتها إلى غناه، وتدل بهذه الحاجة إنه الغني المطلق، ولهذا لا يجب التوكلّ إلا عليه (وكفي بالله وكيلا) في تدبير أمور الخلق في كلّ الأمور فلابدّ من أن التوكلّ عليه لا على أحد غيره، وهذا ما يقوم به الخليفة المتخلق بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتمادا ولا استنادا إلا عليه.

ويخبر تعالى عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأوّلين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقّين –أمة الإسلام– بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: (وَإِنْ تَكْفُرُوا) بأن تتركوا تقوى الله والعمل بكتابه والإسلام له والتوكلّ عليه، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئا ولا تنقصون من ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره.

---

408 النساء، 131- 134.

ولهذا ترتب على ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) فلله الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء بالليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أوّلهم وآخرهم، فسأل كلّ واحد منهم ما بلغت أمّانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. وهذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيم يرويه عن رب العزة: "عَنْ أَبِي ذَرٍّعَنْ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كلّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كلّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كلّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أوّلكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أوّلكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أوّلكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"409.

409- صحيح مسلم، ج 12، ص 455

ومن تمام غناه أنّ له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له في كلّ صفة من صفاته الكمال المطلق فيها، ومن ذلك فهو الغني المطلق والوكيل المطلق، ومن تمام غناه أنّه لم يتخذ صاحبّة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه لأنه لا يتوكلّ على أحد فالكلّ فقير إليه ويتوكلّون عليه لأنهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد410.

وهو الوكيل على كلّ شيء، القائم على شؤون خلقه بتدبير أمورهم على وجه الكمال والتمام بما تقتضيه حكمته البالغة وعلمه المطلق، وقدرته النافذة لأنّه له جنود السماوات والأرض وذلك من كمال الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، وامتلاك القوّة والقدرة على التنفيذ والتدبير، ولكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكلّون عليه، فلا ينقص من مصالحهم شيء لأن الوكيل هو الله والله تعالى منزه عن كلّ نقص.

ومن النص المقدس الذي يرشدنا إلى شرف التوكلّ على الله ا ما ورد في قضية الصراع الذي لا ينتهي إلا بصرف المؤمن إلى الجنّة والكافر إلى النّار، الصراع بين الحقّ والباطل، الحقّ بتولي الله له والتعهد بأن يكون وكيلا عنه، والباطل الذي مازال يعمل على ظهور الباطل ومحقّ الحقّ، وهي القصة التي تثير البحث وتدفعه نحو القضية المحورية التي يرتكز عليها الخلافة المثلى على الأرض وهنا تهب علينا نفحات من الاسم الوكيل وفيه يتجلى بفرض وكالته على عباده والذي منهم الخليفة بلا شك فهو الرّب صاحبّ الملك الكافي لعباده شر ما يهمهم ويؤرقهم ويؤلمهم قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

410 تفسير السعدي، ج 1، ص 207.

إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِرَبِّكَ وَكِيلًا}411.

والله هو الوكيل والرّب والمهيمن على الكون وما فيه فيقول للنبي عليه الصّلاة والسّلام والحديث في الوقت ذاته للخليفة ولمن أراد أن يحقّق الخلافة نفسه أو في الآخرين: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَلّ عَلَى اللَّهِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}412.

قوله عزّ وجلّ: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) للرسل بالتبليغ شاهدا على الخلق كلّهم يوم القيامة (ومبشرا) لمن آمن بأنه سيدخل بالجنّة (ونذيرا) لمن كذب بالرّسُل وبحقّ لله في العبادة وبأنه الواحد الأحد فسيكون مصيرهم النّار (وداعيا إلى الله) داعيا إلى توحيده وطاعته والتسليم له والتوكلّ عليه (بإذنه) بأمر الله وإرادته (وسراجا منيرا) سراجا منيرا لأنه عليه الصّلاة والسّلام نوره جلا ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، وقد أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالنور لأن من السراج ما لا ينير. وسماه سراجا، ولم يسمه شمسا والشمس أشد إضاءة من السرج وأكثر نورا، لأن نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه

411 - الإسراء، 61 . 64.

412 الأحزاب، 1-3.

مقدارا ويوضع في شيء آخر بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة (وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا) ولأنه البشير طلب منه عليه الصّلاة والسّلام أن يبشر المؤمنين بزيادة فضل الله عليهم والفضل هو الثواب وتفضيل الأمة المحمّدية على سائر الأمم (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) في ما يقولون ويفعلون واصبر عليهم حتى تعد لهم العدة وتنتصر عليهم (وتوكلّ على الله وكفي بالله وكيلا) واعتمد عليه وانتصر به وله واكتفي بقوّته وقدرته فهو الحافظ لك ولمن اتبعك الذي يملك القوّة المطلقة وهو الرّب الذي يعتمد عليه.

ومن معاني الوكيل كما بدأنا في أوّل البحث في هذا الاسم الشريف، الرّب صاحبّ الملك ومالكه والمتصرف فيه، ويتجلى ذلك في أم الكتاب في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرّحمن الرّحيم مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}413، فهو ربّ العالمين ومن يتوكلّ عليه ويجعل اعتماده مستندا إليه لا يخاف من معلوم أو مجهول لأنّه ربّ العالمين العالم بالمرئي وغير المرئي، ولا يخشى المتوقّع ولا غير المتوقّع لأنهما جميعا في دائرة ملكه، ومن يعيش وهو يعلم أنّه في ملكه يكن أسعد الخلق لأنه يعتمد ويتوكلّ على رب العالمين.

وربّ العالمين من ملكه الواسع رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء فلأنه ربّ العالمين فهو عالم الشهادة الذي نعيش فيه وعالم الغيب الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا الله به، ومن الذي أخبرنا به إنّه مالك يوم الدين فهنيئا لمن يتخذه وكيلا في الدنيا فيكفيه ويحميه ويهديه للعمل الصالح النافع وهنيئا لمن يتخذه وكيلا فيرحمه برحمته في يوم لا يملك فيه أحد أن يتكلّم إلا بإذنه لأنّه ربّ السموات والأرض وصاحبّهما: {رَبِّ

413 الفاتحة، 1 -7.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرّحمن لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكلّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحمن وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الحقّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}414. ولا ينجو في ذلك اليوم إلا من عرف أنه مالك يوم الدين وقال وعمل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فنحن نعبدك ونوحدك بتخصيص العبادة لك لأنك رب العالمين مالك الدنيا والمتصرف فيها والمتوكلّ عليك والمعتمد عليك في الدنيا والمرجوة رحمتك في الآخرة والذي لا استغناء عن جودك وكرمك ورحمتك في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ونقول كما قال المصطفي عليه الصّلاة والسّلام في الدعاء الجميل العذب الذي ينسال خشوعا وخضوعا لربّ العالمين بعدما تعرّض صلى الله عيه وسلم لأذى الكفار في ثقيف لما أراد هدايتهم فأبوا إلا الكفر فلجأ عليه الصّلاة والسّلام إلى الرّب الوكيل العظيم، وهذا ما ورد في سيرته العطرة (السيرة النبوية) فقام رسول الله عليه الصّلاة والسّلام من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم، فيما ذكر، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا على. وكره رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه النّاس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف. فلما اطمأن قال فيما ذكر: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلّني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى

---

414 النبأ، 37-39.

عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوّة ألا بك"415.

وفي نص آخر به زيادة "وقلة حيلتي:

فَلَمّا اطْمَأَنّ رَسُولُ اللهِ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاس يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي، إلَى مَنْ تَكلّنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قوّة إلّا بِك416.

ومن تمام التوكلّ على الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه، وقد علمنا الرّسول الأعظم أن نلجأ إلى الوكيل عند الشدة ومن ذلك تعليمه لنا كلّمات المكروب فيقول:

"اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلّني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت"417.

عن النبي عليه الصّلاة والسّلام أنه قال في دعاء المضطر "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلّني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه لا إله إلا أنت"، وقال في حديث آخر: "إنك إن تكلّني إلى نفسي تكلّني

---

415 ابن كثير – ج 2، ص 150

416 سيرة ابن هشام – ج 1، ص 420

417- مصنف ابن أبي شيبة – ج 7، ص 21

إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلّها إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنّك أنت التواب الرّحيم"418.

وقال النبي عليه الصّلاة والسّلام للسيدة الزهراء عليها السّلام، عن أنس بن مالك قال: قال النبي عليه الصّلاة والسّلام لفاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كلّه ولا تكلّني إلى نفسي طرفة عين"419.

ومن دعاء النبي عليه الصّلاة والسّلام يوم أحد: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اكفني كلّ شيء ولا تكلّني إلى نفسي طرفة عين"420.

ومن التوكلّ على الله الانتصار به وله، ومن توكلّ عليه حفظه ونصره وهذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن شاء الله في مواطن يحتاج إليها المتوكلّون عليه.

قال الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

418- شعب الإيمان للبيهقي – ج 2، ص 322

419- السنن الكبرى للنسائي – ج 6، ص 147

420 -الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم – ج 8، ص 276

أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرّسول مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 421.

وكانت قريش أعلى النّاس شجاعة وأوفاهم قوّة وأعرقهم أصالة فكانوا كأنّهم جميع النّاس، فكان التعبير بصيغة في قوله: (الذين قال لهم النّاس) أي نعيم أو ركب عبد القيس (إنّ النّاس) يعني قريشا (قد جمعوا لكم فاخشوهم) أمدح للصحابة رضي الله عنهم من التعبير عمن أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه.

ولما كان الموجب لإقدامهم على اللقاء بعد هذا القول الذي لم يشكوا في صدقه ثبات الإيمان وقوّة التيقن قال تعالى: (فزادهم) أي هذا القول إيمانا لأنّه ما ثناهم عن طاعة الله ورسوله، وقالوا، ازدراء بالخلائق اعتمادا على الخالق (حسبنا) أي كافينا الله، أي الملك الأعلى في القيام بمصالحنا. ولما كان ذلك هو شأن الوكيل وكان في الوكلّاء من يذم قال: (ونعم الوكيل) أي الموكول إليه المفوض إليه جميع الأمور؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "هذه الكلّمة قالها إبراهيم عليه السّلام حين ألقي في النّار، وقالها محمّد عليه الصّلاة والسّلام حين قالوا: إن النّاس قد جمعوا لكم. وقال: كان آخر كلّمة قالها إبراهيم عليه السّلام حين ألقي في النّار: حسبي الله ونعم الوكيل". ولما كان اعتمادهم على الله سببا لفلاحهم قال: (فانقلبوا) أي فكان ذلك سببا لأنهم انقلبوا، أي من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي عليه

421 آل عمران، 166-173.

الصّلاة والسّلام (بنعمة) وعظمها بإضافتها إلى الاسم الأعظم فقال: (من الله) أي الذي له الكمال كلّه (وفضل) أي من الدنيا ما طاب لهم من طيب الثناء بصدق الوعد ومضاء العزم وعظيم الفناء والجرأة إلى ما نالوه. عند ربهم حال كونهم (لم يمسسهم سوء) أي من العدو خوفوه ولا غيره (واتبعوا) أي مع ذلك بطاعتهم لرسول الله عليه الصّلاة والسّلام بغاية جهدهم (رضوان الله) الذي له الجلال والجمال فحازوا أعظم فضله والله الذي لا كفء له عظيم في الدارين على من يرضيه، فستنظرون فوق ما تؤملون، فليبشر المجيب ويغتم ويحزن المتخلف، ولعظم الأمر كرر الاسم الأعظم كثيرا، ولما جزاهم سبحانه على أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسّلامة والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال وتنزه عن كلّ نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال، ورغبهم فيما لديه لتوليهم إياه، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أنّ المخوف لهم مَن كيده ضعيف وأمره هين خفيف واهٍ سخيف وهو الشيطان، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل وبعدهم عن السوء بأن وليهم الله وعدوهم الشيطان فقال التفاتا إليهم بزيادة في تنشيطهم أو تشجيعهم وتثبيتهم: (إنما ذلكم) أي القائل الذي تقدم أنّه النّاس (الشيطان) هو الطريد البعيد المحترق422.

ومن آيات الله يمكن أن نستخلص بعضا من صفات الوكيل بالإضافة كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ

422 نظم الدرر للبقاعي – ج 2، ص 143

يُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أوّلئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}423.

– الإيمان بالله ربّا واحدا مالكا للملك وكيلا معينا.

– الخوف من الله الذي سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه، ويراقبه من الميلاد حتى الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء، فيستشعر الخليفة هذا المعنى العظيم فيخاف منه حبّا فيه لأنه سبحانه لا يستحقّ المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض وما فيها وما عليها ليقيم الخلافة الإلهية عليها.

–التوكلّ على الله في كلّ شيء لأنه الحافظ القيوم الرازق القوي المتين.

– إقامة الصّلاة، فهي الصلة بين الإنسان وربهِ دون حجاب ودون واسطة فبها ينتقل المرء من عالم الملك على عالم الملكوت وتسمو روحه وتحلق في أنوار لا حصر ولا وصف لها.

– الإنفاق من رزق الله الذي وكلّهم عليه ومن ذلك حسن التوظيف للمال وتوجيهه لمساعدة المستحقّ للمساعدة، وتتعدد جوانب الإنفاق حسب الحاجة، لأنه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخيل الممسك وللفقير المحتاج وصدق الله في قوله: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ}424.

423 الأنفال، 1 ـ 4.

424 البقرة، 195.

عن ابن عباس: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله"425.

وسبيل الله في مصارف عديدة، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير، للنفس بحرمانها من طيبات الله في الدنيا ومن نعيم الله في الآخرة، فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به فهو قد أهلك نفسه وغيره.

-وجزاء من يؤمن بالله ويخافه وينفق في سبيله ولا يبخل بالنفس والمال رزق من الله ومغفرة.

وفي مجال الإنفاق فقد جعل الله الغني وكيلا على المال بشرط عدم البخل على الفقراء لأنهم عيال الله أي عالته المسئولون منه لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل الله في صور الإنفاق المختلفة.

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد الله فلا يخشى بأس أحد أو ظلم أحد فيأخذ في أسباب السعي للحصول على الرزق وهذا من صور التوكلّ التي عرفنا إياها الحبّيب عليه الصّلاة والسّلام فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكلّتُمْ عَلَى اللَّهِ حقّ تَوَكلّهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"426.

425 تفسير الطبري - ج 3، ص 584

426 سنن ابن ماجه - ج 12، ص 199

لذا التوكلّ هو الأخذ بالأسباب، وقال الله تعالى: {وتزودا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}427.

أَيْ تَزَوَّدُوا وَاتَّقُوا أَذَى النّاس بِسُؤَالِكُمْ إِيَّاهُمْ وَالْإِثْم فِي ذَلِكَ، وَالتَّوَكلّ لَا يَكُون مَعَ السُّؤَال وَإِنَّمَا التَّوَكلّ الْمَحْمُود أَنْ لَا يَسْتَعِين بِأَحَدٍ فِي شَيْء، وَهُوَ قَطْع النَّظَر عَنْ الْأَسْبَاب بَعْدَ تَهْيِئَة الْأَسْبَاب، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام "أعقلها وَتَوَكلّ"428، ولذا تؤخذ الأسباب بالتوكلّ على الله الوكيل المطلق الذي آمن به المستخلفون في الأرض وأوّلوه أمرهم طاعة تامة لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

نعم فمن التوكلّ المحمود عدم الاستعانة إلا بالله فنحن نقول (إياك نعبد) فأنت الوكيل علينا ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك أمرنا إليك و(إياك نستعين) عليك لا على غيرك مع الأخذ بالأسباب كما أمرتنا، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ونرويها بالماء ونتوكلّ عليك في إخراجها وكذا في كلّ أمور حياتنا إخلاصا في العبادة وإفرادا في التوكلّ والاستعانة.

وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام كَانَ لَا يَأْكلّ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"429.

وعن ابْن عَبَّاس، قَالَ: "كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكلّونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النّاس، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

427 البقرة 197

428 فتح الباري لابن حجر – ج 5، ص 161

429 فتح الباري لابن حجر – ج 6، ص 382

{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}". تزودوا فلا تؤذوا النّاس بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك.

وفيه: إنّ التوكلّ لا يكون مع السؤال، وإنما التوكلّ على الله دون استعانة بأحد في شيء، ويبين ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام: "يدخل الجنّة سبعون ألفًا بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلّون". فهذه أسباب التوكلّ وصفاته430.

وقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: "يَدْخُلُ الجنّة مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ قَالُوا وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلّونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

وَقَوْله صلّى الله عليه وسلّم: (وَعَلَى رَبّهمْ يَتَوَكلّونَ) اِخْتَلَفَتْ عِبَارَات الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف فِي حقيقَة التَّوَكلّ، فَحَكَى الْأمّام أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيُّ وَغَيْره عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَسْتَحق اِسْم التَّوَكلّ إِلَّا مَنْ لَمْ يُخَالِط قَلْبه خَوْف من غَيْر اللَّه تَعَالَى مِنْ سَبُع أَوْ عَدُوّ حَتَّى يَتْرُك السَّعْي فِي طَلَب الرِّزْق ثِقَة بِضَمَانِ اللَّه تَعَالَى لَهُ رِزْقه، وَقَالَتْ طَائِفَة: حَدّه الثِّقَة بِاَللَّهِ تَعَالَى وَالْإِتْقَان بِأَنَّ قَضَاءَهُ نَافِذ وَاتِّبَاع سُنَّة نَبِيّه عليه الصّلاة والسّلام فِي السَّعْي فِيمَا لابدّ مِنْهُ مِنْ الْمَطْعَم وَالْمَشْرَب وَالتَّحَرُّز مِنْ الْعَدُوّ كَمَا فَعَلَهُ الْأَنْبِيَاء صَلَوَات اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: وَهَذَا الْمَذْهَب هُوَ اِخْتِيَار الطَّبَرِيُّ وَعَامَّة الْفُقَهَاء.

وَلَا يَصِحّ التَّوَكلّ مَعَ الِالْتِفَات وَالطُّمَأْنِينَة إِلَى الْأَسْبَاب، بَلْ فِعْل الْأَسْبَاب سُنَّة اللَّه وَحِكْمَته وَالثِّقَة بِأَنَّهُ لَا يَجْلِب نَفْعًا وَلَا يَدْفَع ضُرًّا

430 شرح ابن بطال – ج 7، ص 225

وَالْكلّ مِنْ اللَّه تَعَالَى وَحْده. قَالَ الْأمّام أَبُو الْقَاسِم الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى: اِعْلَمْ أَنَّ التَّوَكل مَحَلّه الْقَلْب، وَأمّا الْحَرَكَة بِالظَّاهِرِ فَلَا تُنَافِي التَّوَكل بِالْقَلْبِ بَعْد مَا تَحَقّقَ الْعَبْد أَنَّ الثِّقَة مِنْ قِبَل اللَّه تَعَالَى، فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْء فَبِتَقْدِيرِهِ، وَإِنْ تَيَسَّرَ فَبِتَيَسُّرِهِ431.

التوكلّ طاعة:

وفي هذا قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}432.

والتوكلّ على الله طاعة لله ولرسوله لأن الله قد عرفنا في كتابه أن لكلّ شيء سبب فلا ننصرف عن التوكلّ بالتواكلّ.

ونأخذ بأسباب النصر بإعداد الجيوش.

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء.

وبأسباب الطعام بشق الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها.

وبأسباب القوّة في كافة أشكالها بإعداد الإنسان الخليفة.

ونستلهم قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كلّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا}433.

فالتوكلّ على الله هداية، وعدم التوكلّ على الله ضلال، لأنه الخالق المالك الذي يملك النفع والضر، ولا يملك كشف الضر سواه، ولا يملك رحمة بخلقه سواه، لذا فإن الله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكلّين، ومن يتوكلّ على الله فالله كافيه وهذا قوله تعالى لنبيه

431 السابق

432 الأنفال- 46

433 الكهف 83- 85

وبشراه لكلّ من يتخذه وكيلا ويصدق بكلّامه وأنبيائه: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}434

وسنختم بحثنا في اسم الله الوكيل وعلاقته بمعنى الخلافة وأن الخليفة هو من يتوكلّ عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهذا ما تمثل في سيرة النبي عليه الصّلاة والسّلام في حياته بشكلّ عام وفي الهجرة بشكلّ خاص، مع أنّنا نجد التوكلّ في أسمى صوره في كلّ لمحة من ملامح حياته ومواقفه صلى الله عليه سلم، ففي الهجرة صور الله لنا هذا التوكلّ في قوله تعالى في الحوار بين الصديق والحبّيب بقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}435.

فمعية الله في التوكلّ عليه والأخذ بأسبابه، فلا حزن لمن كان الله معه، ولا هزيمة لمن كان الله ناصره، ولا فقر لمن كان الله رازقه، والسكينة لمن يستأنس به، والكفاية لمن يكتفي به، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

434 الزمر 37 -38

435 التوبة -40

من

صفات النبي لوط

1 . رسول:

يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}436، هذه الآية الكريمة تبين أن لوطا عليه الصّلاة والسّلام رسول من رسل الله تبارك تعالى.

والرّسول في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو بالقبض. وفي الشريعة: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام.

ومن الحكمة في إرسال الرّسُل الكرام صلّى الله عليهم وسلم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسُله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}437.

والإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك، قال تعالى حاكيا قول ملكة سبأ: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ

436 - الشعراء 160 – 163.

437 - المائدة 19.

فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}438، وقد يريدون بالرّسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذا من قول العرب: "جاءت الإبلُ رَسَلا" أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرّسُل إنّما سمّوا بذلك لأنّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}439، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها 440.

إنّ إرسال الرّسُل يمثل مظهرا مهما من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزا كبيرا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذبين، إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}441، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}442. النصّ القرآني هنا يحمل في طياته كثيرا من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرّسُل وكلّ ما يملك ممّا نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلى في هذا الأمر الذي تشكلّ فيه مظهران:

438 - النمل 35.

439 - المؤمنون 44.

440 - الرّسُل والرسالات، ج 1، ص 1.

441 - البقرة 151

442 - النساء 64

المظهر الأوّل: إنّ إرسال الرّسُل لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أمّا المظهر الثاني: فإنّ إرسال الرّسُل يتضمن أمورا لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

وإرسال الرّسُل شمل الأقوام التي كفرت بالله تعالى، أو التي انحرفت عن الخلق القويم مثل قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}443، ويقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}444، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شكّورٍ}445، وقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}446.

---

443 - الشعراء 160 – 163.

444 - الأعراف 59 - 62

445 - إبراهيم 5

446 - المؤمنون 44 - 48

إنّ إرسال الرّسُل لم يتوقف طول الفترة الزمنية المتصلة من خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام إلى مبعث نبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فبرغم تكذيب الرّسُل وقتلهم في بعض الأحيان كما فعل اليهود مع يحيى صلّى الله عليه وسلّم، إلا أنّ إرسال الرّسُل لم يتوقف، بل استمر من أجل إصلاح الأرض الذي هو الهدف المنشود من إرسال الرّسُل في الحياة الدنيا.

ولعل إرسال الرّسُل خلق قصصا مختلفة تتحدث كلّ واحدة عن سمات وخصائص الأقوام المختلفة، من حيث ذنوبهم المختلفة، وصورة العقوبة التي كانت لهم، فقد تحقّقت في العقوبة التي وقعت على الأقوام الذين رفضوا دعوة أنبيائهم، فلا أحد يملك العقوبة إلا الله تعالى، فتحديد العقوبة وتنفيذها لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، ففي قوم لوط تحقّقت العقوبة عليهم، إذ يقول تعالى:{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}447، وعن عاد وثمود يقول الله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}448.

---

447 - هود 81- 83.

448 - العنكبوت 38 - 40

فلم يكن هذا العذاب إلا بعد أن استنفد الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام كلّ الوسائل في سبيل إقناع هؤلاء الكفار الجاحدين، فلا يبقى لهم أي حجة على الله تعالى يوم القيامة، لانّ الحجج والبراهين الدامغة كانت أمّامهم على أيدي رسل الله تعالى، ولهذا نجد أن الخطاب الموجه لهم في الآخرة يبنى على ما كان في الدنيا، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}449. هذا الخطاُب تقريع من الله تعالى لأهل النّار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم، كيف تفعلون ذلك وقد أرسلت لكم الرّسُل، ومعهم كتبي وقد بينت فيها لكم الحلال من الحرام كالشمس الساطعة، فتسقط هنا كلّ الحجج، لان الله تعالى قال: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}450 فضلا عن ذلك أن طلب العودة إلى الدنيا معناه الاعتراف بذنوبهم التي ارتكبوها، ويتردد مثل هذا الخطاب في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كلّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كلّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحقّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِين وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ

449 - المؤمنون 105 – 111

450 - النساء 164 - 165

فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النّار وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}451.

2. صالح:

الصالح "هو الخالص من كلّ فاسد"452.

والصالح هو الذي لا يَقدم على عملٍ إلا وفيه صلاح للعباد، ولذلك فالصالح قوله حقّ وفعله حقّ، وهو الذي لا يظلم أحدا، وهو الذي يعمل في الأرض من اجل صلاحها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

الصالحون كغيرهم من النّاس قد يتعرضون إلى ما يتعرضون منه حتى يصل الأمر من أقرب النّاس لهم، إذ يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النّار مَعَ الدَّاخِلِينَ}453 إنّ الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليُذكرهم بأنّ الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف فلا يحسبوا أنّ لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة

451 - الجاثية 27-35.

452 - التعريفات للجرجاني، ج 1، ص 42.

453 - التحريم 10.

القرآن وصدق الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أوّلى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السّلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تمالُؤِ أُمي المؤمنين على زوجها عليه الصّلاة والسّلام تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحقّ ما يجب من الإخلاص للنبي عليه الصّلاة والسّلام ليكون الشَّبه في التمثيل أقوى.

وقد ظهر أنّ المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصّا بوصف «عبدين صالحين» مع أنّ وصف النبوّة أخصّ من وصف الصّلاح تنويها بوصف الصلاح وإيماء إلى أنّ النبوّة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين454، كما في قوله تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}455.

3. مؤتى الحكم:

يقول الله تعالى: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}456، هذه الآية الكريمة تطرح إحدى صفات الرّسول لوط صلّى الله عليه وسلّم، وهذه الصفة تظهر واضحة جلية مع دعوة الرّسول المرسل.

454 - التحرير والتنوير، ج 15، ص 192.

455 - الصافات 112.

456 - الأنبياء 74.

إنّ أوّل وظيفة نلاحظها من وظائف أي رسول من رسل الله عليهم الصّلاة والسّلام هي وظيفة تبليغ رسالات الله لخلقه، وهذا التبليغ يتطلب أسلوبا واعيا ومتقنا في كيفية التعامل مع مختلف المعتقدات والأفكار التي يحملها الخلق، وكيفية تذويبها وحلها وإدخال بدلا عنها دعوة الله تبارك وتعالى، فالرّسول في قومه معلم ومصلح، يقوم بوظيفة إنسانية تربوية أخلاقية وتعليمية من أجل الرفعة بمكارم الخلاق، ومن بين هذه الأساليب القول اللين، لأجل إتباع القدوة الحسنة.

أمّا الله تعالى فعلمه مطلق وهو على كلّ شيء قدير؛ فالله وحده يعلم متى تحمل الأنثى، وممّن ستحمل قبل أن تحمل، وبما تحمل، وهل ما ستحمله سيكون ذكرا أم أنثى؟ أمّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلا بالحمل إذا ما تم بأمرٍ من الله تعالى، فبعدها تكون المتابعة والرعاية العناية. قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كلّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ}457، وقال عزّ وجلّ: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}458.

وهكذا هو أمر الرّوح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنسبة للبشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، أمّا بالنسبة له فأمرها معلوم قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}459.

وكذلك أمر الرّحمة؛ فمع أنّنا نعلم أن الرحمة توهب هبةً، إلا أنّنا لا نعلم على من ستكون الرحمة؟ ومتى ستكون؟ وأين تكون؟ فهذه جميعها تقع في دائرة علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلا الله تعالى. ولذا فأمور

457 الرعد، 8.

458 الحج، 5.

459 الإسراء، 85.

الغيب يُبشر بها الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين تبشيرا قال تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ}460. وقال تعالى: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}461. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}462.

وأيضا أمر العقاب؛ فمع أنّ أمر العقاب أمر معلوم وأنه حدث ويحدث وسيحدث، إلا أنّنا لا نعلم كيفيته حتى وإن وقع مصداقا لقوله تعالى: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}463 هذا الأمر هو حال قوم عاد وثمود، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذبوا شعيب فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ وهكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإننا لن نعلمه ولا نعلم على من سيكون حتى وإن ظننا فإن بعض الظن إثمٌ. ولذلك قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}464.

. وهكذا أمر التواب؛ أي بما أنّ من النّاس من يعمل شرا فيعاقب عليه فكذلك من النّاس من يعمل خيرا فيثاب عليه بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}465. وقال عزّ وجلّ: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ}466، وقال: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ

---

460 التوبة، 21.

461 الأنعام، 12.

462 الأنبياء، 107.

463 النحل، 36.

464 الرعد، 42.

465 الأعراف، 128.

466 النساء، 17.

مُجِيبٌ}467. ثمّ أمر السماء؛ فالمؤمنون يعلمون بأنّ السّماء سيأتي عليها يوم تكون فيه وردة كالدهان، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء بل ستكون بلون الدهان في جماله وروعته. قال تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}468. ولأنّ المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقينا بأنّ السّماء ستنشق وتصبح وردة كالدهان إلا أنّهم لا يعلمون ساعته ولا كيفيته ولا روعته وحسنه.

انّه تعالى هو العليم بالأمر الآتي؛ فكلّ مفكر عاقل يعلم علم المستقبل وفقا لانتظامه في الزمان والحركة، ولكن لا أحد يعلم أنّ ما يتوقّعه للمستقبل قد يقع، فبدون شكّ إنّ لم يحدث أمر الغيب سيكون غدا الجمعة بما أنّ اليوم هو الخميس، وسيسقط المطر غدا بما أنّ للسحبّ تكاثف وتلبد بالماء، ولأننا نعلم علم المستقبل فإننا نعلم أنّنا سنتعلم ونعمل ونتزوج فنبني مسكنا ونسعى دون كلّل ولا ملل للحصول على العيش الرغيد ومع ذلك نعلم إننا سنموت يقينا وأننا سنجازى على أعمالنا ثوابا أو عقابا ونعلم أن الله غفور رحيم ودود، ولكننا لا نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتى نضمن بأنّنا سنتعلم ونعمل ونبني مساكنا لأسرنا المتوقّعة وأنّ الخميس سيأتي غدا ممطرا، وأنّنا سنجازى كما نحن نتمنى.

وهو العليم بأمر البعث؛ فالمؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به، ولذا؛ فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به. أمّا المنكرون فلا يعلمون بأمره حتى يفاجؤوا به مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ

467 هود، 61.

468 الرّحمن،، 38.37.

أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}469.

أمّا المعطية الخاصّة: إنّها معطية الرّسُل والأنبياء الذين يُوحى لهم ويُنبؤون بما لم يُنبَّأ الآخرون به، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}470. وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ}471. أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمّد هو من أنباء الغيب، وإلا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم أوحي إليك أمر كلّ منهما؟ ولذا فقوله (نوحيه إليك) تعني نُطلِعُك عليه مسلمات وبراهين وحُجج مثبتة ذات دلالة حتى لا يأتيك الظن ولتكون على اليقين بالبينة. ولأن الوحي هو إظهار على علمٍ من علم الغيب فأوحى الله إلى نوح عليه الصّلاة والسّلام أن يصنع الفلك فصنع، وهكذا أوحى إلى يوسف وهود عليهما الصّلاة والسّلام، وأوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فآمنوا، كما أوحى ربُّك للنحل أن يتخذ من الجبال بيوتا.

قال تعالى: {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}472 هكذا في حدود التخصيص أوحى الله عزّ وجلّ لمن شاء من خلقه ما شاء.

أمّا المعطية النسبية: الساعة معطية ومسلمة لا شكّ في وقوعها بالنسبة للمؤمنين وهؤلاء هم القلة الذين يعلمون بأمرها أمّا الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا

---

469 الروم، 55، 56.

470 آل عمران 179.

471 آل عمران، 44.

472 الجن، 26، 27.

يؤمنون بالبعث من بعده هؤلاء هم الكثرة، {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}473، تدل هذه الآية على أنّ بعض النّاس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالساعة مع أنّهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكنهم من معرفة الزمان الذي ستقوم فيه. قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}474 ترشد هذه الآية إلى أنَّ أمر الإحاطة بعلم الله المطلق مقصور عليه، أمّا ما هو نسبي منه فمنقوص وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحي إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين، فقد مكَّن الله من يشاء من عباده ممّا يشاء علما ولم يُمكِّن الجميع من علمه ولهذا قال تعالى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}475. وعلى سبيل المثال: أمر انشقاق القمر الذي أنبأنا به الله تعالى في مُنزل كتابه الحكيم فآمنا به بالمطلق قد شهده غزاة الفضاء بأمهات عيونهم ولذا فهو علم غيب بالنسبة لغير المؤمنين إلى أن تمّ اكتشافه حقّيقة بين أيدي العلماء والبحاثة في علوم الفضاء.

وهناك أمر آخر لم يقع بعد والمؤمنون يعلمونه ويؤمنون به يقينا وسيأتي لا محالة إنه اليوم الذي ستكون فيه السماء وردة كالدهان، ومع أنَّنا نعلم هذا اليوم سيأتي يقينا إلا أننا لا نعلم متى سيأتي فهذا الأمر من علم ربِّي ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلا. فزدنا من علمك علما يا الله حتى نعلم ونحن مؤمنون من علمك الواسع.

473 الأعراف، 187.

474 البقرة، 255.

475 يوسف، 76.

وعليه؛ فإنَّ النبي لوط عليه الصّلاة والسّلام حكم، أي أنّه قد استمدّ صفته من الحكم المطلق، والحكم تعالى هو الذي بيده الأمر والنهي، وهو الله العادل في ملكه، ولأنّه مالك الملك فهو بطبيعة الحال أن يكون حكما، ولذا فالحكم هو الذي يلمّ بالمطلق بمستوجبات الحكم فيما يحكم، والله عزّ وجلّ الحاكم العدل، والحَكَم العدل في حُكْمه.

قال الشاعر:

أقادَت بنو مروانَ قيسا دماءنا... وفي اللّهّ إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عَدْلُ[476].

والخليفة الحكم هو الذي يفصل بين النّاس ليُعرف الخير من الشرّ، والحقّ من الباطل، والله ومع أنَّ هو الحكم المطلق الذي ميز بين النقائض عموما وبين الحقّ والباطل خصوصا.

ويرتبط الحكم بالعدل في مواضع كثيرة من القران كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[477]

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[478]

---

[476] الجمهرة، ج 1، ص 292

[477] المائدة 95

[478] النساء 58

إنّ اقتران الحكم بالعدل أمر لا يشك فيه عقل، فالله هو العدل وهو الحكم، ومن بديهيات ما يقبل العقل اقتران الحكم بالعدل وبخلاف ذلك لن تعمر الأرض، ولا يمكن للبشرية أن تتعايش وتتطور وتبني الحضارة التي وصلت إليها الآن وستصل إليها فيما بعد، هذا كله بمعادلة الحكم العدل.

وأوّل ما يجب على الإنسان الوقوف عليه في اسم الله (الحَكَمْ) رسم الكلمة ووقعها على النفس، حيث تُشعرك بالقوّة والحزم فتشدك لتتبين معانيها وتلتمس الطريق إلى إدراك حقّيقتها، وذلك بإثارة التساؤلات عن الكيفية التي يكون فيها الحكم عدلا؟ والإجابة على مستوى الخليفة هي أن يتوخى الخليفة أمورا بعينها، منها:

أوّلا: لا يقبل أن يكون حكما إلا بما شرع الله: أي أن يستمد قواعد احتكامه ممّا أنزل الله له من آيات تشريعية تبين له الحقّ من الباطل والحلال من الحرام والمحبب والمفضل من المكروه والواجب اجتنابه، وأن يتبين بدون استعجال. قال تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرّبانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ

فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}479.

يتحقّق العدل لمن يروم إشاعته بالحكم بما شرع الله، فالحَكَمُ البصير بعباده والرّحيم بهم شرع من الأحكام ما يمكّن بني آدم من العيش في الأرض وتعميرها والخلافة عليها، وهي أحكام ترضاها النفوس وتعجب بها الألباب لما فيها من دقة ومن رحمة وخير، والحكم سبحانه يقول: {وَكَفي بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}480.

ونص الذكر الحكيم على مصادر الحكم بالعدل، وبصيغةٍ مؤكدةٍ تقوم على استخدام فعل الأمر الملزم (أحكم)، متبوعا بلا الناهية دلالة على حتمية الوجوب وانتفاء الجواز، يقول عز من قائل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}481.

والنص واضح صريح، فمصدر الحكم الكتاب مع تحذير بيّن بالابتعاد عن الهوى وعن الأحكام العاطفية، ويتضح أن آفة الحكم اتباع الهوى من قبل الحاكم، وعلى الخليفة في الأرض تجنب الوقوع فيما نبه

---

479 المائدة، 42، 45.

480 الإسراء 17

481 المائدة 50

الله نبيه إلى عدم جواز الأخذ به، وبخلاف ذلك يقع الإنسان في الظلم كما تنص الآية الكريمة: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}482.

ومن مصادر الحكم العدل السنة الصحيحة، فهي ممّا يستند عليه الخليفة في الحكم إن أراد أن يكون حكما عدلا، وفي القران إشارة تدل على ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}483.

ثانيا: أن يكون الحكم محايدا فلا يميل إلى طرف دون آخر لا لحبٍ ولا لبغض، وهذا رب العزة الحكم العدل يُعلّم الإنسانَ درسا عظيما ليكون حياديا في الخصومة وذلك في قصة سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام مع فرعون، يقول عزّ وجلّ: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}484.

فالله سبحانه يقدّم لخليفته في الأرض المثل الأعلى في الحياد، فبالرغم من كون موسى رسول الله وهو ضعيف خائف، وفرعون عدو الله وهو قوي ظالم إلا أنه سبحانه عامل الطرفين في هذه الخصومة على حد سواء، فقد طلب الله من موسى وأخيه أن يحاورا خصمهما باللين

---

482 المائدة 45

483 النساء 65

484 طه 43 . 50

وذلك بسبب طغيان سابق، فقال سبحانه لموسى عن فرعون (أنه طغى) بالفعل الماضي، وفي ذلك حكمة، لأن استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغى) أو الفعل المضارع للمستقبل (سيطغى) فيه حكم مسبق من الله على فرعون مع علمه سبحانه أن فرعون سيبقى على طغيانه لكن الله يريد أن يعلّم موسى عليه الصّلاة والسّلام وخلفاء الله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة لأن ذلك خلاف الحياد الذي يدعو إليه الحكم العدل.

ثالثا: المساواة، الحكم العدل سبحانه يساوي بين عباده، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقربون به إليه، وليس أدل على ذلك من تعامله سبحانه وتعالى مع أنّبيائه، فعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لذريته أجابه الله تعالى إجابة تشع بالمساواة، يقول عزّ وجلّ: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}485، فذرية إبراهيم على شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد الله، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلى إبراهيم إن هم ظلموا أحدا من النّاس، فالأولى بالخليفة أن يساوي بين رعيته فلا يقرب أحدا لنسبٍ أو لمودة، ويباعد آخر لقطيعةٍ أو عداوة، وإنما الرعية سواء.

والمساواة في ممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل، مع من تحب أو من تكره، وهذا ما يدعونا إليه الحكم العدل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}486.

---

[485] البقرة 124

[486] المائدة 8 9

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمّد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدِّي، واعملوا فيه بأمري[487].

فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحكم، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبهم، فهم سواء، فتحقّيق العدل يتم بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوى، وتستند على الوحي الذي يوحى.

رابعا: التدقيق في الأحكام، وهو ممّا أرشد الله سبحانه عباده إليه بالآيات الكريمة التي ننهل منها دروسا نتدبر من خلالها معنى الحكم العدل، ومن ذلك الآيات الكريمة التي تروي قصة سيدنا داود في الحكم بين الخصوم: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآَبٍ}[488].

---

[487] الطبري 10،95

[488] ص 2025

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، هل أتاك يا محمّد خبر الخصمين اللذين تسلّقا السور ودخلا عليه في مكان عبادته، لا من الباب، وعندما دخلوا عليه بهذه الطريقة الغريبة خاف منهم واضطرب، قالوا: لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضُنا بعضا، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل، لا تجُرْ في حُكمك وأرشِدنا إلى الحقّ. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أعطِني إياها لتكون في كفالتي وغلبني بكلامه وحججه، قال داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر: لقد ظلمك يا هذا حين طلب ضمَّ نعجتك إلى نعاجه، إن كثيرا من الشركاء والمتخالطين ليجور بعضهم على بعض، إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات، ولكنهم قلة نادرة، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ، وعرف داود أن الأمر ما هو إلا امتحان من الله، فطلب المغفرة، وخرّ ساجدا لله، وأناب إليه بالتوبة. فغفرنا له تعجّله في الحكم489.

فالعجلة يمكن لها أن توقع الخليفة في الخطأ، والأولى له أن يتأنى ويدقق ويستمع إلى الخصوم ثم يصدر حكمه الذي يراه.

خامسا: الابتعاد عن الظلم، الله الحكم يقول عن نفسه: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ}490، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له، ولذا فهو لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد.

وعلى الخليفة أن ينتهي وينهى من معه عن الظلم، مدركا وموقنا أن عاقبة الظلم في غاية الخطورة، فقد أشارت الآيات الكريمة إلى العواقب

489 تفسير القطان، ج3، ص 161

490 الحج 10

الدنيوية والأخروية للظلم، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}491.

يقول الألوسي: المراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم492، فالظلم علة قطع الدابر وهو أثر الظالم من نسلٍ أو عملٍ.

ومن عواقب الظلم إيقاظ الفتن وعلى صعيد واسع، حيث تتسع الفتن لتشمل الظالم وغيره، وذلك لأمرين:

الأوّل: حكمته عزّ وجلّ.

الثاني: سكوت النّاس عن الظالم كما تشير الآية الكريمة: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}493، فالسكوت عن الظلم ظلم جزاؤه شيوع الفتن بين النّاس، فقد أُمروا أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب494، يقول المولى سبحانه: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}495.

أمّا قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}496. فان ه يدل على أن الظلم من أسباب الهلاك.

---

[491] الأنعام 45

[492] تفسير الألوسي، ج 5، ص 332

[493] المائدة 79

[494] تفسير ابن عبد السلام، ج 2، ص 218

[495] الأنفال 25

[496] الكهف 59

ويرى ذوي الألباب من تغير حال بعض العباد وتبدل حالهم من الخير إلى الشر ما يعتبرون به في الدنيا استعدادا للآخرة، وهذا وعيد من الله لكل ظالم وفي كل زمان، يقول الحكم العدل سبحانه: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[497]. والآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: (وَسَيَعْلَمُ) وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: (الذين ظَلَمُواْ) وإطلاقه. وقوله: (أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه: وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها[498].

وتوعد الله سبحانه الظالمين فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[499]، وعلى من يرجو لقاء ربه أن ينتهي عن الظلم ويتراجع، ولتحقّيق ذلك على الخليفة أن لا يسمح للظلم بأن ينال من عباد الله وذلك بأن ينصر المظلوم موقنا بنصر الله في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك، ولا أدل على ذلك من قول الله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[500].

والمتدبر لآيات الله ليسعد أيما سعادة بوعد الله جزاءً لنصرة المظلوم، كما يخاف كل الخوف وهو يقرأ وعيده.

---

[497] الشعراء 227

[498] تفسير الزمخشري، ج 5، ص 54

[499] النحل 85

[500] الحج 40

وإذا كانت الآيات الكريمة قد بينت ما للظلم من عواقب، فإنها تركت تحديد الثواب دلالةً على عظمته، يقول المولى عزّ وجلّ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[501].

ومعنى قوله تعالى: (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيما له لأنه شارعه فقال: (من ينصره) أي يقبل مجدا على الاستمرار على نصر دينه ورسله ذلك النصر (بالغيب) من الوعد والوعيد، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك، أو غائبا عن كل ما أوجب له النصرة.

فكيف إذا أصبح الإنسان ظالما وأراد التوبة؟ الجواب أن سبيل الله واسع والظالم له أن يعود بأمرين:

الأول: أن يستغفر الله، لا باللسان وإنما بالقول وبالعمل وذلك بأن يرفع الظلم عمن ظلم نادما، ثم التوجه إلى الله لطلب المغفرة.

الثاني: فهو ترك الظلم وعدم الإصرار عليه كما يُعلّمنا الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[502].

[501] الحديد 25

[502] ال عمران 135

والحكم مصدر الحُكم، وحَكَمَ بينهم يَحْكُمُ أي قضى[503]، فالله سبحانه هو الذي يقضي بين عباده: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}[504]. وعليه ينبغي أن نميز بين شيئين:

الأوّل: الحَكَمُ: وهو مصدر لكل حُكم، وهو الحاكم بأمره لا بأمر غيره، وتعود الأمور إليه دون سواه.

الثاني: الحُكم: هو النص الذي يحتوي ويتضمن الكلمة والجملة والمعاني التي بها يتم التشريع، وعليها تستند القرارات.

وقد نصت الآيات الكريمة على نماذج للأحكام التي يريد الحكم سبحانه إفهامها لخليفته في الأرض، وعلى مستويين:

الأول: نماذج للأحكام العادلة، وهي تلك الأحكام التي شرعها الله ليصلح بها أحوال الإنسان منها قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[505]، فمُصدر الأحكام سبحانه شرّع لنا من الأحكام ما ترضاه النفوس وتقبله العقول، لما فيها من مراعاة للحقّ وإرضاء لنفسية المجني عليه وتهذيب للجاني وردع من تسول له نفسه القيام بأي اعتداء، وعلى خليفة الله في الأرض أن يحرص أيما حرص على أن تراعي أحكامه أحوال النّاس وبما يرضي الله، وأن تكون الغاية منها إحقّاق الحقّ وليس لغايات أخرى.

---

[503] لسان العرب، 12، ص 140

[504] النمل 78

[505] المائدة 45

وعلى الخليفة إصدار أحكام دقيقة وواضحة ومعلنة امتثالا لأحكام الحكم سبحانه، مثل ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[506].

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي أن الحر إذا قتل الحرَّ، فَدم القاتل كفءٌ لدم القتيل، والقصاصُ منه دون غيره من النّاس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل، فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غيرَ قاتله. ومع أنَّ الدين الإسلامي جاء بغاية تحرير العبيد، إلا أنه في البداية قَبِلَ بأن يكون العبد بالعبد والحر بالحر، وذلك للبدء مع العباد من حيث هم بغاية بلوغ ما يجب أن يكونوا عليه وهو بلوغ الحرية مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[507].

والفرض الذي فرضَه الله علينا في القصاص، هو ما وصفتُ من ترك المجاوزة بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنه وجب علينا القصاص فرضًا وجُوب فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه.

---

[506] البقرة 178

[507] النساء 92، 93.

ولو كان ذلك فرضًا لا يجوز لنا تركه، لم يكن لقوله: "فَمن عُفي لهُ من أخيه شيء"، معنى مفهوم. لأنّه لا عفو بعد القصاص فيقال: "فمن عفي له من أخيه شيء"508.

والثاني: نماذج للأحكام الباطلة التي لا تنم عن تأمل ولا عن علم ولا عن عقل، والحكم يرينا نماذج لتلك الأحكام السطحية لتكون مثلا لخليفته فلا يقع في مثلها، يقول عز من قائل: {فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}509.

تساؤلات استغرابية بأسباب جهل الكاذبين الذين وصفوا الملائكة بالإناث، وأن الله يلد وقد اصطفي البنات على البنين، ولذلك يسود الآيات تعجب على هؤلاء، فهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم. ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر510.

أما قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}511.

فلا شك أنّ فيه من العبر التي يجب على الخليفة الاعتبار بها لتلافي إصدار الأحكام الفاسدة، والمطلوب التمييز لكيلا يجعل المطيع لله من

[508] الطبري، ج 3، ص 357

[509] الصافات 156

[510] الزمخشري، ج 5، ص 488

[511] القلم 34 . 38

عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء. يقول جلّ ثناؤه: لا تسوّوا بينهما فأنهما لا يستويان عند الله، بل المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي512.

ويتعجب الحكم من حكمهم واستبعادا له وإيذانا بأنّه لا يصدر من عاقل إذ معنى مالكم أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي513.

وتتوالى الآيات التي يعظنا الحكم سبحانه بها، لتكون عبرة على مر السنين، ومن خليفة إلى آخر، ومنها قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}514.

الحَكَمُ سبحانه رءوف بالعباد يمهل عباده عسى أن يعودوا عما اقترفوا من ذنوب، فهو الرّحيم وهو الحليم وهو الغفور، لذلك فإن الله يؤخر إنفاذ أحكامه بحقّ المذنبين من عباده رحمة منه بهم، وإمهالهم لعلهم يستغفرون، يقول سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}515.

ولكن هذا الترك والإمهال لم يكن مطلقا لأنّه سيصبح عند ذاك حاشاه سبحانه إهمالا، وهذا خلاف الرّحمة والرأفة والمغفرة، بل اختار سبحانه أن ينبه عباده إلى ظلمهم وذنوبهم قبل إنفاذ الحكم فيهم بعدة

---

[512] الطبري، ج 23، ص 552

[513] الالوسي، ج 21، ص 186

[514] الأنعام 136

[515] النحل 61

أمور يعلمها سبحانه، ومنها ما نبهنا إليها في كتابه الحكيم كبعث الرّسُل بالكتب التي تبين للناس ما لهم وما عليهم، يقول الحكم سبحانه: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}516.

وهذه الكتب فيها آيات واضحة وتفصيلة، تُمكّن الإنسان من إدراك المحظورات التي تجعله في موطن الخطر،}وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}517، وهذا أمر كتبه الحكم على نفسه لكي لا يدعي البشر حجة مفادها عدم التبليغ، يقول سبحانه: { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}518، وعلى الخليفة أن يُعلم النّاس بوضوح حدود المعاملة بينهم بما يرضي الله ويمهلهم لينفذوا أمره ثم بعد ذلك ينفّذ الحكم كما علمه الله.

ومن إشارات الحكم سبحانه إرسال الآيات، ومنها أن يصاب النّاس بالبلاء تذكيرا لهم بذنوبهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}519.

والبأساء التعب المحاط بالقنوط مع فقدان مشبعات الحاجة ولذا في البأساء القحط والجوع والضراء المرض ونقصان الأنفس والأموال، لأجل أن يتذكروا مالك الملك فيدعوه ويستغفروا لذنوبهم ويتوبون إليه.

ويعم هذا البلاء ليشمل النّاس في بواديهم وفي حواضرهم تنبيها من الله سبحانه لهم على إصرارهم على الذنوب، كما فعل سبحانه مع آل

---

[516] الأنعام 51

[517] طه113

[518] النساء 165

[519] الأنعام 42

فرعون تعليما لمن بعدهم فقال: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}520.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أمّا السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم، والحكمة في ذلك لأن النّاس في حال الشدّة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة521.

هذا كله من رحمة الله بعباده فهو اللطيف الخبير بأحوالهم، فإذا أصر العبد على ذنبه أنزل الله عليه عذابا أقل وطأةً من عذاب الآخرة لعله يتنبه ويعود إلى الصراط المستقيم، يقول سبحانه: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}522.

فإذا بلغ الأمر مداه وانتهى العبد إلى ربه انفرد ولم يبق له قريب أو نصير أو شفيع كما ينص قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}523، يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها524.

فلا بد إذا من جعل الشفاعات في الإحكام من المستقبحات عند الخليفة، لأنها ستخل بميزان العدل عنده فتخفف على المذنب وتزيد في

---

520 الأعراف 130

521 الزمخشري، ج 2، ص 275

522 السجدة 21

523 البقرة 48

524 الطبري، ج 1، ص 35

ظلم المظلوم الذي ينتظر من الخليفة أن ينتصر له إلا أن الشفاعة حرمته من ذلك.

ومن الأمور التي يجب على الخليفة التنبه إليها الحزم في إنفاذ الأحكام التي أصدرها، وعدم تأجيل أي منها، وهذه صفة الحكم سبحانه نعقلها من قوله: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[525]. بطبيعة الحال الحكم المطلق بيده الأمر (أي أمر) ولذا فهو يحكم كما يشاء فيما يشاء متى ما شاء، وحكمه أمر نافد بقوله للشيء كن فيكون فسبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال العادل في ملكه.

وحَكَمَ الشيء وأَحْكَمَهُ كلاهما منعه من الفساد قال الأزهري وروينا عن إبراهيم النخعي أنه قال حَكِّم اليَتيم كما تُحَكِّمُ ولدك أي امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد[526].

ارتبط منع الفساد من قبل الحكم سبحانه بخلق الإنسان، حيث كان من أول الموضوعات التي أثيرت في الحوار بين رب العزة وبين ملائكته، وهذا يدفعنا للتساؤل لماذا ذكرت الملائكة في أول ما ذكرت الفساد مع تأخيرٍ لسفك الدماء؟ لابدّ أن العليم سبحانه وضع في ملكوته للمفسدين عذابا شديدا أذهل الملائكة بشدته الأمر الذي جعلها تسأل ربها عن ذلك؛ يقول المولى سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

---

[525] البقرة 117

[526] اللسان، ج 12، ص 140

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}527.

إنّ الملائكة إذ قال لها ربها: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، لم تُضف الإفساد وسفك الدماء في جَوابها ربَّها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: "أتجعل فيها من يُفسد فيها"؟ وغير مُنْكَر أن يكون ربُّها أعلمها أنه يكون لخليفتِه ذلك ذرّيةٌ يكون منهم الإفساد وسفك الدماء، فقالت: يا ربنا "أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء"528.

وتسأل الملائكة ربّنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقّها فمن غير خلفائه، والخليفة الفعلية من قولك، خلف فلان فلانا في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده529، كما قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}530.

والفساد ضد الصلاح، كما أنه مرحلة تلي الطغيان، أي إذا طغى الإنسان تحول إلى الفساد كما تشير الآية الكريمة: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}531.

---

527 البقرة 30

528 الطبري، ج 1، ص 453

529 ابن كثير، ج 1، ص 218

530 يونس 14

531 الفجر 11، 12

وقد منع الحكم سبحانه الفساد بعديد الآيات وبأكثر من أسلوب تنبيها منه وتحذيرا ووعيدا لعباده، ومنها:

1- أشار سبحانه إلى كرهه عزّ وجلّ للفساد فقال: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}532.

2- التذكير بما أحل الله من الطيبات في الدنيا بمقابل التذكير بكراهيته سبحانه للفساد: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}533.

3- التحذير من الفساد الخفي، وهو أن يبدو الإنسان مصلحا بقوله، وأما فعله فهو المنبئ بفساده، يقول سبحانه: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}534، فعلى الخليفة أن يتقصى عن أفعال النّاس عموما ومن حوله خصوصا ليتبين له المفسد منهم من المصلح، فيقرب المصلحين ويبعد ويعاقب المفسدين.

4-الوعيد بالعذاب للمفسدين، يقول الحكم سبحانه: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}535.

---

532 المائدة 64

533 القصص77

534 البقرة 204، 205

535 النحل 77

5 – مكافأة منع الفساد، يقول سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}536. أما الأسلوب الأخر الذي اختاره الحكم سبحانه ليكون لنا عبرة تدفع بنا إلى منع الفساد فهو بالإصلاح والدعوة إليه وحثنا عليه وترغيبنا فيه، فقد ربط الله سبحانه بين الإصلاح والرزق الحسن المبارك فقال: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}537. كما بشّر الحكم سبحانه المصلحين بالأمن في الدنيا، فلا بأساء ولا ضراء فقال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}538.

والذي يعين الخليفة على منع الفساد هو إيمانه بقضية الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}539 وقال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}540 وقال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}541.

إنّ كلّ صلاح نقدره بالعقل بالنسبة إلى شخص عارضه صلاح فوق ذلك أو فساد مثل ذلك بالنسبة إلى شخص آخر فلئن كان

---

[536] القصص 83

[537] هود 88

[538] هود 117

[539] النساء 128.

[540] المائدة 39.

[541] الأنعام 48.

الصلاح يقتضي وجوده بالنسبة إلى ذلك الشخص فالفساد يقتضي عدمه بالنسبة إلى شخص آخر فالسم في أصحاب السموم صلاح وفي غيرهم من الحيوانات فساد، فلو كان الصلاح اقتضى وجوده فالفساد اقتضى عدمه.

إنّ أفعال الله تعالى اشتملت على الخير وتوجهت إلى الإصلاح وأنّه لم يخلق الخلق لأجل الإفساد ولذا فالصلح خير، ولأنه خير خلق الإنسان لفعله، ولأنه كذلك جعل الله الإنسان خليفة ليصلح ما استطاع ولا يفسد فيها ويسفك الدماء بغير حقّ.

ولأنه الحَكَمُ فهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها، ينظمها ويسويها ويهدي إليها ويحفظها لأجل الخير ويهلكها إن أريد بها شرا. فقد أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، والحقّ أنّ الله تعالى راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلا ورحمة لا وجوبا وهذا ممّا أجمع عليه أهل السنة والجماعة، فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته[542]، فقد قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[543].

وما من معتبر إلا ويقف مذهولا أمام خَلق الإنسان، لاسيما في ملازمة الشكل الخارجي لإرادة الفعل الداخلي، فلولا هذه اليد بأصابعها الخمسة لما كانت الأرض على ما هي عليه الآن من عمارة

[542] الالوسي 12،170

[543] السجدة 7

وحضارة، ولولا العقل المتضمن في أحسن تقويم لما تحركت اليد للبناء والعمار، يقول الخالق تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[544].

والله عزّ وجلّ أحكم الخلق بأن خلق كل شيء في هذه الدنيا وأتقن خلقه، فهو سبحانه يعرف كل ما يتعلق بهذا الخلق من إنسان إلى حيوان ونبات وأكوان ومجرات وغير ذلك، فهو الحكم سبحانه يقول عن خلقه وعلمه بهم: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[545].

وآيات إتقان الحكم سبحانه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[546]، سبحان الحكم القدير خلق وأتقن، فلو تنبه ذو اللب إلى دقة حركة الكواكب وما يقابلها من دقة في الزمن الذي يسير الحياة على الأرض لكفاه أن يؤمن بالله الخلاق العليم.

[544] المؤمنون 12، 14

[545] الأنعام 101

[546] يس 32، 40

إنه الحكم الذي يعلم مالا نعلم سبحانه، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويشفي من يشاء ويجبر من يشاء وقد اصطفي من شاء كيف شاء، وقد أنزل الكتاب والحكمة، وقد أحي وأمات، ويبشر المؤمنين أن لهم جنات قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم}547.

ومن آيات إتقان الحكم سبحانه قوله: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}548.

أي أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلق أكثر أنواع.

وحَكَمَ الشيء هيمن عليه وأحاط به وتحكم في أمره، والله سبحانه هو المحيط بملكه وبخلقه وبكل شيء، ومهما حاول البشر بما يجتهدون فيه من العلم الوصول إلى حقّيقة الأشياء والى المعرفة التامة بها فإنهم سيبقون عالمين بها وجاهلين بتمام وكمال عللها وأسبابها مصداقا لقوله

[547] البقرة، 25 ـ 29.

[548] الغاشية 17

تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حقّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}549، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}550. وعليه فإن علم الله الكامل محجوب عن البشر، فهم في دائرة النسبية لم يؤتوا منه إلا قليلا، ولذا فالحكم هو المحيط بعلمه ولا يحاط بأي علم قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}551.

فعلم الله خاص بجلاله، وحتى من اختصهم الله بعلم يفوق علم البشر العاديين لم يحيطوا بعلم الله، وإنما وهبهم من علم الكتاب، يقول سبحانه: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}552.

---

549 البقرة، 120، 121.

550 الإسراء، 85. 87.

551 البقرة 255

552 النمل 40

والإحاطة هي الإلمام الكامل وإدراك الشيء بكماله ظاهرا وباطنا553، والحكم سبحانه محيط بأفعال البشر وبأخلاقهم وبمكنوناتهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}554.

والحكم سبحانه أحاط بخلقه بما يفوق قدرتهم على المنع، فهو محيط بهم بعلمه، يقول سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}555.

وإحاطة الحكم سبحانه كلية من حيث النوع ومن حيث العدد، فهو سبحانه حكم محيط بالأشياء إحاطة تامة، عارف بكل دواخلها وخوارجها، يقول سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}556.

أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن من خلق وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيرا فخير، وإن شرا فشر فإن قيل قوله: {أَلاَ إِنَّهُ بِكُلّ شَيْء مُّحِيطُ} يقتضي أن تكون علومه متناهية، قلنا قوله: {بِكُلّ شَيْء مُّحِيطُ} يقتضي أن يكون علمه محيطا بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهيا بالنسبة له، وغير متناهي بالنسبة لنا نحن المستخلفين في

---

553 التعريفات 1،2

554 ق 16

555 الإسراء 60

556 فصلت 54

الأرض، وذلك لأن خلق الله تعالى لا نعلم منه إلا القيل ولهذا لن نحيط بعلمه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

وهو محيط بكل الأشياء فلا يخفي عليه أي منها، يقول سبحانه من حكم محيط: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}557.

وإحاطة الحكم سبحانه بخلقه مستمرة دائمة، لا موقوتة ولا موقوفة، وسورة البروج توضح ذلك في قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}558.

وممّا يدل على الاستمرارية استخدام الفعل المضارع (تكذيب) دلالة على استمرار الكافر بالإنكار لدعوة الحقّ، ممّا يستدعي دوام الإحاطة منه سبحانه بكل هؤلاء فهو الدائم سبحانه، وقوله تعالى: {والله من ورائهم} تعني من أمامهم ومن خلفهم فهي لا تقتصر على الخلف فقط. مصداقا لقوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}559 و(محيط) بهم بالقدرة والقوّة المطلقة، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط المحيط إذا سد عليه مسلكه بحيث لا يجد هربا أو إفلات منه وفي التأويلات النجمة محيط والمحيط لا يفوته المحاط ولا يفوت المحيط شيء لإحاطة الله سبحانه عند العارفين بالكافرين من الموجودات كلها عبارة عن تجليه بصور الموجودات فهو سبحانه بأحدية جميع أسمائه سارٍ في الموجودات كلها ذاتا وحياة علما

557 الطلاق 12

558 البروج 20

559 الكهف 79.

وقدرة إلى غير ذلك من الصفات والمراد بإحاطته تعالى هذا السرايان ولا يعزب عنه ذرة في السموات والأرض وقالوا هذه الإحاطة ليس كإحاطة الظرف بالمظروف ولا كإحاطة الكل بأجزائه ولا كإحاطة الكلى بجزيئاته بل كإحاطة الملزوم بلازمه فإن التعينات اللاحقّة لذاته المطلقة إنما هي لوازم له بواسطة أو بغير واسطة وبشرط أو بغير شرط ولا تقدح كثرة اللوازم في وحدة الملزوم ولا تنافيها560.

وحَكَمْتُ السَّفِيه وأَحْكَمْتُه إذا أَخذت على يده561، أي منعته من الإضرار بالنّاس سفها، وفي هذا الكون من السفهاء ما لو تُرك على هواه لظهر الفساد في البر والبحر، فلا بد من حَكَمٍ يأخذ على يد هؤلاء السفهاء، ومن غير الله سبحانه قادر على ذلك؟

والسَّفَهُ والسَّفاهُ والسّفاهةُ: نقيضُ الحِلْم وسَفِهُتَ ْ أحلامُهم. وسَفُهَ الرَّجلُ: صار سفيهاُ. وسَفِهَ حِلْمَهُ، ورأيَهُ ونفْسَه، إذا حملها على أمرٍ خطأ562، وقولُ اللهِ عزّ وجلّ: {إلاّ من سَفِهَ نَفْسَه} 563. يشر القرآن الكريم إلى أنواعٍ من السفه أخذ عليهما الحكم سبحانه، الأول سفهٌ لا إرادي وهو ما لم يكن فيه القصد والإصرار غاية، وإنما ظهر لدون ذلك، ومثاله سفه الطفولة أو الشيخوخة، وربما يكون لعلة عضوية كنقص العقل، أو الجنون أحيانا، أو بأسباب مرضية.

وقد أخذ الحكم تعالى على هذا السفه أخذ الحكيم العادل فوضع قيودا منظمة لتصرف هؤلاء تناسب ما هم فيه فقال: {وَلَا تُؤْتُوا

[560] تفسير حقّي، ج 17 ص 161.

[561] اللسان، ج 12، ص 140

[562] معجم العين، ج 1، ص 260

[563] البقرة 130

السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}564.

ينهى الحكم تعالى عن تمْكين السفهاء من التصرّف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. ومن هاهنا يُؤْخَذُ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحَجْرُ للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجرُ للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفَلَس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاقَ ماله عن وفائها، فإذا سأل الغُرَماء الحاكم الحَجْرَ عليه حَجَرَ عليه.

وقد يكون أخذ الحكم على يد السفيه رحمة به ولحماية حقّه، كما جاء في قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}565.

سَفِيهًا أي عاجزا أحمق قاله ابن زيد، أو جاهلا بالإملال قاله مجاهد، أو مبذرا لماله ومفسدا لدينه قاله الشافعي أَوْ ضَعِيفًا أي صبيا، أو شيخا خرفا566. أما نحن فنؤكد على الضعف الذي تتعدد أسبابه، من طمع وخيانة أو نفاق أو ضلال وسوء نية، أو غير مدرك أو غير قادر، أو كان سفيها لا يقدر الأمر والظرف والزمان والمكان.

وهنا يأتي تدخل الحكم سبحانه لحفظ الحقّوق لاسيما تلك التي يسهل على بعض البشر التطاول عليها، فأخذه هنا رقابةً فهو الرقيب،

---

[564] النساء 5

[565] البقرة 282

[566] الالوسي، ج 2، ص 386

ورحمةً فهو الرّحيم، وحفظا فهو الحافظ ومهيمنا فهو العزيز الودود الملك القدوس.

ومن رحمة الحكم سبحانه بعباده تصنيفه لبعض ذنوبهم على أنها سفهٌ، وأخذه عليهم في هذه الحالة جاء بصيغة الترغيب والترهيب، إذ قدم الرّحمن الرّحيم قبوله للتوبة ممن أذنب، وأخر سبحانه منع القبول رحمة بعباده ليوقنوا أن ربهم غفور رحيم فيعودوا إليه تائبين مستغفرين، يقول سبحانه: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}567.

التوبة من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له، يعني إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء، وبِجَهَالَةٍ في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأنّ ارتكاب القبيح ممّا يدعو إليه السفه والشهوة، لا ممّا تدعو إليه الحكمة والعقل568.

أما النوع الثاني من السفه فهو قلة المعرفة بوضع الأمور مواضعها وهو ضعف الرأي، وقد يكون سفه غير متعد وإنما ينصبُّ رأيه على التفسير569، وإلى هذا النوع أشار الحكم سبحانه بقوله: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}570.

---

567 النساء 17

568 الكشاف، ج 1، ص 391

569 الفروق اللغوية، ج 1، ص 193

570 الجن 4

السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره، إذا أبعد فيه أي يقول قولا هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الأمرين شطط ومذموم571.

وأخذ الحكم سبحانه على هذا النوع من السفه جاء بطريقة التعريض للمنع، فليس للإنسان الخوض بما لا يعلم فكيف إذا تطاول في القول بما لا يعلم؟

أما النوع الثالث من السفه فهو سفه الكفار والمعاندين، وأخذ الحكم عليه شديد، لأنه نابع من إصرار الكافر المعاند على الرفض لكل أشكال الإيمان جهلا منهم بالخالق، وعدوانا على عباده المؤمنين، يقول عنهم سبحانه وتعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}572.

الضعفاء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشكّ الذي لا يؤدّي إلى يقين وظن ليس فيه حسن نية، والريْب في أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله، وأمر البعث، لإساءَتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه

571 تفسير الرازي، ج 16، ص 76

572 البقرة 13

من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)، وقال: (ألا إنهم هم السفهاء) – دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه (ولكن لا يعلمون)573.

والتكبر على آيات الله وتكذيب رسله من علامات السفه التي توعد الحكم سبحانه من يسلك سبلها وعدا مهلكا يضيّع فيه المرء آخرته وذلك بصرف الله لهم عن فهم وإدراك الكتب السماوية ممّا يعني البقاء على الضلالة، يقول سبحانه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}574. الآيات المعجزات العظام التي بين أيدي النّاس والتي في الآفاق والتي في أنفسهم والتي في السماوات والأرض والنجوم والكواكب والتي في الحركة والسكون والتي في السمع والبصر والتي في النبات والبحار والمحيطات والحيوانات، كلها تُرى ويحس بها ومع ذلك هم عنها غافلون.

ومن آيات أخذ الحكم سبحانه إقرار القصاص، ولولا هذا الأخذ على يد السفهاء لكانت الأرض غابة يأكل فيها القوي الضعيف، يقول الحكم تعالى: {ولكم في القصاص حياة}575، جعل الله هذا القصاص حياة، ونكالا وعظةً لأهل السفه والجهل من النّاس. وكم من رجل قد هَمّ بداهية، لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حَجز

573 تفسير الطبري، ج 1، ص 295

574 الأعراف 146

575 البقرة 179

بالقصاص بعضهم عن بعض؛ وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهي الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين576.

وعلى الخليفة إدراك ما لإقامة القصاص على المذنبين من أهمية، فهي طاعة لله، وتنظيم للحياة وذلك بمنع السفهاء من العبث بأرواح النّاس أو بأموالهم وأوطانهم.

وحَكَمَ الرجلُ يَحْكُمُ حُكْما إذا بلغ النهاية في معناه مدحا لازما577، وما من مؤمن إلا يعلم أن الله سبحانه وتعالى تنتهي عنده المعارف بالأشياء فلا يبلغ مداها أحد سواه، فهو العليم، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}578.

وتتهاوى أمام قدرته كل القوى والخوارق فهو القوي، {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}579.

وتعجز عن الوصول إلى رحمته ومغفرته وفضله قدرة، فهو المنان الرّحيم، {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم}580.

فمن ذا يبلغ مداه سبحانه وتعالى الحي القيوم الآخر الذي ينادي؟ وما من مجيب سواه لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار.

---

[576] تفسير الطبري، ج 3، ص 382

[577] لسان العرب، ج 12، ص 140

[578] البقرة 32

[579] هود 66

[580] الحجر 49

والحكم العدل حدَّ الحدود وشرّع الشرائع لخلقه رحمة بهم وخوفا عليهم وحفظا لهم وصونا لمصالحهم في الدنيا والآخرة، ذلك أن الحدود في الأصل هي الفواصل بين الأشياء حتى يتبين بعضها من البعض الآخر، فكان الحكم العدل جلت حكمته أن شرّع هذه الشرائع وحدّ هذه الحدود ليبين للناس الحلال من الحرام، وكذلك الإباحة والمنع والواجب والمستحب والمندوب والمكروه، ممّا يراعي أحوال العباد ومصالحهم بحيث يعرف كل ذي حقّ حقّه، وبذلك تفض المنازعات والخصومات بما أوضحه الحكم في حقّوقه على خلقه، وفي حقّوق الخلق فيما بينهم، وقد فصل الله القول الحقّ بقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}581 فالله أعدل الحاكمين، لأنه أعلمهم بما كان وما سيكون، وهو أحكم الحاكمين سبحانه لا إله إلا هو.

لقد كان من عدالة الحكم العدل وعلمه تعالى أنه أول ما أوحى إلى نبيه عليه الصّلاة والسّلام، قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}582 فالقراءة أول العلم والمعرفة وهي التي تؤدّي إلى النّاس علم دينهم ودنياهم، وهي مكتفية بنفسها، لا تحتاج إلى غيرها، وهي الجليس الذي لا يمل، والصديق الذي لا يكذب، والرفيق والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا تعاملك بالمكر، ولا تخدعك بالنفاق، ولا تحتال لك بالكذب، فتشحذ الطباع، وتبسط اللسان، وتنير العقل، وتبلغ بها الحاجة لما تمكنك من معرفة كل ما أمر به الله تعالى من واجبات، وما نهى عنه من مناهٍ، وبذلك تتبين الفصل

581 هود 45

582 العلق 15

بين ما تحب وترضى، وبين ما تأنف وتأبى فيما يرضى الحكم بما حكم، والحكم على صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض والعدل هو الميل، والميل عين الاستقامة، حيث لا تكون استقامة إلا عن الميل فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين فلا بدّ أن يميل بالحكم مع صاحب الحقّ، وإذا مال إلى واحد مال عن الآخر ضرورة، وهنا نقول ليست الاستقامة ما يتوهمه البعض، إذ أن الاستقامة من الحكم هي الانحياز والميل إلى صاحب الحقّ، لذلك فالحكم العدل، عدل عن الباطل وابتعد عنه، ومال إلى الحقّ وانحاز إليه، ولذلك فالخليفة الذي أراده الله تعالى أن يستخلفه في الأرض حكما، هو بالضرورة يتصف بصفات من استخلفه نسبيا، إذ أن مكارم الأخلاق التي أمر بها الحكم المطلق في وجوبها فرضا على خليفته أوجبت عليه الانحياز إلى الحقّ والعدول عن الباطل حتى يستقيم الميزان.

ومن أجل استقامة الميزان فقد استخلف الحكم عزّ وجلّ خليفة في الأرض يفصل بحكمه بين الخلق بالحقّ والعدل، فمن القضاة نجد مثلا من لا نستطيع أن نسميه حكما لعدم اتصافه بما ذكرنا من صفات الحكم العدل نسبيا، فنجد بعض هؤلاء القضاة يعكسون المعنى ويغيرون المفاهيم بالانحياز والعدول، وعندما يصبح الأمر كذلك فيكون هذا التصرف هو ظلم وجور في حقّ إنسان، لباطل إنسان آخر كان له تأثير على القاضي ولا نقول على الحكم، لأن هذا القاضي عدل إلى باطل صديقه على حساب حقّ خصمه فنصره عليه، وسواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله فمردّ ذلك إلى الحكم العدل يوم القيامة، فالحكم يفصل بالحكم يوم القيامة بين عباده بما أعلمهم وأنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة والنواميس الوضعية الحكمية كل ذلك من الاسم الحكم العدل بحكمه بالحقّ وإقامة الملة الحنيفية حيث قال تعالى: {قَلَ

رَبِّ احْكُمْ بِالحقّ وَرَبُّنَا الرّحمن الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}583 فهذه دعوة من النبي عليه الصّلاة والسّلام بقوله: يا رب احكم بيني وبين مَنْ بلّغتُهم الوحي بالعدل حتى لا يستوي المؤمنون والكافرون، أي اقض بيننا وبين من كفر بالعدل المظهر للحقّوق التي جرى حكم الله فيها في الأزل، وإن أخر العذاب رحمة منه ليتوب من يتوب، فيتوب الله عليه لأن رحمته غير متناهية وإن كانت أنواعها مائة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"584

إن حكمة الحكم وعدله وإنصافه جعلت الحدود بين النّاس قائمة، وهذه الحدود التي شرّعها الشارع عزّ وجلّ، إنما هي من إنصاف الحكم لخلقه، إذ لو تُرك الحبل على الغارب لتعطلت

المصلحة العامة التي نصبت من أجلها إقامة الحدود التي لا يتمكن الشفاعة فيها كحد السارق والزاني وحقّوق الله على الإطلاق، ولكل من هذه الحدود لها منافعها وفوائدها لما تؤدّي من إقامة العدل من الحكم على الجانح، وكذلك الردع والزجر للآخرين حيث قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}585 فالذي يسرق، والتي تسرق، الحكم فيها أن تقطع أيديهما جزاء بما ارتكبا، وهذا القطع هو عقوبة لهما، وزجرا

583 الأنبياء 112

584 صحيح مسلم، ج 13، ص 311

585 المائدة 38، 39

وردعا لغيرهما. وذلك الحكم لهما من الله، والله غالب على أمره، حكيم في تشريعه، يضع لكل جريمة ما تستحقّ من عقاب رادع مانع من شيوعها، فالقطع هو جزاء لهما على ما فعلا من فعل السرقة وعقوبة رادعة لهما من العود مرة ثانية إلى هذا الفعل الشنيع، وهو ردع لغيرهما لكيلا يقتدي أحد بهما، وهنا نحب أن ننوه على أن الذين يطعنون في حكم الحكم العدل ممّا شرعه في قطع السارق، بأنهم يقولون هذه جريمة، حيث يقولون كيف يقطع هؤلاء المسلمون يد من يسرق، وللرد على هؤلاء من ثلاثة جوانب:

أولا: إن قولهم هذا فيه تعدٍ على الحكم العدل، واتهام بالظلم من طرف خفي في مهاجمة الإسلام ودين الحقّ الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}586 فالحكم الذي ارتضى هذا الدين لخلقه، وأمر خليفته باتباعه وتطبيق شرائعه لعلمه تعالى أن هذا الحُكم من الحَكم العدل المقسط الذي ما كان ظلاما للعبيد، وإنما هو رحمة بهم وحفظا لحقّوقهم.

ثانيا: أن هؤلاء يرجمون بالغيب بغير علم لأنهم جهلوا شروط تطبيق هذا الحد من الحدود التي أمر بها الحكم، أو أنهم يعرفونها ويحرفونها، إذ أنه لا يقطع السارق إلا إذا توفرت شروط القطع المجمع عليها من علماء المسلمين التي فصلها رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وهي: أن يكون السارق بالغا عاقلا راشدا غير مجنون ولا معتوه، وأن تبلغ السرقة حدّ النصاب المقدّر وفقا لمعطيات الشريعة، وأن يكون المال في حرز حصين، ليس على قارعة الطريق ولا مالا سائبا، وأن لا تكون في هذا المال شبهة، أي إن كان السارق شريك في المال في تجارة أو أنه أحد

---

[586] المائدة 3

ورثة هذا المال وغير ذلك من الشبهات فلا يقام عليه الحد كما يظن البعض ظنا في غير مكانه، لذلك فالحكم بالإضافة المكلف بإقامة الحدود، يعلم من الحكم المطلق بما علمه من شرائعه حدود الإنصاف في إقامة حدود الحكم المطلق من أجل إعمار الأرض وإصلاح أحوال النّاس.

ثالثا: إن النتائج المترتبة على إقامة هذا الحد أعظم من أن تعد وتحصى، لما تؤدّي من انتشار الأمن الذي يؤدّي إلى الرخاء، فعندما يكون المجتمع آمنا مطمئنا تزدهر الحياة وترتقي بالمجتمع لما يكون من الخدمات العامة من التعليم والصحة، وما يعود عليه من نفع في البيع والشراء والتجارة، فيعرف بذلك كل ذي حقّ حقّه، ويقف عند حدّه، فالحكم بالإضافة، الذي يقيم هذه الحدود، ويعرف النّاس بها، استحقّ أن يكون خليفة الله في الأرض لأنه وقف عند حدود الله تعالى الذي أمر بعدم الاقتراب منها، أو التجاوز عليها، حيث أكد الحكم عزّ وجلّ على ذلك في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}587 فهذه الحدود وضعها الله للناس وأمرهم بالمحافظة عليها ولا تقربوها لتتجاوزوا أوامرها، وقد أوسع الله في بيانها للناس على هذا النحو ليتقوها ويتجنبوا تبعاتها، وقرن الالتزام بها بالتقوى التي هي صفة خليفة الله في أرضه، فحُكم الحَكم أوجب حقّوقا للناس على بعضهم البعض، وأوجب حقّوقا له عزّ وجلّ، فحقّوق الحكم العدل منهي عن الاقتراب منها أو الاعتداء عليها كما جاء في قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}588 فأحكام الله المقررة، منع الحكم

---

587 البقرة 187

588 البقرة 229

العدل من أن تخالفوها أو تتجاوزوها لأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه وظالم للمجتمع الذي يعيش فيه.

وأمّا ما هو حقّ للعبد فإن الله قد ندب فيه إلى العفو والتجاوز في أمور أحكم تشريعها رحمة بالعباد كدية القتيل، ففي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}589 فالخطاب هنا من الحكم العدل بما أوجب الله تعالى على الخليفة وعلى من يجري مجراه ويقوم مقامه من إقامة القصاص في فرض استيفائه إذا أراد ولي الدم ذلك، فالقاتل العمد عليه تسليم نفسه عند مطالبة ولي المقتول بالقصاص، وذلك لأن القاتل ليس له أن يمتنع عن القصاص لكون ذلك حقّ من حقّوق العباد على بعضهم، وهو بخلاف الزّاني وشارب الخمر فانّ لهما الهرب من الحدود لكون ما عليهما من الحقّ هو حقّ الله تعالى، وهنا يتجلى أمر الحكم عزّ وجلّ بما شرع وأوصى خليفته به إذ أنه "من الشرائع التي فرضها على المؤمنين أحكام القتل العمد، فقد فرضنا عليكم القصاصَ بسبب القتل، ولا تأخذوا بظلم أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم إتباع هذا الحكم بالتسامح دون

589 البقرة 178

إجهاد للقاتل أو تعنيف، وعلى القاتل أداء الدين دون مماّطلة أو بخس، وفي حكم القتل الذي فرضناه على هذا الوجه تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى حكم التوراة الذي يوجب في القتل القصاص، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة"590. والحكم لعدله، شرع مع هذه العقوبة، الجنوح إلى العفو، فالعفو يكون من الولي، وهنا يبرز دور الخليفة كونه حكما بالإضافة، فعندما يجنح الولي إلى العفو يقوم الخليفة بإرضائه حقّنا للدماء وعدم إظهار الضغينة والكراهية، وأمّا الحكمة من الحكم في ذلك، فإن المظلوم هو المقتول وقد مات، والمطالب قد يتقدم بالشكوى التي يمشي بها إلى الخليفة الحكم بالإضافة رافعا على من ظلمه تلك المظلمة، فجعلت الدية كالإحسان لولي الدم لعل ذلك الشاكي إذا بلغه إحسانه لذوي رحمة يسكت عنه ولا يطالبه عند الله الحكم العدل بشيء من دمه يوم القيامة: "لأن الحُكم العدل يسكن الأصوات عن الله عزّ وجلّ، وإن الحُكم الجائر تكثر منه الشكاة إلى الله تعالى"591. مع أنّ من وراء ذلك هو رفع الأحقّاد، ونشر الرحمة بين العباد بما شرع الحكم من أمور، يحكم بها الخليفة، لأجل تخفيف هول الموقف يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الحكم العدل، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. والخلافة هي النيابة عن الغير لأكثر من سبب، فهي إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، فالأول والثاني يستحيلان على الله سبحانه وتعالى، وأمّا الوجه الثالث فهو تشريف الإنسان من الخالق عزّ وجلّ في خلافته في أرضه، وهذا

---

590 النخب، ج 1، ص 43

591 حلية الأولياء، ج 2، ص 171

استخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها، فجعله أهلا للتصرف النافذ الحكم في الأرض.

إن الله سبحانه وتعالى هو الحكم المطلق، استخلف خليفته في الأرض، فنهاه عن مناهٍ وأمره بأوامر، فمن أطاعه فيما نهى وأمر فهو الحكم بالإضافة، حيث أمره أن لا ينزل ما ولاه إياه من الأحكام في الدماء والفروج والأموال، عن منزلته العظمى من حقّوق الله المحرمة، وحرماته المعظمة، وبيناته المبينة في آياته المحكمة، وأن يجعل مخافة الحكم المطلق عزّ وجلّ، وشرائعه التي شرّعها في الفصل بين العباد قبلة لوجهه، وإليها يتوجه في الأمور كلها، وعليها يكون قطب الرحى فيما يرضى الحكم بما حكم، فيحكم بالحقّ ويقضي بالقسط، ولا يحكّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثارا لأمر الله عزّ وجلّ حيث يقول: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}592

فالحكم المطلق جعل الإنسان خليفة عنه في أرضه، وأمره بالحكم بين النّاس بما شرع له، فلا يسير في الحكم وراء الهوى، فيحيد بذلك عن سبيل الله، فالذين يحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عما أُمروا به في الدنيا فيجازيهم عليه في الآخرة. لذلك كان الحكم بالإضافة خليفة الله في أرضه بين عباده باتباع ما وجب عليه حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}593 وهذه دعوة من أجل

592 ص 26

593 المائدة 8

المحافظة التامة على أداء حقّوق الله، وتأدية الشهادة بين النّاس على وجهها الحقّ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على أن تجانبوا العدل معهم، بل يجب أن تلتزموا العدل والحقّ، فهو أقرب سبيل إلى خشية الله والبعد عن غضبه، واخشوا الله في كل أموركم، فإنّه عليم بكل ما تفعلون، ومجازيكم عليه.

والخليفة قد يكلف من يجد عنده الأهلية في أن يكون حكما، فيوجهه ويأمره بإعزاز أمر الله تعالى والشد على يد المخالفين في تنفيذ أحكامه وأقضيته، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض بالحقّ المفترض لله عزّ وجلّ، وكذلك يأمره بترك المجاملة والمحاباة لذي رحم وقربى، فالحكم لله ولخليفته في أرضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين للحقّ والعدل والحكم، والمتطاول عليه، والمباين عن الجماعة ومخالف لما هو عليه عامة النّاس حقّيق بالإذلال والرد إلى الصراط المستقيم، وكذلك يأمره بتقوى الله تعالى وأن لا يستحي من الحقّ فقد قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقّ}594 فالخليفة حاكم، والحاكم حكم بالإضافة، فإذا جلس للحكم بين النّاس، يعلم أن عليه أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية الواضحة للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه وأستاره، ويفتح لهم أبواب مجلسه وأبواب قلبه، ويحسن لهم انتصابه وهيأته، ويقسم بينهم لحظه وطرفه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته، ولا يردي فيها ضعيفا لضعفه، بل يميل مع الحقّ ويجنح إلى جهته، ولا يكون إلا مع الحقّ وفي كفته، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه، موقفه هو ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان الذي قال: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا

594 الأحزاب 53

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}595. إن من أركان الحُكم العادل الذي فرضه الحكم العدل، هو ركن الشهادة وتأديتها على وجهها حيث قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}596 لذلك وجب على الخليفة وهو الحكم بالإضافة، أن تتجلى أمامه صفات الحكم المطلق عند الفصل بين الخصوم من استدعاء الشهود والإدلاء بما يعرفون، وهو دون شك صاحب فراسة في الوقوف على الحقّ واليقين من سمات الوجوه، فينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافيا، ويسأل عن مذاهبهم في الحياة، وتقلبهم في سرهم وجهرهم، والجلي والخفي من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والنزاهة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحقّ، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى، أبقاه. وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى، وأن يطالع الخليفة بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين من الرد والقبول على المحجّة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، فيأمن في هذه السبيل كل خلل يداخله، إذ أن الشهادة أساس الأحكام، وإليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها أحقّ شيء بالإحكام حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والأقربين إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا}597 إن العدل هو نظام الوجود الكوني، وهو القانون الإلهي الذي سنّه الحكم المطلق من أجل خير الخلق ومصلحتهم بحيث لا يختلف عليه عاقلان،

---

595 آل عمران 30

596 البقرة 283

597 النساء 135

فالذين يذعنون للحكم العدل، ولدعوة خليفته، يكونون مراقبين لأنفسهم في الإذعان للعدل، ومراقبين للنّاس، في إنصاف المظلوم، ويكونون قائمين بالقسط لا لرغبة غني أو لعطف على فقير، لأنّ الله هو الذي جعل الغني غنيا والفقير فقيرا، وهو أولى بالنظر في حال الغني أو الفقير، ولأنّ الهوى هو الذي يميل بالنفس عن الحقّ فلا تتبعوه لتعدلوا، وإن تتولوا إقامة العدل أو تعرضوا عن إقامته فإن الله يعلم ما تعملون علما دقيقا، ويجازيكم بعملكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}598 فهذه صفات الحكم العدل يتصف بها الخليفة اتصافا نسبيا، ويعكسها أخلاقا على النّاس بحيث أنهم يتنزّهون عن شهادة الزور، وأنهم إذا وجدوا من إنسان ما لا يُحمد من قول أو فعل لم يشتركوا فيه، ويترفعوا بأنفسهم عن مثل هذه الأخلاق. ومن عدل الحكم ورحمة منه بعباده أنه قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}599 فهذه المحرمات التي بينها الله تعالى كونه حكما مطلقا، فينبغي أن تهتموا بها وتبتعدوا عنها لا تجعلوا لله شريكا في ملكه وحكمه وإرادته، بأي نوع كان من أنواع الشرك، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله مستقبلا، لأنكم لستم أنتم الرازقين، بل نحن الذين نرزقكم ونرزقهم، ولا تقربوا الزنا فهو من الأمور المتناهية في القبح، سواء منها ما ظهر للناس حين إتّيانه، وما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله

598 الفرقان 72

599 الأنعام 151

قتلها لعدم أمر موجب للقتل، إلا إذا كان القتل بحقّ تنفيذا لحكم القضاء. أمركم الله أمرا مؤكدا باجتناب هذه المنهيّات التي تقضى بديهة العقل بالبعد عنها، فالله سبحانه وتعالى لأنّه حكما قد حرم قتل قوم مشركين يكفرون بالله تعالى ويجعلون له الصاحبة والولد من اليهود والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأباح قتل مسلم فاضل قد تاب وأصلح لزنى سلف منه وهو محصن. والحكم جل شأنه جعل هذه الأمة أمة وسطا حيث قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس}600 لقد قضت مشيئة الحكم أن اختار أمّة من خلقه وهداها إلى الطريق الأقوام، وجعلها أمة عدولا خيارا بما وفقها إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكون مقررة الحقّ بالنسبة للشرائع السابقة، إنها الأمة الوسط التي تشهد على النّاس جميعا، فتقيم بينهم العدل والقسط, وتضع لهم الموازين والقيم، فتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وشعاراتهم، فتفصل في أمرها، فتقول هذا حقّ منها وهذا باطل، لا التي تتلقى من النّاس تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي شهيدة على النّاس، وفي مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على النّاس هكذا، فإن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كونه حكما بالإضافة، هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة. وبذلك تتحدّد حقّيقة هذه الأمة ووظيفتها لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حقّ قدرها، وتستعد له استعدادا لائقا، وإنها لَلأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

---

[600] البقرة 143

إنّ الله تعالى تقدست أسماؤه وجلت صفاته هو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تكن حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجرا عظيما، فهو الذي يفصل بين عباده بالحقّ يوم الفصل ليجازي الذي آمنوا أحسن ما عملوا، والذين كفروا لهم عذاب مقيم حيث قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ}601 فقد قضى الحكم عزّ وجلّ أن الذين خرجوا على العدل والإنصاف أنهم خالدون في النّار ما دامت السموات والأرض، لا يخرجون منها إلا في الوقت الذي يشاء الله إخراجهم فيه، ليعذبهم بنوع آخر من العذاب، وأمّا الذين رزقهم الله السعادة فيدخلون الجنّة خالدين فيها من أول لحظة، بعد انتهاء موقف الحساب إلى ما لا نهاية، ويعطي ربك هؤلاء السعداء في الجنّة عطاء عظيما مستديما، غير منقوص ولا مقطوع.

وربَّ قائل يقول إنّ الخلود لأهل الجنّة فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، فهذا من كرم الله سبحانه وتعالى، ولكن كيف يجوز على الله الحكم العدل أن يكون ذلك لأهل النّار حيث قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النّار وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}602 وقد علموا أنها لا تفنى أبدا فإن قيل كيف يجوز على الحكم العدل أن يعاقب على جرم منقض بعقوبة غير منقضية، قيل هو الجزاء على السواء، وكما أنه اقتصرت مدة أعمارهم على الكفر في دار الدنيا وهي حياة، وجب أن لا يقصر عنه العذاب مدة أعمارهم في

[601] هود 106 . 108

[602] المائدة 37

الآخرة، وهي حياة أيضا، وكذلك أهل الجنّة، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فقد تفضل الحكم على خلقه بأن جعل جزاء أعمالهم بخواتيمها، فبعزّته لقد أنصفنا وزادنا على النصف بهذا. لأنه من يكون كافرا جاحدا فإن التقدم في العمر والسن والتجربة تمنحه فرصة العودة إلى الهدى الصواب، ومن كان مؤمنا عاصيا يكون أمامه فرصة التوبة والإنابة، إن الله كان توابا رحيما.

وعليه كلّ شيء يُغيَّر يتغير إلا خلق الله ثابت، لذلك أرسل الله الرّسُل وأيدهم بالحكمة ليكونوا له من الشاكرين فقد آتى الله لقمان الحكمة حين جعله شاكرا في نفسه وحين جعله واعظا لغيره، وهذا لأن علو مرتبة الإنسان لا يكون كاملا في نفسه إلا وهو مكملا لغيره فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[603]، أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه الصّلاة والسّلام الذي فيه إرشاد الأباعد والأقارب، ثم إنه في الوعظ والحكمة

603 لقمان 13 . 19.

ذكر نتاج حكمته وما كان أساسا لها وما يصلح به أمر خلفائه في أرضه فأعطى زبدة ما توصل إليه وأهم عناصر هذه الوصية التي تكون سراجا ومنهاجا للخلفاء عامة في أرضه والتي تمثلت في الوصايا الآتية:

1- النهي عن الشراك: مصداقا لقوله تعالى: (يا بني لا تشرك بالله إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الشرك إثم والإثم ظلم، والظلم اعتداء في غير محله، وأكبر المظالم وأعظمها الشرك بالله وهذا الأمر في قاموس الخليفة وقيمه وفضائله منهي عنه، وكيف يصح الظلم والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كلّ أُنَاسٍ بِأمّامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأوّلئِكَ يَقْرءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْممّاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}604 وعليه فالشرك أن تجعل المعبود غير الخالق، والقاعدة تقول: (لا عبادة لغير الخالق) ولان الخالق واحد\ فلا ينبغي أن تشرك معه أحدا، ولهذا فإن أمر الشرك أمر عجاب مخالف للقاعدة التي تهدي للتي هي أقوم. ولو كان فيها أكثر من إله لفسدت السماوات والأرضين وانعدمت المغفرة والرحمة قال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ

604 الإسراء 70 . 75.

دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}605.

فالإشراك أن توضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}606، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أوّلئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ}607.

2- الشكر لله تعالى: مصداقا لقوله تعالى: (أَنِ اشْكُرْ لِي) وشكر الله لا يتم إلا اعترافا وإيمانا به واحد أحد لا شريك له فله الحمد والشكر على نعمائه وما خلق فينا من حسن خلق وما خلق لنا من نعم ظاهرة وباطنة إنه بنا رءوف رحيم. ولذا فمن الحكمة أن يشكر العبد ربّه عزّ وجلّ. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}608، وقال تعالى: {وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُل أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}609.

---

605 الأنبياء 19 . 24.

606 البقرة 39.

607 البقرة 161.

608 إبراهيم 7.

609 آل عمران 144، 145.

3 . طاعة الوالدين في غير معصية الله والشكر لهما: قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) جاء شكر الوالدين بعد شكر الله تعالى مباشرة، فـ(أن أشكر لي) تعود على شكر العبد لله تعالى، ولوالديك يكون الشكر التالي تقديرا للوالدين اللذين يسهران الليل ويكدان اليوم من أجل توفير حياة طيبة للأبناء، فحمل الأم لجنينها لا يكون إلا وهنا على وهن، وفي هذا الأمر مكابدة ومعاناة اللهم أرضا وأرضيهما عنا. قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرً}610 لذا فإنّ طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة وشكرهم على ما فعلوه وما يفعلون خير في ذاته فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عن هذه الطاعة وهذا الشكر الحميد. وفي هذا الأمر قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}611. وحرصا على احترام الوالدين فهما والدين حتى ولو كانا من غير المستخلفين فيها فهم والدين لهما الشكر والتقدير ولا طاعة لهما في معصية الله، قال تعالى: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

4 – إتباع سبيل الخليفة: وهذه جاءت نصا من قول الله تعالى: (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)، تعني خذ قدوتك الذي أطاعني (طاعة الله التامة) فإن أخذتها تهتدي إلى سبيل الرشاد المحمود، ثم جاء قوله تعالى:

610 الإسراء 23، 24.

611 إبراهيم 7.

(ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي بعد أن تتخذوا قدوتكم الحسنة الذين آمنوا بي واهتدوا إلى سبيل الحقّ، بعدها سيكون جزاؤكم عليَّ والضمير عائد على الله تعالى، ولهذا فمن اتَّبَعَ السبيل الذي يرضي الله يُتبَع سبيله.

وعليه فالخليفة يخلفه خليفة، وهذا هو السبيل الرشاد الذي يرتضيه الحكيم المطلق، وبهد الاهتداء (أخذ القدوة الحسنة) سيكون اللقاء بالمستخلفين بإتباع القدوة الحسنة، وحينها ينبئهم الله بما عملوا من سيئات وينبئهم بما غفر لهم، أي ينبئهم بأسباب المغفرة والتوبة وينبئهم بأسباب وجوب إتباع القدوة الحسنة الهادية للحقّ.

إذن (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) إتباع طاعة وإرادة واختيار وهذا الأمر يسترشد به بسلوك الرّسُل والأنبياء القدوة (المستخلفون الأوائل) صلوات الله وسلامه عليهم، ثم إتباع الصالحين والمصلحين الأفاضل، والطائعين العظام وهم المبشرين والمنذرين والمحرضين على فعل الخيرات والإكثار من الحسنات المؤمنين في يومهم وفي غدهم مع الوارثين.

5 ـ إدراك علم المستقبل والتنبيه إليه: قال تعالى: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، ينبه لقمان ابنه بأن لا يقصر نظره وتفكيره على رؤاه فقط بل يعلم أن خالق الكون هو مدبره، ولهذا فعليه أن يفكر حتى يتعظ، ولا يستغرب بحدوث ما لم يدركه، فخالق الكون حكيم عليم خبير، ولهذا لم يخلق كلّ شيء ووقف، إنه خلق ولا زال يخلق وهو على كلّ شيء قدير، وحتى حدود ما تم خلقه لن يكون جميعه بين أيدي البشر فهذا الأمر يتعلق بيد الله العليا، وليس بأيدي من لم يبلغوا الكمال. قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُهْتَدِينَ}612، وقال تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}613.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوّلَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}614. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}615.

6 – إقامة الصّلاة: تأكيدا على أهمية الطاعة لله تعالى أوصى لقمان ابنه بإقامة الصّلاة، وإقامة الصّلاة تعني: العمل بها والعمل على ترسيخها لدى الخلائف، وإقامة الصّلاة تعني أيضا المحافظة عليها طاعة لله قال تعالى: {وَأَقِمِ الصّلاة إِنَّ الصّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}616. يفهم من هذه الآية الكريمة إن الصّلاة فعل خير وعبادة خيرة ولذا فإقامتها طاعة لأمر الله، وطاعة الله تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك لأن إقامتها ذكر لله ومن يكون قضاء وقته في ذكر الله ليس لديه وقت للفحشاء والمنكر، ولهذا فإن ذكر الله أكبر والحمد لله.

612 الأنعام 56.

613 آل عمران 162 . 164.

614 الأحقّاف 13، 14.

615 البقرة 277.

616 العنكبوت 45.

قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصّلاة وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}617، وقال تعالى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصّلاة وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ أوّلئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}618.

ارتبطت إقامة الصّلاة بإيتاء الزكاة، والإيتاء لا يكون إلا ممّن يملك ويعطي دون منة ولا ينتظر مقابل إلا في مرضات الله، ولا يؤتي الزكاة إلا خليفة يؤمن بالأمر المطلق من الحكيم المطلق ويعمل على إظهاره، ولذا فالإيتاء فعل إرادي دون أيّة إكراه أو إجبار، وهو إظهار حقّ لصاحبّ حقّ، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}619.

7 – الأمر بالمعروف: قال لقمان يا بني وهو يوصيه بإقامة الصّلاة: (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) والأمر بالمعروف هو الأمر المحبّب المألوف لدى الخليفة، والأمر المألوف هو الأمر الذي يحتكم الخليفة به ويحتكم إليه، وهو نتاج القيم العرفية المتفق عليها برضاء النّاس عنها، ولهذا فالأمر المعروف ينال الرضاء والاتفاق ويحقّق اللحمة والوحدة بين من يتعلق الأمر بهم وهو يتفق بالتمام مع كلّ ما يرضي الله، ولهذا من الحكمة أن يأمر الخليفة بالمعروف ولا يأمر بمعصية ولا مكروه وبدعة يختلقها وهي لا تفيد العباد ولا ترضي الله تعالى.

---

617 البقرة 110.

618 النساء 162.

619 المائدة 55، 56.

قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}620. وقال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}621، وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}622.

وعليه من الحكمة أن يأمر بني آدم بالمعروف، وذلك فمن يأمر بغيره لا يطاع، ومن يأمر بما لا يطاع يأمر بمكروه، والمكروه رذيلة لا ينبغي أن تسود بين النّاس. قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}623.

8 ـ النهي عن المنكر: المنكر هو ما لا يطيقه ولا يقبله النّاس وينكروه لتعارضه من القيم والفضائل الحميدة التي ينبغي أن تسود بين المستخلفين فيها. ولذا فالنّهي عن المنكر نهي عن ممّارسة الفساد في الأرض التي قال فيها الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

---

620 آل عمران 104.

621 البقرة 263.

622 النساء 114، 115.

623 البقرة 231.

تبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}624، وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}625. إذن الإصلاح في الأرض المستخلفة بني آدم فيها هو العمل الصالح، والفساد وسفك الدماء فيها بغير حقّ هو المنكر المنهي عنه، فمن انتهى كان في طاعة الله الحكيم الخبير ومن عصى كان على المنكر الذي لا يرتضيه الخالق ولا المخلوق المستخلف في الأرض. وبطبيعة الحال من ينتهي فهو خيرا له قال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}626.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ}627. يستنبط من هذه الآيات الكريمة أن كثير من العمل المنكر الموقع للعداوة المنهي عنها هي أعمال شيطانية

624 الأعراف 24 . 26.

625 الأعراف 85.

626 الحشر 7.

627 المائدة 91 . 93.

فمن يتقي ربه تعالى لا يدخلها وينهى عنها ما استطاع إليه سبيلا، ويسعى إلى إصلاح كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى فساد في الأرض أو عداوة بين المستخلفين فيها، ولهذا النهي عن المنكرات عمل صالح يستوجب الإقدام عليه ولا يستوجب أي تأخير عنه. ولذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}628 وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}629.

9 . الصبر على المصاب: قال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) يقول الطبري في تفسيره: "وأنْهى النّاس عن معاصي الله ومواقعة محارمه واصبر على ما أصابك من النّاس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدّنك عن ذلك ما نالك منهم"630. إذن الصبر على المصيبة التي من أسبابها أنّك أقمت الصّلاة وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فإن هذا الصبر في مواجهة ما يلاقى في سبيل إحقّاق الحقّ هو صبر على خير وليس صبر على شر، فاصبر وما صبرك إلا بالله قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}631، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

---

628 فصلت، 64.

629 الجاثية 15.

630 تفسير الطبري مجلد 20، ص 142.

631 النحل 125 . 128.

يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}632، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}633.

الصبر قبول بما يُفعل حتى ولو كان لهذا الصبر ثمن، ولذلك فإنّ الصبر على الحقّ حقّ على من كان صابرا، وواجب على من اهتدى إلى الاستخلاف في الأرض والوراثة في الجنّة، وفي الصبر مسؤولية تجاه ما تم الإيمان به بأنه الحقّ المطلق، ولهذا فقبول دفع الثمن في محله يؤدّي إلى الفوز بالنتيجة المترتبة عليه وهي النتيجة المنتظرة أو المرتقبة.

10 . النهي عن تصعير الخد للناس: قال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) التصعير التفات، وتصعير الخد للناس يدل على عدم احترامهم، ولهذا فيه من التكبر الذي هو معيب ولا ينبغي أن يكون سلوكا في المعاملة بين النّاس، إنه تقليل من شأن وتنقيص من مكانة بني آدم الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، وأرادهم أن يكونوا كذلك بإصلاح الأرض وفلاحها ونهاهم عن الإفساد فيها، ولهذا فقد نهى الله عنه كما جاء على لسان لقمان وهو يعظ ابنه إلى ما يجب أن يكون عليه، وفي هذا الأمر تكون القدوة الحسنة بالتواضع للناس لا بالتكبر عليهم، ولأن في تصعير الخد التفات وعدم مبالاة وإهمال لمن صُعِرَ الخد من أجله، ولأن الله كرَّم بني آدم في البر والبحر، ولأن الله استخلف الإنسان في الأرض ويريده أن يعمل صالحا فيها حتى يرث الجنّة، فإن هذه المكارم تستوجب التفات وانتباه واهتمام لا تستوجب تقيل من شأن من كرَّمه الله وحملهم في البر والبحر مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

632 الأقحاف 35.

633 طه 130.

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كلّ أُنَاسٍ بِأمّامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأوّلئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْممّاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}634، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}635.

11 . النهي عن المشي في الأرض مرحا: مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ كلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) المشي في الأرض مرحا، سوء تقدير لما يجب عليه أن يكون المشي، وبالتالي سوء التقدير مخالفة تلفت الانتباه وقد تحسس الآخرين بالقلق أو تخيفهم ممن يمشي مرحا وكأنه المالك الوحيد للأرض، وهذه معيبة منهي عنها، وهي د\ليل عدم الاتزان الحركي وقد تكون بأسباب عدم الاتزان العقلي، ولهذا فهي تدل على أن أسباب غامضة وراء السلوك المتحرك بغير اتزان وتقدير، ولذا فالمخافة تتولد في نفوس المشاهدين للمارح في الأرض بغير تقدير موضوعي.

---

634 الإسراء 70 . 75.

635 الكهف 28، 29.

وفي تفسير ابن عبد السّلام: "(مُخْتَالٍ) منان، أو متكبر، أو بطر. (فَخُورٍ) متطاول على النّاس بنفسه، أو مفتخر عليهم بما يصفه من مناقبه، أو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى فيما أعطاه"636.

إذن المشي المرح في الأرض فيه تكبُّر وتطاول على الآخرين، فالله يحبّ المتواضعين ولا يحبّ المتكبرين الذين يمشون في الأرض مرحا دون أن يحترموا النّاس الذين يمشون عليها هونا وفقا لما هو مأمور به.

وعليه أوصى لقمان ابنه بالتواضع والاتزان والاعتدال على الأرض التي استخلفه الله فيها بحكمته وخبرته. قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}637.

الحكمة من عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. ولذلك يخشى لقمان من أمرين أحدهما: التكبر على الغير، والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملا في نفسه فقال: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) تكبرا (وَلاَ تَمْشِ في الأرض مَرَحًا) تبخترا (إِنَّ الله لاَ يُحِبّ كلّ مُخْتَالٍ) يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى النّاس عظمة نفسه وهو التكبر (فَخُورٌ) يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أَقِمِ الصّلاة) ثم قال: (وَأْمُرْ بالمعروف) وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ) ثم قال: (وَلاَ تَمْشِ في الأرض مَرَحًا).

---

636 تفسير ابن عبد السلام، مجلد 4، ص 477.

637 الإسراء 37، 38.

12 ـ القصد في المشي: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) والقصد في المشي اتزان واعتدال به ينال الماشي تقدير المشاهد واحترامه، وهو توسط واعتدال في مرضات الله تعالى.

والقصد مفضل في الأمور كلّها: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أي كن وسطا بين الطّرفين المذمومين، وقال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كلّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}638، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كلّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}639، وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}640.

وعليه القصد في المشي يبقي السّلامة ويبلغ الغايات، وعدم القصد فيه لا يطول بالمشوار، ولذا في القصد هداية واتزان، وفي المبالغة مظهرية لا تليق بالسلوك الإنساني، وهذا لا يعني زمن الأوقات المقطوعة لممّارسة الرياضة، التي تقوي العضلات وتسهم في متانة البنية وسلامتها من الأمراض، ولأن لنفسك عليك حقّ فأعط نفسك حقّها من ممّارسة المناشط في أمّاكنها الخاصة بها، حتى تقدر من الآخرين، وأمشي متزنا معتدلا مقتصدا حتى لا تكون في دائرة النقد نشاز.

13 ـ غض الصوت: قال تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) ويقصد بإغضاض الصوت: تلطيفه بما يليق

---

638 لقمان 32.

639 الإسراء 29، 30.

640 فاطر 32.

أن يكون الحديث، وعدم رفعه بما يزعج المستمعين، ولذا فقوله تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) تعني أنقصه حتى يتلاءم مع ما يليق بالاستماع المفضل. ومع أنَّ الحمير من حيوانات الزينة والركوب مصداقا لقوله تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}641 إلا أن صوتها من أنكر الأصوات، ولأنّها لا تعقل فهي لا تقدر المستمع من يكون، ولهذا فصوتها الذي به لا يقدر الآخرون صوت مزعج منكور.

وغض الصوت يعتبر من باب العمل بالمكارم، وقد يتساءل البعض: هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ فنقول: نعم، سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلّام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد، ولا يعلمه أحد وقوله: (واقصد في مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ) إشارة إلى المكارم، ثم قال تعالى: (إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير) ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي، لأن رفع الصوت يؤذي السامع وأمّا السرعة في المشي فلا تؤذيه وإن كانت تضيق بالنفس لدى بعض المشاهدين ولهذا كان النهي.

4 . مؤمن:

قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}642 أي: أنّ قوم إبراهيم – عليه السّلام – ظلوا على كفرهم، والذي آمن به لوط عليه السّلام، وكان ابن أخيه، وكانوا في العراق، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام.

641 النحل 8.

642 - العنكبوت 26.

وكلّمة (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) حين نتتبع كلّمة آمن في القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء، لكنها تختلف في المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابي، فهنا (فَآمَنَ لَهُ) وهل يؤمن لوط لإبراهيم؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق (فَآمَنَ لَهُ) فلابدّ أنّ المعنى مختلف، ولا يقصد هنا الإيمان بالله.

ومعنى (آمن) هنا كما في قوله تعالى عن قريش: {وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}643؛ فالفعل هنا مُتعدٍّ، فالذي آمن الله، آمن قريشا من الخوف. وكذلك في قوله تعالى: {قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}644، ومعنى (فَآمَنَ لَهُ)، أي: صدقه.

ومنه قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}645 أي: بمصدِّق، أمّا آمنت بالله: اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه.

ولوط لا يصدق بإبراهيم إلا إذا كان مؤمنا بالذي أرسله، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصّة لوط عليه السّلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه، إنما جاء ذكره هنا؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه646.

والمؤمن المطلق هو الله تعالى والمؤمن بالإضافة على مستويات:

---

643 - قريش 4.

644 - يوسف 64.

645 - يوسف 17.

646 - تفسير شعراوي، ج 1، ص 3293.

المستوى الأوّل: إيمان الأنبياء والرّسُل وهم الذين آمنوا بالله وأمره ونهيه وآمنوا ببعضهم سواء إيمان السابقين أم إيمان اللاحقّين، فآدم إيمانه بالرّسُل من بعده إيمان سابق على وجودهم أنبياء ورُسُل على النبأ والبيِّنة، وإيمان إل ياسين إيمان بسابق وإيمان بلاحقّ (إيمان بمن سبقوه وبمن سيأتي من بعده)، وإيمان محمّد إيمان بالسابقين دون تخصيص لأحدٍ منهم.

المستوى الثاني: إيمان المؤمنين الذين منهم من آمن بالله وأشرك معه الولد وروح القدس ولم يؤمن بالنبي الرّسول الخاتم، أمّا المؤمنون الذين أسلموا لله ربّ العالمين مع محمّد فهم المؤمنون الذين يؤمنون بمحمّد وبكلّ من سبقه من أنبياء ورُسُل سواء أقصصهم الله أم لم يقصصهم فهم جميعهم يصلّى المؤمن ويسلِّم عليهم.

المستوى الثالث: الإيمان بما خلق من ملائكة وجن وإنس وطير وسمك ونبات وسماوات وأرضين وبعث وحِساب وثواب وعقاب وجنَّة ونار وبكلّ ما أمر الإيمان به في كتابه الحكيم الرسالة الخاتمة للناس كافة.

ولذا؛ فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيِّز للظن فيه، قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}647. جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها، ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسّلام، وببلوغهم إياها يوثِقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}648. أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه.

647 البقرة 125.

648 الدخان 51.

والإيمان خير، فالمؤمن هو الخيّر، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}649 فقوله تعالى (فآمنوا خيرا لكم) دليل إثبات أنّ الإيمان هو الخير في ذاته ولهذا ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

ولذا؛ فإنّ اسم المؤمن هو الأصل، وما يشتق منه تابع له، فالمؤمن بالإضافة مستمدّ من المؤمن الحقّ، وهو في هذه الحالة متماثل في اشتقاقه صفة مع اشتقاق صفة الأمّانة والأمن والأمّان من اسمه.

والمؤمن هو الواثق من قول الله تعالى، وبوثوقه تطمئن نفسه بالقرآن كلّمة ومعني وآية، أمّا أوّلئك الكفرة والمشركين فلا يتمكنون من تدبر القرآن ومن لم يتمكن من ذلك لا يدرك إعجازه الذي به تطمئن الأنفس وتثق في قول الله عزّ وجلّ.

ولكن المؤمن الواثق من المانع هو على يقين أنّ كلّ ما قُدّر عليه خير من الله تعالى فيرضى به ويقنع لثقته برحمة وحبّ المولى عزّ وجلّ له، وهو بذلك يمنع نفسه من الشكّ والتحسر والندم، عن عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كلّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شكَّرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"650، فالمنع والعطاء إذا وصلا إلى مفهوم الإنسان وأحسن فهمها استحقّ بذلك رضا المولى عزّ وجلّ وحبّه لأنّ الإنسان لابدّ أن يكون شاكرا في حالة العطاء وصابرا حامدا في حالة المنع.

---

649 النساء 170.

650 صحيح مسلم، ج 14، ص 280.

ولأنّ بعض النعم لا تُنال إلا بالصبر إذا منعها الله على العباد وحرمها عليهم لتكون لهم حلال في الدار الآخرة، ولهذا نجد في منع الله تعالى لبعض النعم على البشر في الدنيا تأخيرا وادخارا لخير قد كتبه الله تعالى لهم في الآخرة كجزاء لهؤلاء على صبرهم وإيمانهم، فتأخير كلّ هذه النعم بمنعها عن المؤمن في الدنيا إنما هو تأخير خير وثواب ليكون سرورا وفرحا له في آخرته، فالمفاجأة أروع من الواقع والانتظار يزيد الشوق واللهفة أكثر من سرعة حصولها، ووعد الله تعالى لعباده الصالحين بكلّ ذلك النعيم إنما هو عطاء مؤخر في الدنيا يمنعه عنهم فيها لأنه يستحيل الخلود في الدنيا فيكون هذا العطاء زائل، أمّا تأخير هذا العطاء لهم في الآخرة فليكون هذا النعيم دائم لهم لا يزول لأن في الآخرة حياة خلد في الجنّة. ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوّة والمتانة والقدرة والعزة والغنى. وقد تجلى ذلك في عقاب الأمم السابقة، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}651. هذه

651 - هود 74 - 81

الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم صلّى الله عليه وسلّم، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين، فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}652 هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقّق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}653، وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}654. أمّا قوم يونس عليه الصّلاة والسّلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}655 إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصّلاة والسّلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كلّ بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحا، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم

652 - هود 76

653 - هود 82 - 83

654 - الحجر 74 - 75

655 - يونس 98

لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.656 فصورة العذاب المتحقّقة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحقّقة عند قوم يونس، ممّا يدلل في كلّا الأمرين أن أمر الله تعالى نافذ كما يشاء في تحقّيق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له.

5. منجى:

دعا لوط عليه الصّلاة والسّلام الله تعالى بعد أن يأس من استجابة قومه لدعوته، فقال: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}657 لم يملك لوط عليه السّلام أمّام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلّا أنّ يدعو ربه بالنجاة له ولأهله، ذلك أن:

الصد.

الرفض.

والإنكار.

استشرى الفساد بين قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام فلم يجد له حدا يقف عنده، كما لم تنفع كلّ الوسائل التي سلكها نبي الله في إصلاحهم ممّا هم فيه من رذيلة لم تتحقّق فيما سبقهم، إذ يقول تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}658، كانت النهاية قد أشرفت فبدايتها كانت بدعوة لوط

656 - الدر المنثور، ج 5، ص 269

657 - الشعراء 169.

658 - العنكبوت 28 – 29.

صلّى الله عليه وسلّم، {قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}659، وكذلك قوله تعالى: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}660.

إنّ النبي لوط عليه الصّلاة والسّلام بعد أن ابلغ قومه رسالته ربه ونصحهم، لم تكن نهايتهم بما جاءت به الرسالة من الثواب الجزيل والرّحمة والمغفرة، بل كانت نهايتهم وفق اختيارهم الذي أرادوه، فكان عاقبتهم الخسران والعذاب الأليم.

إنّ النهاية يكون فيها طرفان:

طرف خاسر وهو من حقّت عليه العقوبة.

طرف ناج وهو من أصبح خارج دائرة العذاب الواقع، كي يرى من خلاله:

1. رحمة الله تعالى.

2. مصداق وعد الله تعالى لعباده.

3. نصر المصلحين على الفاسقين.

4. عظمة ربّ العزّة وقدرته.

وكان لوط عليه الصّلاة والسّلام من بين الناجين، إذ يقول تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}661 وقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

659 - العنكبوت 30.

660 - الشعراء 169.

661 - الأعراف 83 – 84.

كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}662.

لقد أنجّى الله لوطا والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلا من تلك المدينة ـ أو القرية ـ فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعا في ديارهم، وقد عبّر القرآن الكريم عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: (ثمّ دمرنا الآخرين) ولم يكف ذلك بل {وأمطرنا عليهم مطرا} وأيّ مطر! إنّه وابل من أحجار نزل على تلك البيوت ليمحو أثرها من الأنظار. {فساء مطر المنذرين}، والأمطار عادة تمنح الحياة، إلاّ أن هذا المطر كان موحشا مهلكا مخرّبا.

إنّ العقوبة التي تحقّقت على قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام اجتثت الفساد من جذوره ومشى ركب الناجين والمنجى صوب أرض جديدة بعد أن لم يتحقّق الإصلاح المرجو من قوم أمسكوا بالرذيلة وكأنها هي حياتهم التي لا يستطيعون الانفكاك عنها، فالناجون غادروا أرض الفاسقين يقودهم (المنجى) لوط عليه الصّلاة والسّلام في مسير قُدر له أن يكون خالدا إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فقد كمن فيه:

رسالة الخلاص التي أرادت أن تغير الفساق لكنهم حزموا أمرهم بالبقاء بما هم عليه من رذيلة.

---

662 - العنكبوت 31 – 35.

إنّ النجاة هي للمصلحين وليس لغيرهم.

إنّ الحياة لابدّ لها من نهاية وهذه النهاية يكمن فيها اختيار النّاس أنى اختاروا.

المنجى سيكون شاهدا عليهم يوم القيامة ويذكرهم بما قاله فتسقط كلّ حججهم التي يريدون قولها إن كانت لهم حجج.

6 . عبد:

قال الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النّار مَعَ الدَّاخِلِينَ}663 وصف الله تعالى نوح ولوط عليهما الصّلاة والسّلام في هذه الآية الكريمة بالعبد، "وإظهار العبدين المراد بهما نوح ولوط لتعظيمهما بالإضافة التشريفية إلى ضمير التعظيم والوصف بالصلاح وإلا فيكفي أن يقول تحتهما وفيه بيان شرف العبودية والصلاح"664، فضلا عن ذلك فيه "إظهار للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عنده إلا بالصلاح"665.

وهذا الشرف أيضا ذكره الله تعالى عن النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى:{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}666، وحادثة الإسراء والمعراج من الحوادث المهمة التي شهدتها دعوة رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذ دخلت

663 - التحريم 10.

664 - تفسير حقّي، ج 15، ص 429.

665 - تفسير الرازي، ج 15، ص 390.

666 - الإسراء 1.

سلم التشكّيل الدعوي فطرحت أمرا مغايرا لم يطرحه باقي الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فكان مدعاة للتساؤل على مختلف الأصعدة ومختلف العقول التي تتحرى عن هذا الأمر ضمن تساؤلات عدة منها ما يرتقي إلى هذه الحادثة، ومنها من ينزل إلى درجة الانحدار الكلّي فلا يجد له أي تبريرا سوى انه تساؤلا مفتعل ليس إلا. وحادثة الإسراء لا تخضع لقانون البشر في كلّ المقاييس، ذلك أنها أمر لا يمكن تحقّقه بأية معيارية، ولهذا كان تقبل الأمر من قبل النّاس جميعا بشكلّ متفاوت، فالمؤمنون لا ينكرون أي شيء يقوله الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أمّا المشركون فهم بطبيعة الحال ينكرون هذا الأمر إذ ما أدخلوه ضمن مقاييس الزّمن والتحقّق.

والقرآن الكريم عندما ذكر هذا الأمر العظيم ذكر الرّسول الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام بالقول (بِعَبْدِهِ) وهذا من باب التشريف. لأنّه صادق العبودية لله، وما دام هو عبده فقد أخلص في عبوديته لربه، فاستحقّ أن يكون له ميزة وخصوصية عن غيره، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقّه رسوله بما حقّق من عبودية لله.

وفرق بين العبودية لله والعبودية للبشر، فالعبودية لله عز وشرف يأخذ بها العبد خير سيده، وقال الشاعر:

وممّا زادني شرفا وعزا... وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي... وأن صيرت أحمد لي نبيا

أمّا عبودية البشر للبشر فنقص ومذلة وهوان، حيث يأخذ السيد خير عبده، ويحرمه ثمره كده.

لذلك فالمتتبع لآيات القرآن يجد أنّ العبودية لا تأتي إلا في المواقف العظيمة667.

والعبد هو الطائع المهتدي للتي هي أحسن، ولأنه عبد فله معبود يعبده واحد أحد دون أن يشرك به أحدا.

وعلى المستوى الإيماني فالإنسان لا يعبد إلا الله عزّ وجلّ، وعلى المستوى غير الإيماني البعض يشرك بالله المعبود الواحد الأحد، والبعض الآخر يكفر به، وفي كلّا الحالتين لا ربَّ بالمطلق إلا الخالق المطلق الذي يستوجب العبادة وإن أشرك وكفر من أشرك وكفر، فهو الله.

ولأنّ المتيقّنين يدركونه واحدا أحدا؛ فهم لا يلتجئون في دعائهم وسؤالهم وطلبهم مباشرة إلا إليه، ولذا فمن آمن بأنه عبد الله كما آمن لوط عليه الصّلاة والسّلام الذي قال الله عنه بأنه (عبد) فلابدّ وان تكون له المقامات العظام.

ولأنّ لوط عبد الله فهو الرافض لأي ربٍّ من دونه، وهكذا حال الأنبياء والرّسُل؛ فهم جميعهم عبيد الله أي أنّهم الذين يؤمنون بربوبيته فلا يرشدون لربٍّ غيره، ولا يرتضون للعباد أن يتخذوا من دونه أربابا، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}668.

ولأنّ لوط عليه الصّلاة والسّلام مؤتي النبوّة؛ فهو يعلم علم اليقين أنّه لا عبودية لأحدٍ على أحد، بل العبودية لله وحده، قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا

667 – تفسير الشعراوي، ج 1، ص 5084.

668 آل عمران 64.

عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}669.

ولذلك، من يقول للآخرين كونوا عبادا لي من دون الله فقد كفر، ومن يؤلّه ربًّا غير الله فقد كفر، مصداقا لقول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}670.

7 – عليم:

يقول تعالى: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}671، أتى الله سبحانه وتعالى لوط عليه الصّلاة والسّلام العلم، وهذا العلم علم نافع يتعلق بأمور الدين وقواعد الشرع والملة والتنوين في {عِلْمًا} هو للتعظيم، ذلك أن هذا العلم علم تتجلى فيه كلّ ما يتعلق بالدعوة التي يريدها الله تعالى أن تكون في قوم لوط من:

التقوى.

إصلاح ما فسد من أخلاق القوم.

إنّ كلّ الرسالات السماوية جاءت لكي تصحح ما انحرف وتعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فالانحراف الذي وقع يجب أن يقوّم وهذه

669 آل عمران 79، 80.

670 التوبة 30، 31.

671 – الأنبياء 74.

هي مهمة الرّسول المرسل، ذلك أن القول بالإصلاح يدلل على وجود تغيير حاصل خرج عن نواميس الحياة التي أقرها الله تعالى، فالعودة إلى تلك النواميس يتطلب مراجعة فعلية لكلّ الأنساق التي يقف عندها الخروج، وهنا تكمن عملية الإصلاح، لانّ تحديد الأمر المراد إصلاحه هو البداية لخلق إشارة البحث عن وجود الخطأ، فدعوة لوط عليه الصّلاة والسّلام قد سلكت أكثر من مسلك، فطرح الأمور على حقّيقتها وتبيان ما فيها من أوجه يتمثل فيها الخروج السافر عن أوامر الله تعالى ونواهيه، هذا من جانب، ومن جانب آخر هذه العقول لابدّ من زجرها والوصول بها إلى جادة الصواب كي يتحقّق الخلاص الذي هو رسالة كلّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

إنّ دعوة الله تعالى تجري وفق نمط التغيير الذي يجعل الأمور تسير وفق عملية قلب لكلّ ما هو حاصل، فترك الواقع بما عليه من خروج عن سنن الله تعالى يبدد العدالة التي يريدها الله سبحانه، فهو العدل، والعدل: قيمة بينيَّة تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. لذا فهي قول حقّ وفعل حقّ.

ولهذا، كانت رسالة لوط عليه الصّلاة والسّلام رسالة إنقاذ للقوم الذين أُرسل إليهم، فقد تغلغلت فيهم الفاحشة ما سبقها بها أحد من العالمين، يقول تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}672، وهذه الرسالة فيها دروس وعبر لكلّ الأقوام والأمم

672 - العنكبوت 28 – 30.

التي ستأتي بعده صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن البشرية يحتاجون إلى مصلح يأخذ بيدهم نحو الخلاص، فالنسق البشري لا يجري على وتيرة واحدة بل هو متغير بين:

الخير.

الشر.

ولهذا، جاءت الرسالات السماوية كي تصحح ما انحرف، وتعيد الأمور إلى ما يرضي الله تعالى، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}673 ولو لم يُكذَّب الرّسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إلى قومه، وما جاء الرّسول إلا بعد أن استشرى الباطل، وعم الطغيان، فطبيعي أن يكذب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكلّ قواهم، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجيء الرّسُل، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة 674.

وعلم لوط عليه الصّلاة والسّلام مستمد من العليم، والعليم اسم من أسماء الله الحسنى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقّه نسيان، العلم الواسع المحيط بكلّ شيء جملة وتفصيلا سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله.

قال تعالى: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}675، فعُلم العليم محيط بكلّ شيء لأنّه خالق كلّ شيء فهو

---

673 – المؤمنون 44.

674 – تفسير شعراوي، ج 1، ص 6175.

675 طه 52.

أعلم به، ولأنّه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك، ومن انتفت عنه هذه الصفات امتلك العلم التام المطلق، فعلى الخليفة أن يكون عارفا عالما يحيط من حوله يعرف عنهم دقائق الأمور، يسعى للذكرى وعدم النسيان والانتباه وعدم السهو لأن هذه الصفات هي ما تجعله عليما بالإضافة.

ولذا؛ فمن مهمة الخليفة أن يسعى بكلّ جهده وأساليبه الأخلاقية إلى إظهار علم الله الذي أظهره عليه ليكون بين النّاس ألفة ومحبّة وعملا صالحا يرضاه. ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقِط العالم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرّسُل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض على القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ طاعة لأمر الله تعالى، {الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}676. ولذلك، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحقّ والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحقّ ويتبينوه من الباطل. قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أوّلو الْأَلْبَابِ}677.

676 الملك، 26.

677 الزمر، 9.

ومع أنَّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أنّ العبد المؤمن هو الذي دائما يذكر ربه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا؛ فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ بالحلال لا بالحرام، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربه ومأكلّه ومركوبه، وفي الحديث: (فمن غشنا ليس منا) أي؛ لا ينبغي أن تغش بما عرفت من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذى البشر، ولا تغش الدواء الذي به يعالجون أمراضهم ومرضاهم، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر الخلق والخلائق، فالعلم النافع هو الذي ينفع النّاس ولا يضرهم، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإنّ هذا العلم لا يعد بالعلم الحقّ، إنّه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحقّ النافع.

ومع أنَّ الخليفة يسعى دائما لأن يستمد صفة العلم من العليم الحكيم، إلا أنّه يعلم ويؤمن بأنَّ ما أُتيه أو سيؤتيه من علم لم يكن إلا قليلا، مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}678.

والعليم المطلق هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه، ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم، فالعليم هو السابق على كلّ سابق ولا سابق عليه، وهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي يَنهي ولا يُنهى.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما ألَمَّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعالم المؤقت الذي أظهره عليه العليم المطلق كما هو حال الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي

678 الإسراء، 85.

أظهره لهم الرّسُل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

والعليم بالإضافة هو الملِم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال يوسف عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}679. ولأنّ أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أنّ المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف عليه الصّلاة والسّلام خير مُفسر للأحاديث، التي علمه العليم تأويلها. وقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يقصد بالنعمة النبوّة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

وفي قوله (إنَّ ربك عليم حكيم) فهي تدل على علمه وحكمته من وراء العلم الذي أظهره الله ليوسف والنبوّة التي أتمها عليه كما أتمها من قبل على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

---

679 يوسف، 6.

وفي آية أخرى يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}680. فإذا نظرنا لخاتمة هذه الآية (ولكنَّ أكثر النّاس لا يعلمون) نلاحظ أنّ العلم الذي علَّمه الله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصَّ الله به يوسف ليظهره للمستهدفين به من قومه، وليبقى من بعده آية تروى مع قصص الأنبياء.

8 . مُفضَّل:

قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}681، إنّ درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأَوّلئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أوّلئِكَ رَفِيقًا}682؛ فيكون لوط عليه الصّلاة والسّلام من المفضَّلين683.

والمفضَّل هو الذي تميَّز بما تميَّز به عن غيره في المقارنة فكان الخيار عليه من دونهم، ولهذا كان سيدنا لوط من المفضَّلين على العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}684.

وفي اللغة الفَضْل والفَضِيلة "معروف ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصة والجمع فُضُول، وفاضَلَني ففَضَلْته أَفْضُلُه فَضْلا غلبته بالفَضْل وكنت أَفضَل منه

680 يوسف، 21.

681 – الأنعام 86.

682 – النساء 69.

683 – تفسير السعدي، ج 1، ص 263.

684 الأنعام 86 . 88.

وتَفَضَّل عليه تَميَّز، والتفضيل تقديم لمن هو على الفضيلة على غيره من الذين لا فضيلة لهم، وتفَضَّل بمعنى أَناله من فضله وأَحسن إِليه والإِفْضال الإِحسان، ورجل مِفْضال كثير الفَضْل والخير والمعروف"685.

والفضل يؤتي من الله إيتاء لمن يشاء من عباده الصالحين، لذا، كان تفضيل لوط عليه الصّلاة والسّلام مؤسس على الفضل المؤتى إيتاء، {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}686، هذا التفضيل لم تكن بدايته من لوط بل أمر التفضيل كان من آباءهم من قبلهم (وَكلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) واستمر من بعدهم أيضا في أبناءهم وإخوانهم الذين تم اجتبائهم رُسُل كرام، قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}687. قوله (سَابِقُوا) جاءت للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها النّاس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) توجب لكم نيل المغفرة منه وتحقّق لكم الفوز بالجنّة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله عليهم الصّلاة والسّلام (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنّة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنّة هما الفضل من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء

685 لسان العرب، ج 11، ص 254.

686 - الأنعام 86 – 87.

687 الحديد 21.

ولهذا الجنّة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}688.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}689.

الذين آمنوا هم من أهل الكتاب الذين يُراد لهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمّد كما آمنوا من قبله بموسى وعيسى صلّى الله عليهم وسلَّم، فإن آمنوا يضاعف لهم الثواب (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) الكفل الأوّل بسبب إيمانكم بموسى وعيسى والكفل الثاني بسبب إيمانكم بمحمّد صلّى الله عليهما وسلَّم وكذلك يدل معنى الكفلين من بين ما يدل عليه هو فوزكم في الدارين حيث طاعة الله واتباع الرّسُل دون تفريق بينهم في الحياة الدنيا ثم الفوز بالجنّة في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) وهذا النور هو من فضله تعالى الذي يؤتيه لمن يشاء متى ما شاء وكيفما شاء، إنَّه نور الهداية واليقين والطاعة واتباع الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنه النور الذي يُمكِّن المؤمن من دخول الجنّة ليزداد المؤمن نورا على نور، وهذا النور كان بأسباب الإيمان والطاعة والمغفرة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، إي؛ يغفر لكم من بيده أمر المغفرة فهو على كلّ شيء قدير.

وقوله تعالى: (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء متى ما يشاء

688 فصلت 35.

689 الحديد 28، 29.

كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك ولذا فهو ذو الفضل العظيم، وليعلم أهل الكتاب أنّ الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمّد وأمته لتكون الرسالة خاتمة وللناس كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتبعوا السبيل الحقّ الذي جاء به محمّد نبيا ورسولا.

وقوله تعالى: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}690. كلّ مسلم بالحقّ لا يشكّ في أنَّ الفضل بيد الله ولهذا يتوجَّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة وكلّ مؤمن على الحقّ يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو.

قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}691.

من فضل الله على عباده بعث محمّد عليه الصّلاة والسّلام في الأميين رسولا منهم، ومن فضله تعالى أن محمّد عليه الصّلاة والسّلام يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة نقول بحقّ أن هذا لهو الفضل العظيم فالذين كانوا في الضلال أصبحوا على الهداية مؤمنين بالله ورُسُله وكتبه، قال تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ

690 الحديد 29.

691 الجمعة 1 . 4.

رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}692، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}693.

وعليه: كلّ ما تقدم هو من فضل الله على عباده الذين أخصهم بالعناية والهداية (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

الله الذي بيده الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليتصدَّق ويتزكّى وينفق كلّ حسب استطاعته وما يملك من رزقٍ، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من فضل الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتى من عند الله فليتق الإنسان ربَّه ولينفق ممّا آته من رزقه، قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ}694.

ولذلك، علاقة قوية في المفهوم بين الفضل والرزق والعزة فهي كلّها تؤتى من ذي الفضل إيتاء، ولذا فالعزة فضل ورفعة لا تُستمد إلا من رفيع يمتلك القوّة الساندة والداعمة، والقوّة مدد تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

---

692 البقرة 2.

693 النساء 136.

694 الطلاق 7.

وخاطب الله النّاس بقوّته وعزّتهِ ليُبيّنَ لهم أنه ذو الفضل، ولا متصف بالقوّة والعزة بالمطلق غيره فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}695 فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفا وهو القادر على كلّ فعل، فإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون فالأمر عليه يسير، إنَّه المالك للقوّة والعزة والفضل، والمؤمن هو المدرك الذي لا يعبد ضعيفا، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء إن داعٍ دعاها، وهي ضعيفة معرضة للزوال، ولهذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفا، ولا يعتقد في القوي إلا قويّا.

وبما أنّ الله ذو الفضل فهو بفضله جعل الإنسان خليفة في أرضه الذي قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}696.

إذا الخليفة قوي عزيز بالإضافة، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه، والصفات قوّة تربط الصفة بالموصوف كما تربط الخليفة بمستخلفه؛ فالله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه، وأجل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبّة وألفة وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة وعلاقات ضمير، ليكون خليفة مُصلحا في الأرض. ومن يفسد فيها من بني الإنسان يعد مخلا بشروط استخلافه فيها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ

695 الحج 74.

696 البقرة 30.

الْحِسَابِ}697 لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء والصالحين وملَّكهُ الله من مُلكه ليحكم بالحقّ. والحكم بالحقّ، هو: الحكم بالبينة، أي بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه، ولا ميل وانحياز، والحكم بالحقّ الحكم بما أمر الله تعالى، لا بالمزاج والعاطفة الشخصانية، بل بالعدل الحقّ، ومن يحكم بما أنزل الله لا يمكن أن يكون مثل أوّلئك المفسدين في الأرض؛ فأوّلئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}698 لا يمكن المساواة فالمصلحون في الأرض لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها، وهكذا لا يمكن مساواة المتَّقين الذين آمنوا بالله ورسوله مع أوّلئك الكفرة الفجرة. المساواة في هذه الحالة ظلم كبير، لا يرتضيه الله ولا يرتضيه العباد، {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}699.

9. قالٍ:

جاء الرّسول لوط عليه الصّلاة والسّلام برسالة الله إلى قومه ليواجه الانحراف الأخلاقي الذي استشرى بينهم، إذ يقول تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}700 أراد لوط عليه الصّلاة والسّلام أن يعالج المسألة الأخلاقية لديهم من خلال المسألة العقدية الروحية التي يرتبط الإنسان فيها بالله ليطلّ على تفاصيل الحياة ومفرداتها العملية من هذا الموقع الثابت في الفكر والإحساس

697 ص 26.

698 ص 29.

699 البقرة 134.

700 - الأعراف 80 – 81.

والواقع، الأمر الذي يوحي إلينا أنّ الانحراف العملي لا يُعالج بالطريقة المباشرة التي تخاطب مفرداته وخصوصياته بشكلّ مباشرٍ، بل بالطريقة الفكرية التي تمتد إلى جذور العقيدة والروح والإحساس وتتحرك في مفردات الحياة كلّها، لأن ذلك هو الذي يخلق الحوافز العميقة التي تدفع إلى الطاعة في أوامر الله ونواهيه. فإذا كان الإنسان لا يعيش روح التقوى لله، فكيف يمكن أن تقنعه ـ بشكلّ أساسي ـ أن يترك ما هو عليه من رذيلة وانحراف عن سنة الله تعالى في خلقه.

كذب قوم لوط ما جاءهم به لوط عليه الصّلاة والسّلام مثل ما كذب السابقون، فحين شاعت بينهم الفعلة القبيحة والديدنة الذميمة الشنيعة إلى حيث يباهون بها ولا يخفونها من غضب الله تبارك وتعالى، كان مساق دعوته عليه الصّلاة والسّلام يسير في جوانب عدة منها:

اتقوا الله الغالب الغيور واحذروا من سخطه

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ من قبله أَمِينٌ يؤمنكم من مكر الله وحلول غضبه وعذابه لو قبلتم منى قولي

فَاتَّقُوا اللَّهَ حقّ تقاته وَأَطِيعُونِ في عموم ما جئت لكم من عنده، وهذا باب التذكير الذي هو بوابة دعوة لوط صلّى الله عليه وسلّم.

بين لهم إن التبليغ والنصح ليس من وراءه من اجر، إن الأجر إلا على رب العالمين فانه المتكفل لأجور عباده حسب أعمالهم ونياتهم فيها.

بيان عظمة الإثم في هذه الفعلة القبيحة الشنيعة، وتركهم ما خلق الله تعالى لهم من أزواج ونساء التي يترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء النوع.

هذا الطرح كان أمّامهم وفق سياق الدعوة التي جاء بها لوط صلّى الله عليه وسلّم، فصنيعهم قبيح وفيه تجاوز على حدود الله تعالى وحكمه وحكمته والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذّكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذّكر والأنثى؛ وفطر كلّا منهما على الميل إلى صاحبّه لتحقّيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذّكر والأنثى. فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود. فأمّا إتيان الذّكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقّق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. واللذة التي يجدها الذّكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقّيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد701.

لم يكن جوابهم فيه أي تراجع عن فعلتهم الشنيعة بل كان الإصرار هو العنوان الأبرز في سياق كلّامهم مع لوط صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}702.

وبعد ما سمع لوط عليه الصّلاة والسّلام منهم ما سمع من الغلظة والتشديد في التهديد، قالَ مستوحشا منهم مستنكرا عليهم (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ هذا مِنَ الْقالِينَ) المبغضين غاية البغض بحيث أكره مساكنكم

701 – النبوّة والأنبياء في القرآن والسنة، ج 1، ص 57.

702 – الشعراء 167.

وجواركم مطلقا وأريد الخروج من بينكم ولا أبالي من تهديدكم على بالإخراج والإجلاء.

إنّ خطاب لوط عليه الصّلاة والسّلام لهم فيه سمة التحديد، فقد كان خطابه منصبا على أفعالهم دون أن يبين أي عداوة لهم أي إنّني لا أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادي أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم وغير قال لكم.

لم تؤثّر مواعظ لوط عليه الصّلاة والسّلام ونصائحه في قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع تسبح فيه الرذيلة وتمّت الحجّة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية... فعليه أن يغادر هذه المنطقة الفاسدة، وأن ينجّي من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، يقول تعالى: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِين وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}703.

قوله تعالى: (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين) القلي البغض الشديد، كأنّه بغض يقلي الفؤاد والكبد، وقوله: (مِّنَ القالين) أبلغ من أن يقول إنّي لعملكم قال، كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم704. وفرق بين كوني لا

703 - الشعراء 169 – 175.

704 - تفسير الرازي، ج 11، ص 498.

أعمل العمل، وكوني أكره من يعمله، فالمعنى: أنا لا أعمل هذا العمل، إنما أيضا أكره من يعمله، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين أي من المبغضين غاية البغض، قال الراغب: يقال قلاه ويقليه فمن جعله من الواو فهو من القلو، أي الرمي من قولهم: قلت الناقة براكبها قلوا وقلوت بالقلة إذا رميتها فكأن المقلو يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله. ومن جعله من الياء فهو من قليت السويق على المقلاة فكأن شدّة البغض تقلى الفؤاد والكبد وتشويهما، فقول أبي حيان: أنّ قلي بمعنى أبغض يائي، والذي بمعنى سوى واوى ناش من قلة الاطلاع، والعدول عن قالي إلى ما في النظم الجليل لأنّه أبلغ فإنّه إذا قيل: قالي لم يفد أكثر من تلبسه بالفعل بخلاف قوله: (مِّنَ القالين) إذ يفيد أنّه مع تلبسه من قوم عرفوا واشتهروا به فيكون راسخ القدم عريق العرف فيه، وقد صرح بذلك ابن جني. وغيره، واللام في (لعملكم) قيل للتبيين كما في سقيا لك فهو متعلق بمحذوف أعني، وقيل: هي للتقوية ومتعلقها عند من يرى تعلق حرف التقوية محذوف، أي؛ إنّي من القالين لعملكم من القالين. وقيل: هي متعلقة بالقالين المذكور ويتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها فتقدم حيث لا يقدم غيرها، والمراد بعملهم أمّا ما أنكره عليه السّلام عليهم من إتيان الذّكران وترك ما خلق ربهم سبحانه لهم وأمّا ما يشمل ذلك وسائر ما نهاهم عنه وأمرهم بضده من الأعمال القلبية، وقابل عليه الصّلاة والسّلام تهديدهم ذلك بما ذكر تنبيها على عدم الاكتراث به وأنّه راغب في الخلاص من سوء جوارهم لشدّة بغضه لعملهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلا: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّا

يَعْمَلُونَ}705، أي من شؤم عملهم أو الذي يعملونه وعذابه الدنيوي706.

705 - الشعراء 169.

706 - الألوسي، ج 14، ص 327.

النبي

لوط من السنّة

اسم لوط يدلّ مفهومه على التماسك والاكتساء بالجمال، فلاط الشيء أحاطه برداء الجمال، وكلمة (لاط) مثل كلمة (لزب) من حيث الجودة والتماسك والنوعية المتميّز. ولهذا فلوط عليه الصّلاة والسّلام هو الجودة الكريمة.

وفي اللغة التاط به التصق به، وفي الحديث: "عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلَاثٍ: شَقَاءٍ لَا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَيَأْخُذَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ"707.

ولوط عليه الصّلاة والسّلام نبيٌّ من أنبياء الله الكرام، آمن برسالة إبراهيم عليه السّلام، ودعا قومَه إلى طاعة الله والبُعد عن الفواحش حيث كانوا يأتون الرِّجال شهوة من دون النساء.

أرسله الله ليهدي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله، وكانوا قوما ظالمين يأتون الفواحش ويعتدون على الغرباء وكانوا يأتون الرّجال شهوة من دون النساء فلما دعاهم لوط لترك المنكرات أرادوا أن يخرجوه هو ومن آمن به.

707 المعجم الكبير للطبراني، 10، ص 162.

لوط ابن أخ إبراهيم عليهما السّلام، وكان مقيما معه في أرض العراق وآمن برسالة عمّه ودعوته، وقد هاجر معه من العراق إلى فلسطين، وهناك بقي إبراهيم ولوط عليهما السّلام واستوطنا تلك المنطقة. ثمّ ذهب لوط شرق نهر الأردن حيث توجد هناك قرى سدوم وعمورة وهناك بدأت قصّة لوط عليه السّلام مع قومه حيث اختصّه الله بالنبوّة وآتاه العلم والحكمة لتبليغ قومه ونصيحتهم. قال تعالى: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}708.

بداء لوط دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن ارتكاب الأفعال السيئات والفواحش، ولكن دعوته اصطدمت بقلوب قاسية وأهواء ورفض متكبر. وحكموا على لوط وأهله بالطرد من القرية. فقد كان القوم الذين بعث إليهم لوط يرتكبون عددا كبيرا من الجرائم البشعة. كانوا يقطعون الطريق، ويتواصون بالإثم، ولا يتناهون عن منكر، وقد كانوا يأتون الرّجال شهوة من دون النساء؛ فصار الرّجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء، وصار النقاء والطّهر جريمة تستوجب الطرد.

ولقد كانت تصرفات قوم لوط تحزن قلب لوط. كانوا يرتكبون جريمتهم علانية في ناديهم، وكانوا إذا دخل المدينة غريب أو مسافر أو ضيف لم ينقذه من أيديهم أحد، ولكنّ لوط قد جاهدهم جهادا عظيما، وأقام عليهم حجته، ومرّت الأيام والشهور والسنوات، ولم يؤمن به إلّا بعض أهل بيته، وحتى زوجته يقال أنّها لم تؤمن معه.

---

708 الأنبياء 74، 75.

وقد استهزاء الكفرة برسالة لوط عليه السّلام، {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}709 أي: بعد أن يئس لوط منهم، دعا الله أن ينصره ويهلك المفسدين. فكانت الإجابة، {وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}710، وكان الهلاك بعد أن أرادوا الحاق الأذى بالملائكة المكرّمين الذين خرجوا من عند إبراهيم قاصدين قرية لوط، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}711.ومن هنا جاءت الاستجابة بإهلاك قوم لوط إلّا من أمن، ومن هنا أيضا كان الاستثناء لزوجته، التي لو كانت قد أمنت لكانت من الناجين. عن ابْن أبي حَاتِم من طَرِيق عَليّ بن أبي طَلْحَة

709 العنكبوت 28 . 30.

710 العنكبوت 34، 35.

711 هود 77 . 81.

عَن ابْن عَبَّاس، قَالَ: فِي قَوْله: {هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}712 شَدِيد الْقَائِل بِهَذَا لوط، عَلَيْهِ السَّلَام، حِين جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَة فِي صُورَة غلْمَان جرد بهم منزله وَحسب أَنَّهم أنَاس، فخاف عَلَيْهِم من قومه وَلم يعلم بذلك أحد فَخرجت امْرَأَته فَأخْبرت بهم قَومهَا. فَقَالَ: {هَذَا يَوْم عصيب} أَي: شَدِيد عليّ وقصته مَشْهُورَة713.

ففي تلك القصّة بعد أن سقط الليل على المدينة، وصحب لوط ضيوفه إلى بيته، يبدو أنّ زوجة لوط قد فعلتها، وأبلغت قومها؛ فانتشر الخبر مثل النّار في الهشيم. وجاء قوم لوط له مسرعين، وتساءل لوط بينه وبين نفسه: من الذي أخبرهم؟ وقف القوم على باب البيت؛ فخرج إليهم لوط متعلّقا بأمل أخير، وبدأ بوعظهم: {قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}714. ويقصد ببناتي هنا: (النساء) بشكل عام، ولهذا فقوله: (فَاتَّقُواْ اللّهَ) بغاية ملامسة نفوسهم من جانب التقوى بعد أن لمسها من جانب الفطرة بقوله (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ).

أمّا قوله: (وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي)؛ فهي محاولة يائسة لِلَمْس نخوتهم وتقاليدهم التي تستوجب إكرام الضيف لا فضحه.

وهكذا جاء قوله: (أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) لإثارة النخوة إن كانت في أحدٍ منهم، ولكن لا قدوة بينهم، وهنا تكمن علّة.

وقد أحسّ لوط أمامهم بضعفه كونه غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه، ولا أولاد ذكور يدافعون عنه، ومع ذلك

712 هود 77.

713 عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 18، ص 287.

714 هود 78.

دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته، وفي المقابل كان الغرباء الذين استضافهم يجلسون هادئين صامتين؛ فدهش لوط من أمرهم، وهناك ازدادت ضربات القوم على الباب؛ فصرخ لوط في لحظة يأس خانق: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}715 أي: تمنّى أن تكون له قوّة تصدّهم عن ضيفه وتقفهم عند حدّهم، وتمنى لو كان له ركن شديد يحتمي فيه ويأوي إليه، ولكن كان ركن الله أعظم من أيّ ركن ومهما اشتد. انّه الشديد الذي جعل الشدّة تنزل على القوم جميعا: فهم ومهما كانوا اشداء فلا شدّة لهم أمام شدّة الله عليهم، ولهذا التجاء شعيب الى الشديد الأعظم الذي سمع نداءه بقوله: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)؛ فأنزل الشديد المنتقم انتقامه بهم؛ أي أراد شعيب أن ينتقم الله منهم بما عملت أيديهم وبما تعمل وما هم عازمون عليه من الأعمال السيئات، وبمعنى آخر: كان قول شعيب فيهم بمثابة النداء؛ فهو ينادي العون لأنّه لم يمتلك القوّة الرّادعة للمفسدين من قومه؛ فجاءه العون انتقاما منهم من المنتقم.

وهنا فالمنتقم "هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة"716.

المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق الباطل؛ ولذا فهو لا ينتقم إلا لحقّ وبحقّ وهو لا يظلم أحدا. والمنتقم لا ينتقم من أحد إلا لأجله، فالانتقام من

715 هود 80.

716 المقصد الأسنى، ج 1، ص 139.

الظالمين حقّ لهم وحقّ عليهم: من حيث كونه حقّ لهم لأجل أن يتذكروا لعلَّ الذكرى تنفعهم فيُكفِّرون عن سيئاتهم، ومن حيث كونه حقّ عليهم ليزداد المتقون تقوى، ويزدادوا تمسكا بالحقّ وثباتا عليه. وبهذا الأمر يقتدي المنتقم له والمنتقم منه بأن الحقّ لابدّ له وأن يحقّ.

وعليه فنحن نجزم بأن اسم المنتقم من أسماء الله تعالى كما سيتضح لاحقّا.

يتساءل البعض عن جواز أن تكون من صفات الله عزّ وجلّ الانتقام الذي يدل على اسمه (المنتقم)! وللإجابة عن ذلك علينا أن نعرف من هو المنتقم، ثم نحصي ممن انتقم ولماذا، وكيف.

المنتقم هو الذي بيده مقاليد القوّة والقدرة الممكّنة من الانتقام، والانتقام فعل قوي في مواجهة فعل أو أفعال سابقة العمل بغير حقّ، فيها من المظالم ما لا يرضي العباد وخالق العباد، والانتقام نتيجة لأسباب وعلل مفسدة لما يجب أن يكون صالحا، فالمنتقم الحقّ هو من ينتقم من المنتقمين (الذين هم على الباطل)، ولذا فهو الحقّ، أي صفة حميدة ومحببة لأجل أفعال الصفات الحسان.

إذا المنتقم الحقّ هو فاعل الحقّ، أي أنّه محقّ الحقّ ومزهق الباطل، ولذا فهو الله، وفي هذا الأمر يكون التطابق والتماثل في آيات الله المؤكدة على ترسيخ الصفات الحسان. كقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}717، وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا}718، وقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}719، وقوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}720.

---

717 الأنفال 30.

718 الطارق 15، 16.

ولأنّ المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق للباطل، إذا الانتقام لم تكن أسبابه ظالمة، ولم يكن بذلك ظلما، بل إنه عدل لا يحفّهُ باطل. وعليه فالانتقام من الباطل عدل في سبيل الإصلاح والفلاح والإعمار، والخليفة هو الذي ينتقم من الظلم والظالمين لأجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

المُنْتَقِم هو العادل في العقوبة لمنْ يشاءَ721. غير أنه قد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية الآتي: "في أسماء اللّه تعالى (المُنْتَقِم) هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء" وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}722، وقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}723 وقوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}724، وقوله {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}725 فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود"726. فالمنتقم أفعاله الانتقامية نتائجها لا تعود عليه مباشرة، بل تعود بشكل مباشر على من ظلموا

---

719 السجدة 22.

720 الدخان 16.

721 النهاية في غريب الأثر – ج 5، ص 231 ولسان العرب – ج 12، ص 590

722 الحجر 49، 50.

723 الأعراف 167.

724 المائدة 98.

725 البروج 12 ـ 20.

726 جامع الرسائل-ج1-ص356

ولم يستطيعوا ردع الظلم والظالمين، ولا يستطيعون إحقّاق الحقّ، ومن يتوب بعد ظلم ويصلح ما أفسد فإنّ الله غفور رحيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}727. إما أولئك الذين لا يتوبون فإن الله شديد العقاب، ولهذا فجزاء السيئة سيئة مثلها ومن عفا وأصلح فأجره على الله وما ربك بظلام للعبيد، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}728. إنَّ قوله تعالى: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولمن انتصر بعد ظلمه، أي بعد أن انتقم من الظالم أو الظالمين، وهم لن يستطيعوا بعد ذلك ارتكاب مظالم فلا سبيل للانتقام منهم بغير حقّ، لقد تم الانتقام الذي هو إحقّاق للحقّ وإزهاق للباطل، وسيظل السبيل مفتوحا أمام المنتقم للحقّ إذا استمر الظالم في ظلمه وهو يبغي الإفساد في الأرض التي جعل الله فيها الإنسان خليفة، ولذا فالعذاب سيظل لأولئك الظالمين حقّ في الدارين وهذا الانتقام لا ظلم فيه وذلك لأنه حقّ في مرضاة الله تعالى، (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

---

727 المائدة 39.

728 الشورى 40 ـ 44.

المنتقم: يعلم بالمظلمة وبالظالم الذي اقترف ظلما، وهو رافض لكل مظلمة، وهو قادر على إحقّاق الحقّ، وقادر على تمكين المظلوم من بلوغ الانتصار والفوز المؤزر، وهو الذي لا يتأخر عن ذلك كلما شاء.

المنتقم المطلق هو الله القادر العادل القوي الجبار المهيمن الحفيظ سبحانه الذي ينتقم من المجرمين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}729. والمجرمون هم الذين ذُكِّروا بآيات الله ثم كفروا بها وأشركوا وظلموا النّاس، هؤلاء منهم الله تعالى منتقم، وانتقام الله من الكفرة إدخالهم جهنم. قال تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}730.

والمنتقم بالإضافة هو المهتدي إلى صراط الحقّ المستقيم فلا يظلم أحدا، ولا يتأخر عن مناصرة المظلومين، يثأر للحقّ حتى يُزهق باطل القول والفعل والعمل، ويُقدِم على أداء فعل الخيرات، وهو الذي ينتقم من الذين يظلمون، وهو الذي يكيد كيد الكائدين ويمكر بمكر الماكرين مصلحا ومُعمِّرا ومفلحا في الأرض التي استخلفه الله فيها.

المنتقم: هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة والجبارين ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة.

---

729 السجدة 22.

730 الزخرف 39 ـ 43.

المنتقم هو الذي يَغلِب ولا يُغلَب، وذلك بأسباب امتلاكه لمعطيات الحقّ، أما الذي يُغلب فهو ضعيف القول والحجّة، وضعيف القدرة والقوّة، ولهذا من يستند على الحقّ استند على القوّة والقدرة، ومن استند على باطل استند على ضعف ووهن.

والمنتقم انتقامه حقّ لأنه ينزل فعل الانتقام بعد استنفاذ السبل الكفيلة بالهداية والتنبيه، والمؤدية للعودة إلى الطاعة، فالمنتقم هو المنذر أي هو الذي أنذر النّاس من عقوبته وبطشه وانتقامه بالرّسُل أولا قبل أن ينتقم منهم، ولهذا فالانتقام فعل مترتب على أفعال، قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاس وَبَشّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}731، مكانة المستخلفين في الأرض عالية عند ربهم، أما الكافرين فلا مكانة لهم إلا العذاب الذي هو انتقام منهم على ما يفعلون بغير حقّ، ولهذا فالانتقام مخصوص بهم وبعذابٍ أنذرهم المنتقم منه: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}732، وإنذار المنتقم موجه للغافلين على وجه العموم، {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}733، والغفلة هي متابعة النفس غير المهتدية على ما تشتهيه، فأما متابعة النفس فبالهوى الذي نبه المنتقم عباده من سوء عاقبته فقال لخليفته منبها، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}734. هنا وجب على الخليفة الانتباه

731 يونس 2.

732 نوح 1.

733 يس 6.

734 ص 26.

إلى خطورة اتباع الهوى لأنّه يؤدى إلى الغفلة المهلكة التي تؤدّي بالعبد إلى نقمة المنتقم سبحانه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}735، فالمتبع لهواه هو المعرض عن التمسك بما آتاه الله من نعم وفضائل وآيات حسان، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقّه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم، ثم قال تعالى: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)، واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبها بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال النّاس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقى نفسه فيها، كان حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة736، وهذا هو الهوى المؤدي لاتباع النفس على ما تشتهيه، وهو ما لا يريده المنتقم لخلفائه

735 الأعراف 175-178.

736 تفسير الرازي، ج 7، ص 299.

فجعلهم من المنتهين عما نهى عنه ولهذا حثهم على اتباع الحقّ وفعله والإكثار من أفعال الخيرات الحسان، {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الجنّة هِيَ الْمَأْوَى}737. المعادلة واضحة بيّنة، فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه جهنم، ومن اتقى ربه عزّ وجلّ ونهى النفس عن رغباتها غير المحمودة فيفوز بالجنّة، وهي نتاج الجزاء الأوفى.

ولهذا لا ينبغي الإغفال عن أهمية قضاء الوقت فهي غفلة مصدرها الأمل بغير حقّ وذلك بإرجاء الطاعة إلى أجل يتوهمون معرفته فيقول القائل منهم غدا، أو الشهر القادم، أو العام القادم وهكذا، هؤلاء يقول عنهم المنتقم : {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}738، فهم في غفلة المتوهم الذي يظن أنه آمن من مكر الله، {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}739، ولأن مكر الله حقّ فهو وجوبا لابدّ وأن يحدث، ومن يظن أن مكره لن يحدث سيكون من الخاسرين لا محالة، ولهذا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، أي مهما مكر الماكرون من مكر، فإن الله سيكون منتقما من مكرهم بمكره، ومكر الله دائما خير، لأنه مبطل لكل مكر يمكرونه.

إن الغافلين عن الحقّ، هم غافلون عن الموجبات، ولكن لكل أمة أجل قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}740، وعلى الخليفة أن لا يقع في مثل هذا الوهم فيتواكل ويتخاذل عن القيام بما أمره الله به من أمر الخلافة بل عليه أن

---

737 النازعات 37 ـ 41.

738 الحجر 3.

739 الأعراف 99.

740 الأعراف 34.

يدرك ويوسع إدراك من استخلف عليهم بأهمية قضاء الوقت في طاعة الله رغبة في رضاه وخوفا من انتقامه، وآخر أنواع الغفلة هي النسيان وكتب المنتقم على نفسه غفرانها بشرط الاستغفار والعودة وعدم الإصرار: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}741، ويلاحظ أن الإنسان جُبل على هذه الصفة فهو نسي، لذا جعل المنتقم هذا النوع من الغفلة قابل للتوبة والتراجع، وعلى الخليفة مع ذلك أن يحذر السهو والنسيان إقتداءً بالله الذي لا يضل ولا ينسى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}742.

وينذر المنتقم بالآيات، لأجل أن لا يكون العباد في غفلة من أمرهم، ولا يكونون بعدها نادمين كما هو حال الكفرة الفجرة، قال تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}743، وينذر ببعض أمثلة الانتقام فيشير إلى الصاعقة في قوله: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}744، فالإنذار هو آية المنتقم للعباد فمن يتجاهله يصيبه الانتقام: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}745.

والمنتقم يتبع الإنذار بالتذكير الذي يلي إرسال الرّسُل المنذرين بالكتب السماوية قال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

---

741 طه 115.

742 طه 52.

743 النبأ 40.

744 فصلت 13.

745 القمر 36-37.

بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}746، وهو الذي يلي الآيات أيضا: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}747، والتغافل عن الذكر من عجيب الأمور التي يقع فيها الإنسان ولا يجد لها اللب تفسيرا إلا الكفر والنكران، {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}748، وهو من موجبات الانتقام في الدنيا وذلك بتسخير شيطان بسوء عمله ليكون قرين هذا المتغافل عن ذكر الرّحمن فيحمله من الذنوب ما توجب إيقاع الانتقام به، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}749، كذلك الأمر في الآخرة فإن المعرض عن الذكر له من عذابها الشديد، {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا}750.

والمنتقم هو الممهل والإمهال تفضل من المنتقم لإعطاء الفرصة للاستغفار والتوبة، لأن فعل المستحقّ للانتقام موجب للرد لكن المنتقم بالحقّ رحيم فمنحهم المهلة التي لا تعني التغافل: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}751، لكنها مهلة العليم بعباده، الحكيم في ما قضى، فلو انتقم من كل مستحقّ بدون مهلة التراجع لما كان هناك تائب ولما كان هو تواب، ولكنه جعل المهلة رحمة منه عسى أن يعود من يعود قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

746 ق 45.
747 السجدة 22.
748 الأنبياء 50.
749 الزخرف 36.
750 الجن 17.
751 إبراهيم 42.

يَسْتَقْدِمُونَ}752، ويتوجب على الخليفة أن يعمل بعمل من استخلفه في الأرض فيمهل العباد بغية منحهم فرصة للتراجع عن سالف ذنوبهم، وهذه المهلة كما هي رحمة لمن أراد العودة فهي نقمة من المنتقم على المصر: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}753، وقد يقول القائل: لكنهم يأكلون ويشربون وينعمون بنعم الله كلها وبعض المطيعين محرومون من كثير ممّا عند هؤلاء الكافرين! لا عجب فهم إنما في هذا الحال ليزدادوا إثما فيشتد الانتقام منهم، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}754، فمتى هذا الانتقام. إنه يوم الفصل بين المؤمنين والكافرين، {لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}755، وممّا يُشعر بشدة الانتقام الإيجاز بنص التهديد فكلمة ويل موجزة من حيث النطق الصوتي لكنها في غاية السعة من حيث تخيل شكل الانتقام وطبيعته، ومن المهم الوقوف مع صورة من صور هذا الانتقام لتبين طبيعته، والآيات تتحدث عن المشركين الذين أصروا على الإشراك بالله من غير علم، قال تعالى: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمن عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}756، يقول وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا). ولا شفاعة يومئذ إلا لمن

---

752 النحل 61.

753 الطارق 17.

754 آل عمران 178.

755 المرسلات 12-15.

756 مريم 86-91.

قدَّم عملا صالحا فهو عهد له عند الله يستوفيه. وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا أن يجزيه الجزاء الأوفى، ولن يخلف الله وعدا، ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين. ذلك حين يقول المشركون من العرب: الملائكة بنات الله. والمشركون من اليهود: عزير ابن الله. والمشركون من النصارى: المسيح ابن الله. فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره، قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرّحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}757.

(وقالوا اتخذ الرّحمن ولدا) الرّحمن الذي خلق الكون وما فيه وخلق الشيء من الشيء حتى تعددت المخلوقات وبلغت إلى ما لا نهاية، يقال عنه قد اتخذ ولدا، أستغفر الله إنه ليس في حاجة للولد، وكيف تكون له حاجة للولد، وهو لم يولد.! الذي يكون في حاجة للولد هو الذي سبق وأن جاء من صلب والد، أو أنه يحتاج للرعاية والعناية ويخاف خاصة حين يظلم غيره كيف يكون ذلك والله القوي القادر مالك الملك وبيده الأمر، فإذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، من بيده القوّة والملك لا يحتاج لأحد وكل أحد هو في حاجة إليه، قال تعالى في صورة الإخلاص: {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد}، ولأنه خالٍ من الشبيه والممّاثل فكيف لنا بالقول: أنه اتخذ ولدا. فالرّحمن لم يلد ولم يولد ولم تكن له الصاحبة والولد، إنه الخالق بالمطلق، والخالق لا يحتاج للولد أبدا، وما المسيح إلا عبدا للرحمن، وعباد الرّحمن هم المخلوقون

757 مريم 88 ـ 95.

خلقا، ولهذا لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنّة وَمَأْوَاهُ النّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}758. من يقول إنّ الرّحمن قد اتخذ ولدا أشرك بقوله منكرا لا تعقله القلوب ولا العقول، أمرا لا تدركه الأبصار ولا يثبته واقع، وكيف تقبل عقول البعض هذا القول المنكر وهم يعلمون أن عيسى هو ابن مريم، وأن لمريم أب سابق عليها، وإذا كان عيسى هو ابن الله أو إنه الله كما يدعون، إذن ماذا يقال على آدم الأوّل المخلوق خلقا، فكيف يقرون بخلق آدم ولا يقرون بخلق عيسى عليه الصّلاة والسّلام وينسبونه إلى الله ولدا. ولهذا قال تعالى: (لقد جئتم شيئا إدا) شيء منكر عظيم لا يغتفر، ولذا سيكون الانتقام من الذين قالوا هذا القول المنكر. وسيحقّ القول عليهم جميعا إن لم يتداركوا أمرهم استغفارا وتوبة لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولم تكن له الصاحبة ولا الولد.

والمنتقم هو العالم الذي لا يخفي عليه شيء، وهو المحصي الذي لا يفوته قول أو فعل، فانتقامه حقّ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ

758 المائدة 72 ـ 75.

وَلَا فِي السَّمَاءِ}759، وفي هذه الآية يمكن استشعار أحقّية الانتقام فهي تدل ولاشك على حقّيقة أنه ما من انتقام دون علم وإحصاء للظاهر والمخفي من القول أو الفعل، فإذا وصل العبد بهما حد الانتقام حل به لا محالة، وإن لم يصل بتلك الأفعال والأقوال لهذا الحد وتراجع يجد المنتقم غفورا رحيما، هنا تظهر أدق صور العدالة التي تجعل الانتقام حقّا.

الانتقام عدل مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}760 وهو أجل وجوه العدل، فقد جعل المنتقم الجزاء بقدر الفعل في الدنيا تحقّيقا للعدل في الانتقام فقال: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}761.

ومن غايات الانتقام الانتصار للمظلوم الذي أعيته الحيلة للانتصار لنفسه، فالانْتصَارَ من الظالم الانْتِصاف والانْتِقام، وانْتَصَر منه انْتَقَم: قال الله تعالى مُخْبِرا عن نُوح على نبينا وعليه الصّلاة والسّلام ودعائِه إِياه بأَن يَنْصُره على قومه: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}762.

---

759 آل عمران 4-5.

760 يونس 44.

761 المائدة 45.

762 القمر 9-13.

أمّا القادر على الانتقام لنفسه من ظلم الغير فقد نزه المنتقم فعله فقال عز من قائل: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}763، وانتقام هؤلاء فعل محمود لأن فيه تحقّيق للعدل ومحاربة للبغي، وسد لأبواب المظالم: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}764، أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون، ومعنى الاختصاص أنّهم الاخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز، ولا يراد أنهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو وقوله السابق: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}765. التسامح بين النّاس رحمة، فمن غفر لأخيه ذنبا غفر الله له ذنوبا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}766.

كذلك يكون الانتقام لإحقّاق الحقّ بالانتقام من الباطل ومرتكبيه: {لِيُحِقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}767، وهي من أبرز غايات الانتقام التي أشار الله إليها في محكم كتابه، لأن في ذلك نصرة للحقّ الذي يجب أن يسود لأن الخالق هو الحقّ: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

763 الشورى 41.

764 الشورى 39.

765 الشورى 37.

766 الشورى 39 ـ 44.

767 الأنفال 8.

الْكَبِيرُ}768، فالخليفة ملزم هنا بجعل الحقّ نصب عينه، فلا يغفل عن السعي لتحقّيقه في كل الأمور صغيرها وكبيرها، وفي كل الأوساط وذلك بإشاعة ثقافة الحقّ التي تتمثل في عدة أمور منها:

1 . عدم كتم الحقّ ولو على النفس: {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}769.

2 . تعليمه في أوساط من يجهل الحقّ: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}770.

3 . القول بالحقّ ولا غيره: {حقّيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ}771.

4 . العمل بالحقّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ

---

768 الحج 62.

769 البقرة 42.

770 البقرة 144.

771 الأعراف 105.

وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}772

5 . نصرة الحقّ على الباطل ولو كان ذلك مغضبا لكثير ممن لا يعلمون: {لِيُحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}773.

6 . عدم التعصب فيه إلى حد ما يكره الحقّ سبحانه: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحقّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}774.

وقد يكون الانتقام لتعذيب الكافر بالآلام في الدنيا والآخرة فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم، في الدنيا يكون الانتقام على عدة صور منها أن المنتقم ينصر المؤمنين على الكافرين مع غير توقع أي أن يكون الكافرون أكثر عددا وأقوى عدة بما يخلق في نفوسهم يقينا بالنصر إلا أنهم يخذلون بانتقامه سبحانه منهم بأيدي عباده المؤمنين فحيل بهم عذاب الانتقام الدنيوي: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}775، وقد يكون الانتقام في الدنيا بإلحاق الخزي بالكافرين: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}776، وقد يكون بإرسال الشياطين عليهم لتفسد

---

772 البقرة 282.

773 الأنفال 8.

774 المائدة 77.

775 التوبة 25-26.

776 التوبة 2.

أعمالهم وتجعلهم في ضلالة على ضلالتهم :{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} 777، أما في الآخرة خصص له المنتقم عذابا مهينا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} 778.

ويكون الانتقام ليشقي عبدا عاداه ويسعد آخر والاه وذلك بأن يجعل بعض انتقامه ينزل بالمعتدي في الدنيا كالذل: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} 779، وكذلك بإلحاق اللعنة بهم: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} 780.

وكذلك للمحافظة على التوازن بين قوى البشر بإيقاف الطغيان عند حده وذلك بالانتصار لأصحاب الحقّ فيفرح ويسعد بذلك المؤمنون: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} 781، والخليفة دوره يتمثل في فهم غايات الانتقام للعمل بها، فلا يكون انتقامه من أعدائه إلا حقّا وليس بدافع الهوى كرها في بعض وحبا لبعض، وعليه إدراك دوره في المحافظة على التوازن بين قوى النّاس متذكرا صفة البطش التي يعمل بها بعض العباد فيكون

777 مريم 83.

778 النساء 151-152.

779 البقرة 61.

780 المائدة 77-78.

781 الحج 41-42.

لهؤلاء ندا لنصرة المستضعفين وحفاظا على حياة متوازنة لا يطغى فيها أحد على آخر، ويحرص على أن يُعمل بالحقّ.

وانتقام المنتقم يحل بالمستحقّ لأن اسمه المنتقم يقتضي وجود من يستحقّ الانتقام، فمن هو المستحقّ للانتقام ولماذا.

يجب أن نعرف أولا أن الداعي الأول لانتقام المنتقم هو إغضابه بفعل أو قول، فعندما يرتكب العبد ما يغيظ الله سبحانه وتعالى يحل به الانتقام، والغيظ هو شدة الغضب الكامن782، وإذا وصف به الله سبحانه فإنه يراد به الانتقام، قال تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ}783، أي: غائظون بغضبهم، ويحمل المعنى الدلالي للفظة الغيظ فهما دقيقا لمعنى الانتقام، فهو شدة الغضب ممّا يدل على كثرة الكفر والعصيان من قبل العبد المستحقّ للانتقام، وكذلك يدل على شدة تمسك وإصرار هذا العبد على تلك الأفعال، كما تدل لفظة الكامن على التأني الذي يوحي بالمهلة والتي فيها ينذر المنتقم عباده ويذكرهم، كما فعل سبحانه مع فرعون وقومه فقد أرسل إليهم موسى عليه الصّلاة والسّلام داعيا إلى الحقّ ومنذرا من انتقام المولى عزّ وجلّ: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حقّيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}784، ثم ذكرهم بالآيات التي تناسب فهمهم وما كانوا يؤمنوا به على أنه حجة وبرهان: {قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ

---

782 نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي اللبناني ج 1، ص 168.

783 الشعراء 55.

784 الأعراف 104-105.

قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاس وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}785، فلما واجهوا ذلك بالكفر والإصرار بلغ غضب المنتقم حد الغيظ فاستوجب الانتقام من هؤلاء على كفرهم وإصرارهم: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}786، فَلَمَّا ءاسَفُونَا أي أسخطونا، وفي معناه ما قيل أي أغضبونا أشد الغضب أي بأعمالهم، والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل.

وذكر الراغب أن الغيظ هو الأسف الحزن والغضب معا787، وعلى الخليفة أن يستقي فهمه للانتقام من هذه الآيات حتى يكون انتقامه حقّا لأن الفرق بين الانتقام الحقّ والانتقام الباطل هو في دلالته التي علمها المنتقم لخليفته، فعندما يكون الانتقام لفورة غضب ولفعل واحد يكون باطلا، وعندما يكون بلا إنذار ولا تذكير يكون باطلا،

---

785 الأعراف 106-124.

786 الزخرف 55.

787 تفسير الالوسي، ج 11، ص 152.

وعندما تكون غايته شخصية بحتة وليس لغاية عامة يكون باطلا، من هنا وجب على الخليفة التمييز والعمل بالانتقام الحقّ.

ولابدّ لنا أن نستعرض من حل بهم الانتقام لنعرف بمن يحل ويحل:

1- المشركون: وهم الذين يقرون بوجود الله إلا أنهم يقولون بوجود إله غيره، وباختلاف المسميات، فمنهم من جعل الهة سماها من قبيل هواه: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}788، ومنهم من جعل له شركاء في الملك من الجن: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ}789، أو من خلقه بشرا كانوا أم ملائكة: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}790، وهم في كل تخرصاتهم هذه أنما يدّعون حُجَّةً واهيةً ليس لهم فيها وجه حقّ، قال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ

788 النجم 19-23.

789 الأنعام 100.

790 النساء 171.

اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}791، هنا يحقّ الانتقام على هؤلاء المدّعين بغير حقّ ولا علم، وهو ما تكفل به المنتقم فقال لرسوله: {وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}792، يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد صلى الله عليه وسلم: لا يحزنكَ، يا محمّد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام فإنّ العزة لله جميعًا، يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء وهو السميع العليم، ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، وهو عالم الغيب والشهادة لا إله إلا هو.

والغاية من هذا الانتقام وضع حد لكل الادعاءات الباطلة تجاه الحقّ البيِّن، وهنا يأتي دور الخليفة في فهم هذه المسألة فيجب عليه وضع حد للمدعين لما لهذه الادعاءات من تأثير سيء على العباد وهم يقومون بما أمرهم الله به من عبادة وإعمار للأرض، فيخصص لكل مدعٍ منهم انتقاما يوقفه عند حد الحقّ الذي يجب على الخلفية أن يحرص على سيادته.

2 . المِصرّون على أفعال الفواحش والمنكرات: وهذا الإصرار غالبا ما يحصل بعد سابق الإنذار عند ذاك وجب الانتقام من هؤلاء المصرين لما في إصرارهم من تحدٍ لإرادة المنتقم الذي نبه وأنذر ورغّب من أجل أن لا يقع العبد في الإصرار على فعل الفواحش: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ

791 الزمر 2-3.

792 يونس 65.

الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}793، إما المستغفرون بعد فعلها سيجدون الله غفورا رحيما، لكن الكثير من العباد يُقبل على الإصرار أكثر من إقباله على الترك فينزل به انتقام المنتقم: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}794.

ومن وجوه الإصرار المؤدي إلى الانتقام التعمد مع النهي المسبق، يقول المنتقم ومع أنَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}795، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمّدا مذكور في معرض الشرط، وعند عدم الشرط يلزم عدم المشروط فوجب أن لا يجب الجزاء عند فقدان العمدية قال: (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ)، ومن لم يعد فعفي الله عما سلف، والانتقام إنما يكون في العمد دون الخطأ وقوله (وَمَنْ عَادَ) المراد منه ومن عاد إلى ما تقدم ذكره، وهذا يقتضي أن الذي تقدم ذكره من القتل الموجب للجزاء هو العمد لا الخطأ796، وهذه الآية تعطي توضيحا دالا على الانتقام الحقّ فتجعل التعمد شرطا أساسا للانتقام وبدونه يسقط كل عمل لم يكن العمد فيه أصلا له من حد الانتقام.

3 . الطغاة: وهم الذين لا يحمدون على نعم هم فيها ويتجاوزون الحدود دون مراعاة للآخر، يرون في أنفسهم كل شيء وهم نواقص،

---

793 آل عمران 135.

794 الشعراء 172-173.

795 المائدة 95.

796 تفسير الرازي

وهي صفة تقترن في الغالب بمُلك أو بكثرة مال أو بقوّة بدن، مع عدم اعتبار للعباد، ولنأخذ حال فرعون الذي طغى في الأرض التي خلقت ليكون الإنسان عليها خليفة، قال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}797، الذي طغى مستندا إلى ملكه: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}798، وقد ينظر الإنسان إلى كثرة ماله فيتوهم أن فيه قوّة فيقع في الطغيان، {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى}799، وقد يكون لقوّة البدن أثر في وقوع الإنسان في الطغيان، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}800، وكل هذه المعطيات الثلاثة إنما هي من نعم الله، فأساء كل منهم التصرف في هذه النعمة التي خوله الله إياها فجعلها لخدمة هواه، فحقّ عليه الانتقام كونه عمل لدنياه ونسي آخرته، {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}801، حيث حول الطغيان هذه النعم إلى دروب الفساد الذي يؤدّي بعضه إلى بعض، {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}802، ولهذا على الخليفة أن يتجنب

797 طه 24.

798 الزخرف 51.

799 العلق 6-7.

800 المائدة 27-30.

801 النازعات 37-39.

802 الفجر 11-14.

الطغيان وأن يحاربه فهو فتنة بأسباب المذلة والاستعباد وعدم احترام الآخرين وتقديرهم. والخليفة بطبيعته الإيمانية متقي لله تعالى، طائع له سجودا وركوعا، وقولا وفعلا، مبشر بالخير وداعي له ومصلح في كل أمر، وعادل بين النّاس إن دعوه لحكم، عازما على أن يكون من الوارثين في الجنّة، ولهذا فمخافة الله بين عينه في كل ما يرى، وعلى لسانه في كل ما يقول، وفي سمعه وحسه كلما استمع لشيء يُذكِّره بفضل الله عليه، وكل ذلك لأنه يعلم وهو مؤمن بقول المنتقم، {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ}803.

أمّا على صعيد المال فالخليفة مكلف بالإنفاق من هذا المال دون أن يطغى، والطغيان في المال على وجهين، إمّا أن يستأثر به لنفسه بخلا من عند نفسه فلا يتصدق ولا يحسن العمل فيه ممّا يؤدّي به إلى الفساد ثم الطغيان الموجب للانتقام، {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

803 ص 55-56.

الْمُنْتَصِرِينَ}804، وإما أن ينفقه في غير ما أمره الله فينفقه على الملذات والمفاسد فيصبح عند ذاك من المسرفين، والمنتقم لا يحب المسرفين: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حقّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}805، أو قد يصبح من المبذرين وهو من إخوان الشياطين كما وصفه المنتقم في قوله تعالى: {وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}806، لا حول ولا قوّة إلا بالله، اللهم اجعلنا من الطائعين المستخلفين فيها ولا تجعلنا من المفسدين والطاغين على العباد، وهب لنا من لدنك رشدا، من الآية الكريمة السابقة العلاقة واضحة بين التبذير وأعمال الشياطين التي تهتز منها الابدّان، ولذلك فإن الطاغين ملعونين مثل ما تُلعن الشياطين، حفظنا وإياكم منها ومن وسوستها وفتنها وحفظ أولادنا وأزواجنا وأخوتنا ومن له حقّ علينا بالدعاء وحفظ أموالنا من اعتداءاتهم وتخريبهم.

وعلى الخليفة أن يعلم علم اليقين أن قوّة البدن من نعم الله سبحانه يجب توجيها في طاعة الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وفي إحقّاق الحقّ ومحاربة الظلم: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحقّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ

804 القصص 76-81.

805 الأنعام 141.

806 الإسراء 26-27.

سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}807.

ويجب على الخليفة أن يوقن بأن جزاء الطغيان هو الانتقام في الدنيا كما حصل مع فرعون: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ }808، وانتقام في الآخرة من كل الطغاة، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا}809.

4 – الظالمون: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم وذلك في قوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}810، وعليه فمن يُنهى عن شيء ضار ولم ينته عنه سيكون من الظالمين، ومن يعرف شيء ضارا وهو لا يتخذ الحيطة والحذر تجاهه سيكون من الظالمين أنفسهم، ولهذا فالظلم يمكن أن يكون للنفس ويمكن أن يكون للآخرين مصداقا لقوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا

---

807 البقرة 247.

808 يونس 90-92.

809 النبأ 21-22.

810 البقرة 35.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حقّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}811.

والظلم ثلاثة أنواع:

الأوّل: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}812، وإياه قصد بقوله: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}813.

والثاني: ظلم بينه وبين النّاس، وإياه قصد بقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}814، وبقوله: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس}815.

811 الأعراف 23 ـ 30.

812 لقمان 13.

813 هود 18.

814 الشورى 40.

815 الشورى 42.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}816، وقوله: {ظَلَمْتُ نَفْسِي}817.

هذه مظالم يترتب على مرتكبيها ملاقاة أفعال الانتقام من الله المنتقم، وإلا هل يعقل أن يكفر الإنسان بربه أو يشرك به أو يفعل ظلما ويتركه هكذا يعبث دون أن يراعي حرية الآخرين وكرامتهم، إنه العادل في ملكه، ولهذا الانتقام من الظالمين فعل خير يقوم به الخليفة فيجازيه الله عليه حسنات كثار، ولذا فمن العيب أن يسكت الخليفة على أفعال وأعمال الطغاة العابثين في الأرض فسادا، كيف يسكت والله تعالى استخلفه ليصلح فيها ولا يفسد، ولأنه المهتدي بالحقّ للحقّ فلا يمكنه أن يسكت على أعمال المفسدين، فإن سكت على ذلك قد تلاحقّه اللعنات كما تلاحقّ أولئك الشياطين الذين ربط المعنى بينهم كما سبق ذكره وبين الطغاة والظالمين.

الخلفاء هم الذين يقمعون الطاغين والمفسدين والظالمين وسافكي الدماء في الأرض بغير حقّ، ولأن الظالمين هم منكرون للحقّ والعدل واعتبار الآخرين من بني جنسهم وهم أيضا منكرون لفضله عليهم بالنعم الواسعة وإشراك بالله، وإنكار ما جاءت به الرّسُل تبشيرا وإنذارا جعل الانتقام موجبا بحقّهم، وهم كثر ذكرهم المنتقم في كتابه ليكونوا عبرة للمعتبر: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}818، والكثير منهم حلَّ الانتقام بهم في الدنيا قبل

816 فاطر 32.

817 النمل 44.

818 هود 66 ـ 68.

الآخرة، كأصحاب شعيب: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}819، وقد نجي صالح والذين معه وكان انتقامه في مقابل ذلك من الظالمين مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}820، وغيرهم ممن أصابهم الانتقام لظلم عظيم وقعوا فيه وهو الإشراك بالله العزيز الحكيم.

قال تعالى: {والظالمين أعد لهم عذابا أليما}821، وقد يكون الانتقام من هؤلاء باختيار الفتنة لهم لتزيدهم ظلما فيزيدهم جزاء ذلك انتقاما مصداقا لقوله تعالى: {واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً}822، فالفتنة تصيب الظالمين خاصة وقد تصيب بعض من المؤمنين على سبيل الاختبار والامتحان.

5 – المجرمون: هم الذين يرتكبون الأفعال والأعمال المحظورة دينا أو عرفا، وفي هذا تعدٍ على أصول الفضائل والقيم الخيرة التي يرتضيها النّاس، وفي ذلك تعدٍ لحدود الله تعالى أو حدود النّاس وهذه الذنوب التي يرتكبها المجرمون فيحقّ عليهم الانتقام، فقد يكون ذنب المجرمين التكذيب مع وجود الآية الدالة على المصدق: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا

819 هود 94.

820 هود 66-68.

821 الإنسان 31.

822 الأنفال 25.

مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}823، وقد يكون الذنب الإعراض بمعنى عدم الاهتمام: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}824، وربما يكون الذنب الموجب للانتقام هو الافتراء الباطل: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}825، وهذه كلها من صور انتقام المنتقم في الدنيا، وليس ذلك أقصى ما يستحقّ هؤلاء فهناك انتقام الآخرة الذي يصفه المنتقم بآيات يذهل لها اللب، ويدمي منها الفؤاد لسوء ما اختار المنتقم للمجرمين من منقلب: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرّحمن عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرّحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا}826.

المجرم هو المتنصل من الأخلاق والمتجني عليها، رافضا ومتمردا أو قاتلا بغير حقّ وكذلك يؤفكون، والمنصوص عليهم في الآية من المفترين على الله الكذب، إذ جعلوا لله ولدا بهتانا من عند أنفسهم، وأصروا على ذلك مع شدة التنبيه والتوبيخ والزجر، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ

823 الأحقّاف 24-25.

824 السجدة 22.

825 هود 50-53.

826 مريم 86-93.

اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}827، وعلة الانتقام ليست في كونهم ادّعوا ابنا لله فقط وإن كانت كافية للانتقام، بل في إشراكهم بالله فجعلوا هذا الابن إلها يعبدونه: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}828.

وقد يكون التكذيب المطلق وعدم الاستماع لما جاء من الحقّ من كتب الرّسُل من ذنوب المجرمين التي تجعل الانتقام يحل بهم، {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}829، وصورة الانتقام البادية في الآية تتضح في قول المنتقم فدمرناها أي تدميرا عجيبا هائلا لا يُقدّر قدره ولا تُعرف حقّيقته، فهو أعلى درجات الهلاك الذي ليس بعده جبر أو إصلاح.

6 – الكافرون: هم الرافضون المنكرون للشيء مع أنّ وجوده بيّن لا تخفيه خافية، فهم يحاولون إظهار الباطل على حساب الحقّ، وفي ذلك معصية لا تجد إليها سبيلا إلا في جهنم، أجارنا وإياكم منها. والكُفرُ: نقيض الإيمان. وكَفَروا، أي: عصوا وامتنعوا، وهو أيضا نقيض الشكر، والكُفرُ أربعة أنواع:

---

827 التوبة 30.

828 المائدة 116.

829 الفرقان 36.

النوع الأول: كُفرُ الجحود مع معرفة القلب: مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}830.

والنوع الثاني: كُفْرُ المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه.

النوع الثالث: كُفْرُ النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر.

النوع الرابع: كُفْرُ الإنكار: وهو كُفْرُ القلب واللسان831.

كل هذه الأنواع موجبة للانتقام، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}832، للكافرين أمثالها بمعنى أن الانتقام حاضر لكل من يكفر بالله في أي زمان وفي أي مكان.

والكفر بكلّ أنواعه ممّا يمقته الله في عبده وذلك لعلة هي، أن الله اصطفي آدم ليكون خليفة في الأرض وفضله على كل مخلوقاته للقيام بهذا الأمر فإذا به يكفر وينكر ويعاند ويجحد، وهو الخسران في الدنيا والآخرة، {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}833، ومن يمقته الله ينزل به الانتقام لامحالة.

ومن وجوه الكفر الموجبة للانتقام هو مشايعة الكافرين، بمعنى القول بقولهم أو الفعل بفعلهم صغيرا أم كبيرا، لأن في ذلك مناصرة للباطل على الحقّ والآية الدالة على ذلك تلك التي تشير إلى ابن سيدنا نوح

---

830 النمل 14.

831 معجم العين، ج 1، ص 440.

832 محمّد 10.

833 فاطر 39.

عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}834، فمشايعة الكفار ممّا نهى عنه المنتقم، فلا نتخذهم أولياء: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}835، وصيغة التحذير الواضحة في الآية تنبه المصرين على هذا التولي إلى عاقبة ذلك، وتذكرهم بغضب الله الموجب للانتقام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}836.

وقد يكون الانتقام من الكافرين بيد عباد الله المؤمنين آية من المنتقم على قدرته على الانتقام من الكافرين بكل السبل: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}837.

7 . الماكرون: المكر بين النّاس، مخادعة من ورائها فتك وتهلكة، قال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}838، ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أنّ عيسى أحسّ منهم الكفر، وفي مقابل مكرهم مكر الله بهم، بأن سلّم الله عيسى من أن

834 هود 41-43.

835 آل عمران 28.

836 الممتحنة 13.

837 البقرة 250.

838 آل عمران 54.

يؤذوه، وعلى ذلك قتلوا الشبيه وهم يُرَوْنه وكأنه عيسى وصَلبوه، فذلك قول الله عزّ وجلّ: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}839. أي ما يودونه من مكر بموسى عليه الصّلاة والسّلام لم يتحقّق وذلك برفع الله إليه سالما، وأما مكر الله بهم: فإنه إلقاؤه شبَه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عزّ وجلّ عيسى قبل ذلك، وعليه فالمنتقم لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو يعلم السرَّ والنجوى، ولهذا مكر بمكرهم فأبطله ودمغه بالحقّ فإذا هو زاهق؛ (والله خير الماكرين) بمعنى أن مكر الله دائما هو لأجل الخير، ومن هم غيره مخلوقون، والمخلوق لا يقارن بخالقه أبدا، والخالق خَلق كل شيء من أجل الخير، والمخلوق في كثرته يفسد ما يراد له أن يكون من أجل الخير إلا المستخلفين فيها فهم مصلحون.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}840، إنه مكر الكافرين بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، لأجل أن يعيقوا مسيرته في الدعوة والهداية للحقّ، سواء بسحرك يا محمّد أو بقيدك وسجنك أو قتلك، وهذه بدائل يظنون أنها الكافية بذلك، ولكن يريد الله أن يتم دينه ونوره ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون والفاسقون مصداقا لقوله تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقّ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}841، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ

---

839 النساء 157.

840 الأنفال 29، 30.

841 الأنفال، 7، 8.

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}842، مهما مكر الماكرون بالفاعلين للخيرات لن ينجحوا في مكرهم، فمكرهم لابدّ وأن يفشل ويبور ولا يتحقّق له النجاح، فالنجاح لا يتحقّق إلا بالعمل الصالح. وعلى الخليفة أن يعمل صالحا في مرضاة الله ولا يخشى أحدا في ذلك مهما مكر الماكرون فالحقّ لابدّ وان يدمغ الباطل حتى يزهقه والحمد لله ربّ العالمين.

8 ـ المكيدون: قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}843. الذين يحيكون المكائد للرسول والذين آمنوا، من أجل أن يعيقوا مسيرتهم وهم مبشرون ومنذرون وداعون للدين الحقّن، وأولئك المعوقون هم الذين أصبح كيدهم في نحرهم، أي أن الله ناصر جنده ولا يخلف وعده، فكان كيده لكيدهم آية، فآمن من لم يُعتقد أن يؤمن، فمهلهم يا محمّد قليلا سيرون العذابين في الدنيا على يديك والمؤمنين وفي الآخرة عذاب الحريق، وسيرون النتيجة أنك المنتصر ومن معك بإيمان وأنهم لمهزومون.

9 ـ آكلوا الرّبا: قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرّبا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ

842 فاطر 10.

843 الطارق 15 ـ 17.

اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}844، فلننظر العلاقة القوية بين الذين يأكلون الرّبا وبين الذين يتخبطهم الشيطان من المس، أي سيكون الانتقام منهم كما ينتقم الشيطان من الذي مسه فيجعله يتخبط لا يملك زمام أمره فيضل سبيله وهو فاقد للإرادة التي تمكنه من أن يدرك حاله. قال تعالى: (يَمْحقّ اللَّهُ الرّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) المحقّ: إنقاص مع احتقار وتقليل شأن، فالله يقلل الرّبا ويحتقر صاحبه المنقوص عن الهداية للحقّ، ولذلك نهى الله عزّ وجلّ عن التعامل بالرّبا وبارك في الصدقات لتتضاعف حسناتها، وأحل البيع الذي فيه مكارم الأخلاق، ومن لم يهتدِ وعاد إلى ما كان عليه من كفر بالنعمة وحقّوق النّاس فالمنتقم سيكون له بالمرصاد فيجعل أولئك المتعاملين بالرّبا في نار جهنم وهو أعظم انتقام، وفي مقابل ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالذين سيحزنون هم أولئك الكفرة الفجرة الذين يتعاملون بالرّبا فهؤلاء كمن يأكل في بطنه نارا. وبعد الإيمان يجب ألا يتعامل المؤمن بالرّبا، فعليه بالاستغفار والتوبة ولا يعود إليه ثانية فالله غفور رحيم، ومن لم يتب بعد ذلك فسيكن حسابه عسيرا في الدارين في الدنيا من الله ورسوله والمؤمنين حقّا، وفي الآخرة سيكون من الخاسرين الذين خسروا الجنّة التي يفوز بها من اتقى ربه في الدار الدنيا.

10 ـ العصاة: قال تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

---

844 البقرة 275 ـ 281.

يَعْتَدُونَ}845 المنتقم باء بغضبه الكفرة وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، ولذلك فالغضب الحقّ يؤدّي إلى الانتقام المحقّ للحقّ. قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}846 اللعنة حكم مستمر حتى تنفيذ الحكم كفعل وهو العقاب الشديد وبذلك يحقّ الحقّ، ثم يكون العقاب بعد الحساب العادل والحمد لله رب العالمين.

11 . المطففون: قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النّاس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النّاس لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}847. الويل ضمان لحصول العقاب لا محالة، وهو حكم صادر في انتظار التنفيذ الذي لا يمكن أن يفلت صاحبه منه، والمطففون هم الخاسرون الذين يقللون في الوزن والمكيال. ولهذا فالخليفة هو الذي يتقي الله خوفا من أية مظلمة، وهو الذي يعلم علم اليقين أن المطففين هم الخاسرون، فلا يطفف في الميزان ولا ينقص المكيال، وإذا حكم بين النّاس حكم عدلا.

12 – الفاسقون: الفِسْقُ: الترك لأمر الله، الفِسْقُ، بالكسرِ التَّرْكُ لأَمْرِ اللهِ تعالى، والعِصْيانُ، والخُروجُ عن طَرِيقِ الحقّ848، وهو في

845 البقرة 61.

846 المائدة 78 ـ 81.

847 المطففين 1 ـ 6.

848 القاموس المحيط ج 3، ص 3.

الغالب الأعم يأتي بعد نعمة وفضل كبيرين ينعم بهما رب العزة ويقابلها بالجحود لا بالشكر، فالانتقام على هذا يأتي بعد عمل مستَحقّ للانتقام كمثل الخروج على النعمة مع عظم فضلها، فالعبد محتاج أيما حاجة إلى نعم الله فإذا رزقه البارئ حاجته ثم زاده وتفضل عليه بالبركة والزيادة نسي وأنكر ثم زاد بالخروج على أمر الله فسقا، ويفصل لنا المنتقم هذه المسألة التي تفسر الانتقام من الفاسقين: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}849، وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) في تفسير هذا الأمر قولان:

القول الأوّل: أنّ المراد منه الأمر بالفعل، ثم إن لفظ الآية لا يدلّ على أنّه تعالى بماذا يأمرهم فقال الأكثرون: معناه أنّه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات، ثم إنّهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون وقال صاحب «الكشاف»: ظاهر اللفظ يدل على أنّه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون، إلا أنّ هذا مجاز ومعناه أنّه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه، أنّ المأمور به إنما حذف لأنّ قوله؛ (فَفَسَقُواْ) يدل عليه؛ لأنّا نقول: إنّ المعصية منافية للأمر ومناقضة له، ففسق يدل على أنّ المأمور به شيء غير الفسق لأنّ الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورا بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أنّ المأمور به ليس بفسق، والمعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادا وأقدموا على الفسق أو أصروا على أفعاله.

849 الإسراء 16.

القول الثاني: في تفسير قوله تعالى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) أي أكثرنا فساقها. وأما المترف: فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش (فَفَسَقُواْ فِيهَا) أي خرجوا عمّا أمرهم الله به: (فَحقّ عَلَيْهَا القول) يريد: استوجبت العذاب، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله تعالى: (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ولهذا فالتدمير حقّ لأنه في مواجهة فسق، وعلى المستخلفين في الأرض أن لا يتأخروا عن أعمال الخير بما فيها تدمير الفاسقين والمفسدين وأوكار الفسق والفساد، أي أهلكناها إهلاك الاستئصال. والدمار هلاك على سبيل الاستئصال.

وظاهر الآية يدل على أنّه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون، وتدل سائر الآيات على أنه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}850، وقوله تعالى: {مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءامَنْتُمْ}851، وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُهلكي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون}852، ولهذا الإهلاك هو للمظالم والمفاسد ولأعمال الفسق في الأرض، فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدئ بالإضرار، والحاصل أن المعنى: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقّيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به853.

850 الرعد 11.

851 النساء 147.

852 القصص 59.

853 تفسير الرازي، ج 10، ص 21.

وجزاء الفسق الانتقام كما يخبرنا المنتقم في محكم آياته: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}854.

والنفاق هو وجه آخر للفسق، {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}855، فالمنافقون هم الذين يظهرون ما لا يبطنون، وهكذا أظهر البعض إيمانا وهم يكنون في صدورهم كفرا وشركا، وفي هذا الإظهار والبطون مخادعة مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}856 فالمنافق إنما يمكن له أن يخدع الكثير من المؤمنين بإسراره الكفر، ممّا يوقع الوهم في نفوس من حوله من المؤمنين، وقد يتمكن المنافق من إدخال الوهن إلى نفوس المؤمنين فيثبطونهم عن القيام بما أمرهم الله به من طاعة ومعروف، لذلك كان انتقام العزيز الحكيم

854 الزخرف 45-55.

855 التوبة 67.

856 البقرة 8 ـ 16.

منهم شديدا مخيفا ترتجف عند ذكره القلوب، يقول المنتقم محذرا ومخوفا: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} 857

الانتقام وأنواعه:

الانتقام هو سلب النعمة بالعذاب858، أي أن الانتقام يلي نعمة سابقة من منعم، ثم تُسلب هذه النعمة عقابا على ذنب عظيم، ويمكن تلمس الجحود والإنكار من قبل المنعَم عليه تجاه المنُعِم بنكران النعمة التي خوله إياها، وهذا ما استشعره الصالحون فوقفوا عند حده إحساسا منهم بقدرة المنتقم على سلب النعم، فعندما أدرك سيدنا سليمان عليه الصّلاة والسّلام بإمكان نكران النعمة بالنسيان والتغافل خاف المنتقم ففعل ما يوجب الشكر وذلك بالعودة عن ملاهي الدنيا إلى عبادة يتزود بها للآخرة قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}859.

وهذه النعم التي خول الله الإنسان الاستفادة منها سبقها عدم وفقر وعوز، ثم رزق الله الإنسان من نعمه، فإذا يقابلها كثير من الخلق بالنكران: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}860، هذه العلاقة بين المعطيات الثلاثة (عدم – نعمة - نكران) توضح المسبب

857 النساء 145.

858 الفروق اللغوية، ج 1، ص 77.

859 ص 30-33.

860 الزمر 49.

الأساسي لانتقام المنتقم بسلب هذه النعمة التي وهبت لمن عدم امتلاكها.

عليه يتضح أن فعل الانتقام مقصور على من وقع في مثل هذا السياق من الفعل، وأما من شكر ورضي وعبد فأولئك لا يصيبهم الانتقام: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}861.

وهذا الانتقام عندما يحل فإنّه لا يدفع بأي وسيلة من الوسائل، فلا يمكن للمُنتقم منه أن ينتصر بأي حال من الأحوال، فلا يستطيع الانتصار لنفسه: {فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}862، ولا يمكن لغيرة أن ينصره وإن رغبوا في الانتصار له: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}863، والمنتقم يتحدى من يتحداه فينزل انتقامه بالمستحقّ من عباد وهو يعلم أنّه لا يرد، وفي آيات الانتقام تحدٍ واضح لمن يريد أن يكفر بأنعم الله وفيها أيضا عبرة للمؤمنين تجنبهم الوقوع فيما وقع فيه المستحقّون للانتقام، فهذه نعمتنا وهذا انتقامنا وتفكروا يا أولي الألباب، ولعل القصة التي يذكّرنا بها المنتقم في سورة الكهف حجة دامغة على استحقّاق الانتقام بكل صوره لمن يكفر بالله: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ

861 الانفال4 .

862 الذاريات 44-45.

863 القصص 81.

وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قوّة إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}864، فهذا العبد كفر بنعمة الله التي خوله إياها وتفضل عليه دون غيره، ثم قابل ذلك بنكران وإجحاف، هنا الانتقام منه حقّ لرد الاعتبار للمؤمن الذي حُرم من ذلك وهو في شكر مستمر لربه الرّحمن الرّحيم.

ولهذا الانتقام صور غاية المنتقم من ذكرها إعطاء خليفته على الأرض حجة التذكير والتخويف والردع عن كل ما يكره المنتقم، وبالتالي يمكن له أن يتجنب هو، ويسعى لأن يتجنب غيره كل موجبات الانتقام.

وأوّل ما يشير إليه المنتقم سبحانه هو أنّ نوع الانتقام من جنس العمل الموجب له، كما ينص عليه المنتقم في كتابه الحكيم: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

864 الكهف 32- 43.

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}865، وأنواعه التي ذكرها المنتقم في هذه الآية الكريمة هي:

1 . الحصب: الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصبا، ومنه قول الأخطل:

وَلقدْ عَلِمْتُ إذا العِشارُ تَروَّحَتْ. .. هَدَجَ الرّئالِ يَكُبُّهُنَّ شَمالا

تَرْمي العِضَاهَ بحاصِبٍ مِن ثَلْجِها...حتى يَبِيتَ على العِضَاهِ جُفالا.

وقال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّأْمِ تَضْرِبُنا... بحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

(فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) وهم قوم لُوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجّيلٍ مَنضُود.

2 – الصيحة: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ}866، {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ}867، ويلاحظ أن الانتقام بالصيحة يقترن بالإفاقة فهو في الصباح وبعد الشروق ولعلنا نلتمس لذلك تأويلا، فهو يحل بهم وقت انتباههم ليعلموا أن هو الحقّ من ربهم، ولو حل بهم ليلا وهم نيام لأصابهم الهلاك من هول الصيحة ولما يعلموا حقّيقة ما أصابهم من انتقام المنتقم.

3 – الخسف: قال تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ) الذي خسفت به الأرض هو قارون.

865 العنكبوت 40.

866 الحجر 72-73.

867 الحجر 83.

4 ـ الإغراق: قال تعالى: (وَمِنْهُم مَّنْ أغْرَقْنا) يعني: قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام، وقد يكون أيضا فرعون وقومه الذين اتبعوه على الضلال.

هذه أنواع من الانتقام الشديد والمتأمل على سبيل تخيل وقوعه ليجزع جزعا شديدا وليمتلكه خوف بادي مع يقين بأحقّية هؤلاء لمثل هذا الانتقام، فقوم لوط كانوا يصرون على الإتيان بما يخالف الله، وما يخالف فطرتهم التي ذكرهم بها نبيهم: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}868، ولابدّ من تفسير عرض لوط عليه الصّلاة والسّلام بالتفصيل ردا على ما يدعي بعض أعداء الإسلام من السوء على أنبياء الله، والمراد نساء أمته؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأوّل: إنّ إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء.

الوجه الثاني: وهو أنه قال: (هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم. أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل. كما صحت الرواية أنه كان له بنتان، وهما: زنتا، وزعورا، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة. وقد دعاهم عليه الصّلاة والسّلام إلى التزوج بهن، وفيه قولان:

أحدهما: أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان.

---

868 هود 78.

والثاني: أنّه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنّه عليه الصّلاة والسّلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الرّبيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك بقوله: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الجنّة وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}869، لكنهم أبوا وعصوا أمر الرّسول فحقّ الانتقام من هؤلاء: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}870، وميزة هذا الانتقام- إضافة إلى ما ذكرنا من شدة وهول- أنه حاضر لكل من يخرج عن طاعة الله ظلما وعدوانا على حدود الله وحقّوق العباد وفي كل زمان ومكان، وهذا ما يخبر به المنتقم منبها ومخوفا للنفوس المريضة وواعظا للخليفة ومن معه من أصحاب النفوس المؤمنة: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}871.

وقد يكون يحل انتقام الرجم دون القلب كما حدث مع أصحاب الفيل وفي ذلك تقدير من العزيز الجليل، فالمكان الذي حل الانتقام بهم فيه بالقرب من مكة ولا يمكن أن يصيبه أمر القلب لان فيه بيت الله، كما أن الذنب الموجب للانتقام مخصوص بمرتكبيه وهم أصحاب أبرهة، أما أهل مكة فليسوا ممن ارتكب هذا الجرم العظيم لذلك لم يصبهم ومن هنا نتبيّن أن الانتقام لا يكون إلا حقّا لمن يتعدى حدود الله فكان

869 البقرة 221.

870 الحجر 74.

871 هود 82-83.

الانتقام بالرجم بحجارة السجيل فقط مصداقا لقوله تعالى: {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}872.

وإلى جانب ما ذكرناه هناك جنود مسخرون دائما لتنفيذ أمر الله بالانتقام ممن يحقّ القول عليهم بالنّار وهؤلاء الجنود الكرام كثرة لا يعلمها إلا هو عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}873.

وكذلك المطر، وهو من نعم الله على البشر وهو في نفس الوقت من جنوده التي لا يعلمها إلا هو من كثرتهم، قال تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}874، وذلك إرسال الله عليهم حجارة من سجيل من السماء. (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذّبوه. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً) إنّ في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا، لعبرة وموعظة لقومك يا محمّد، يتعظون بها في تكذيبهم إياك. وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}875.

وكذلك الصاعقة: التي تسقط من السماء فتضر بمن تقع عليه، وهي الصوت الشديد المكهرب، وقد اختص بها المنتقم قوما بعينهم وهم قوم ثمود الذين هداهم الله فلم يستمعوا ولم يعوا بالرغم من إنذار نبيهم المسبق من هذا الانتقام، لكنهم أصروا وأبدلوا الهدى بالضلالة: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ

---

872 الفيل 4.

873 المدثر 31.

874 النمل 58.

875 الفرقان 40.

الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}876، وهو انتقام مذهل في كونه يحل بالتوازي مع الذنب في إشارة لا تخفي على المؤمن على أنه انتقام العليم الخبير، فأصحاب موسى تكلموا ورفعوا أصواتهم مطالبين برؤية الله جهرةً ظلما من عند أنفسهم فحل بهم الانتقام موازيا لذنبهم بصوت الصاعقة الذي لا يوازيه في قوته صوت: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}877.

وانتقام الصاعقة كما يصفه المنتقم شديد وخاطف ولا يرد، إنذارا من المنتقم للعباد لكي يحرصوا على عدم العمل بموجبات حلوله فيهم: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}878.

وكذلك الريح التي انتقم بها المنتقم من أعدائه أنواع، فمنها الريح الصرصر وهي الشديدة البرودة مصداقا لقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}879، وشدة هذه الريح تُبيّن نوع الذنب الموجب لمثل هذا الانتقام، فهي شديدة لتوازي شدة إصرار القوم على الكفر والعصيان بعد الآيات والنذر: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}880، ونوع آخر هو الريح العقيم التي لا تُلْقِحُ شجرا ولا تَنْشِئُ

---

876 فصلت 17.

877 البقرة 55.

878 الذاريات 43-45.

879 فصلت16.

880 الحاقة 6-8.

سَحابا ولا مَطَرا881: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}882. إنها الريح التي تدمر ولا تعمّر، لم تكن تلك المسخرة بحبيبات اللقاح أو المشبَّعة بالماء أو الناقلة السحب للأرض الجرز. ومع ذلك فإن النتائج المترتبة على الريح العقيم هي رحمة من الرّحمن الرّحيم على عباده المستخلفين فيها، وذلك لأنها هالكة للمهالك والذين ورائها، فهي لم تكن مرسلة على المستخلفين فيها، بل هي المرسلة على المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حقّ وهذه رحمة من المنتقم العظيم.

وكذلك البطش وهو الأخذ الشديد في كل شيء: بطش به. والله ذو البطشِ الشديد، أي: ذو البأس والأخذ لأعدائه883، وهذا النوع من الانتقام موازي لذنب يرتكبه العتاة من البشر كما وصفهم المنتقم في قوله تعالى: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}884، فكان الانتقام ببطش أشد من بطشهم: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}885.

وبعد فانتقام المنتقم ما حل بقوم إلا بعد نعم أنعمها ثم قوبلت بالكفر، وأمثلته كثيرة منها ما حل بقوم سبأ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ

881 معجم العين 1، 41.

882 الذاريات 41-42.

883 معجم العين، ج 2، ص 236.

884 الشعراء 130.

885 الدخان 16.

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}886

ومنهم قوم نمرود: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}887، ومعنى أتى الله بنيانهم استعارة بتشبيه القاصد للانتقام بالجاني نحو المنتقم منه، وقوله تعالى: (فأتى الله بنيانهم من القواعد) تمثيل لحالات استئصال الأمم، فالبنيان أي المبنى، وهو هنا مستعار للقوّة والعزّة والمنعة وعلوّ القدر. وفي إرسال سير العرم عَليهم آية على انفراده تعالى بالتصرف، وعلى أنه المنتقم وعلى أنه واحد، فلذلك عاقبهم على الشرك وما ارتكبوا من مظالم ومفاسد في الأرض.

والمنتقم يوعد من يعاديه بانتقام في الدنيا وفي الآخرة، وصور انتقام الآخرة أكثر هولا من صور انتقام الدنيا، يقول المنتقم سبحانه: {إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما}888، والأنكال هي القيود التي لا يفلت منها فالت، والجحيم من حطب جهنم، والطعام ذو الغصة لِما فيه من معطيات الرفض لتناوله، الذي يمزق الحلوق مع شدّة اللألم ومرارة المذاق وصعوبة البلع، والعذاب الأليم، هو العذاب الشديد المملوء بالأوجاع القاسية على أن تطاق، وهذه كلها جزاء مناسب لأولي النعمة، الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم عليهم بها.

ولأنّ في الآيات السابقة القول الرّباني موجه إلى سيدنا محمّد صلوات الله وسلامه عليه فقال له بما في معناه: فاصبر يا محمّد عليهم

886 سبأ15-16.

887 النحل 26.

888 المزمل 12-13.

صبرا جميلا، ودعهم فإنّ عندنا قيودا تنكل بهم وتؤذيهم، وجحيما تحجمهم وتصليهم، وطعاما تلازمه الغصة في الحلق، وعذابا أليما في يوم مخيف، ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف فيقول تعالى: {يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا}889.

قال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}890، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}891، وصفهم المنتقم، بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أياما أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية، روي أنه عليه الصّلاة والسّلام كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميما على الكفر وتماديا في الغي، فقال تعالى: (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي ألعمي) يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وهذه علامة كفر تستوجب الانتقام، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين.

---

889 المزمل 14.

890 الزخرف 40-41.

891 الزخرف 36.

ولما بيّن تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال: (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ) يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم (فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ) بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك، واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه الصّلاة والسّلام لأنه تعالى بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدى الراحتين، ثم بيّن أنه لابدّ وأن ينتقم لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته، وذلك أيضا يوجب التسلية، فبعد هذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالى، فقال: {فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ}892، أي استمسك بالحقّ المبين الذي لا يدخله باطل وتوكل على الله في تمسكك به.

ويأتي الانتقام بصيغ غير مباشرة، وبغير لفظة الانتقام، ففي قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}893، قال سفيان الثوري وهو شديدُ المِحال بمعنى شديد الانتِقام894.

وقد يشار إلى معناه كما في قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا}895، والمعنى نهاهم عن الطمع الذي يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى، وبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم

---

892 الزخرف 43.

893 الرعد 13.

894 لسان العرب، ج11، ص 616.

895 النساء 127.

الله، فَمَنْ راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميل الجزاء، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء896.

وبعد فإنّ الانتقام حقّ، له شروطه ليكون حقّ، وله صوره ولكل مستحقّ انتقامه الذي يليق بفعله، لذا فإنّ الخليفة مكلف بالقيام بالانتقام الحقّ الذي يتبع خطوات المنتقم الحقّ، في غاياته وصوره، ويجب أن يعرف أنّ هناك انتقاما باطلا يجب أن يحذر الوقوع فيه فيكون من الذين كذبوا بالحقّ فيحل عليه انتقام المنتقم الحقّ: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}897.

الانتقام في أساسه فعل لإحقّاق الحقّ، فمن اتبع الحقّ في انتقامه كان من المستخلفين فيها الذين يصلحون ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حقّ، ولا يجوز تسمية من يقترف ذنبا ويظلم به آخرين أن نسميه انتقاما، بل أن صفة الفعل التي تنطبق معه هي الظلم وفاعله ظالم، ولهذا المنتقم هو الذي لا يظلم أحدا، إما الظالم فهو الذي يتجنى على الآخرين بغير حقّ ويرميهم بما ليس فيهم ويرميهم بما لم يرتكبوا، ممّا يستوجب الانتقام منه لأجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ولأنّ الانتقام فعل خير فهو المستمد من المنتقم المطلق لكل خير، الله تعالى لا يمكن أن يظلم أحدا، الذي يظلم هو الذي لم يهتد إلى الأفعال الحسان، ولهذا فالفرق كبير بين من يفعل الأفعال الحسان حتى يتصف بها، وبين الذي يرتكب أفعال المظالم حتى يتصف بها، ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

---

896 تفسير القشيري 2، 43.

897 الزخرف 25.

الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}898، جاء استفسار الملائكة المكرَّمين للتبيان من الذي سيكون خليفة المصلح أم المفسد! وهم بهذا التساؤل ولثقتهم بأنفسهم أنهم لم يكونوا من المفسدين، والأرض بطبيعتها تتطلب المصلحين، فكانت الإجابة، في قوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ).

وعليه فالخليفة هو من التزم بتعاليم الله، وهي التعاليم الثابتة التي نزلت آيات مفصَّلات لأولي الألباب، وهي المحتوية والمتضمنة في الكتاب المحفوظ الذي لا يأتيه الباطن من بين يده ولا من خلفه. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

898 البقرة، 30 ـ 37.

بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}899.

ولأنّ الانتقام رحمة فمن فعله نال من الدرجات الحسان التي يثيب الله عليها، اللهم أجعلنا من المحسنين ولا تجعلنا من المفسدين فيها ولا سافكي الدّماء بغير حقّ، واجعل لنا الحقّ واجعلنا لإحقّاقه ناصرين، ولا تجعلنا من المنتقم منهم واجعلنا من الذين ينتقمون من الباطل حتى يُحقّ الحقّ ولا يظلم ربك أحدا.

المنتقم عزيز والعزيز لا يقدم على الأفعال غير المبررة بموجبات الانتقام، ولذا فهو المِقدِم على الأفعال العظام، التي على رأسها إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل. ولذا فالانتقام فعل خير لا يقدم عليه إلا خيرون، والخيرون هم المصلحون في الأرض أي أنهم المستخلفون فيها، قال تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}900، وقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}901. رب العزة لا يستخلف إلا

---

899 فصلت 40 46.

900 يونس 65.

901 الصافات، 80 . 82.

عزيزا، والعزيز يأبى أن يكون كافرا ولا مشركا ولا ظالما ولا مجرما، بل إنه العادل الحقّ بما أمره الله تعالى والمنتهي عمّا نهاه عنه.

هلاك قوم لوط:

عندما بلغ الضّيق ذروته، وقال النّبي لوط كلمته، تحرّك ضيوفه ونهضوا فجأة، وأفهموه أنّه يأوي إلى ركن شديد (ركن الله) فقالوا له: لا تجزع يا لوط ولا تخف، نحن ملائكة، ولن يصل إليك هؤلاء القوم، (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)، أي: التفتت الملائكة إلى لوط وأصدروا إليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، وسيرى ماذا يحدث بهم، ولا يلتفت منهم أحد كي لا يصيبه ما يصيب القوم. ثمّ أفهموه أنّ امرأته كانت من الغابرين؛ فهي مثلهم وستلتفت خلفها ليصيبها ما أصابهم.

سأل لوط الملائكة: أينزل الله العذاب بهم الآن؟ فأنبئوه أنّ موعدهم مع العذاب هو الصبح؟ {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}902 ومن ثمّ فقد انتهى قوم لوط تماما ومحيت مدنهم. ويقال إنّ البحيرة الحالية التي تعرف باسم (البحر الميت) هي مدن قوم لوط السّابقة. هكذا دائما الفساد يربو رباء حتى ينتهي ألما، وهكذا تطوى صفحات الفساد، ولكن يا ليت النّاس يتعظون ويعتبرون.

قال تَعَالَى: {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}903، وفسّر

---

902 هود 81.

903 التوبة 70.

الْمُؤْتَفِكَات بقوله: ائتفكت انقلبت بهَا الأَرْض وهم قوم لوط، وَفِي التَّفْسِير: والمؤتفكات قرى قوم لوط، عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَانُوا يسكنون فِي مدن وَأمّهَا سدوم وأهلكهم الله عَن آخِرهم بتكذيبهم نَبِي الله لوطا عَلَيْهِ السَّلَام، وإتيانهم الْفَاحِشَة الَّتِي لم يسبقهم بهَا أحد من الْعَالمين، وَأَصله من أفكه يأفكه أفكا إِذا صرفه عَن الشَّيْء. وَقَلبه، وأفك فَهُوَ مأفوك والآفكة الْعَذَاب الَّذِي أرْسلهُ الله على قوم لوط فَقلب بهَا دِيَارهمْ، والبلدة مؤتفكة وَتجمع على مؤتفكات904.

قال تَعَالَى: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ}905 فقَوْله: (وقضينا إِلَيْهِ) أَي: أَوْحَينَا إِلَى لوط عَلَيْهِ السَّلَام، (بِأَنّ دابر هَؤُلَاءِ)، أَي: قومه مَقْطُوع أَي: مستأصل. قَوْله: (مصبحين) أَي: حَال كَونهم فِي الصُّبْح. أَشَارَ بِهِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: (فَأَخَذتهم الصَّيْحَة مشرقين) وَفسّر الصَّيْحَة "بالهلكة، وَهَكَذَا فَسرهَا أَبُو عُبَيْدَة. قَوْله: (مشرقين) أَي: حِين أشرقت الشَّمْس عَلَيْهِم وهم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَام"906.

علاقة لوط بإبراهيم:

بعد انتصار لوط توجه إلى إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، وقصّ عليه نبأ قومه، ولكن ما أدهشه أنّ إبراهيم كان يعلم. ومضى لوط في دعوته إلى الله مثلما مضى إبراهيم في دعوته إلى الله، فالاثنان أنبياء المصطفين ينشران الإسلام بين الأقوام والشعوب.

لوط عليه السّلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السّلام , آمن به وآزره وهاجر معه حين أذوه قومه إلى أرض الشّام , قال عزّ وجلّ عن

904 عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 18، ص 255.
905 الحجر 66.
906 عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 19، ص 8.

إبراهيم عليه السلام: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}907؛ فلمّا قدم لوط مع أبراهيم عليهما السّلام إلى أرض الشام بعثه الله عزّ وجلّ إلى أهل قرية "سدوم" وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له, ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والمآثم والمحارم والفواحش التي لم يسبقهم بها أحد من بني آدم كما بيّنا ذلك.

أرسل الله عزّ وجلّ ملائكته الكرام إلى إبراهيم ولوط عليهما السّلام؛ فجاءوا إلى إبراهيم مبشّرين، وإلى لوط منقذين. {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}908 أي أنّ إبراهيم قد حاول مجادلتهم في قوم لوط، وهو لا يدر أنّه لا سبيل إلى هدايتهم؛ فقد استحبّوا العمى على الهدى ورضوا بأسافل الأخلاق وأراذل الأفعال, وصار يُجادل الملائكة في ذلك قائلا: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}909؛ فطمأنته الملائكة: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ), عند ذلك سكنت نفس إبراهيم عليه السّلام وسكن روعه، ثمّ حسمت المجادلة والمناقشة بقول الملائكة: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}910 أي: دعك من هذا الجدال وأعرض عنه وتكلّم في غيره فإنّه قد جاء أمر ربّك بإهلاكهم فلا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه ففوّض الأمر إليه؛ فهو سبحانه يعلم الظّاهر والباطن.

---

907 العنكبوت 26.

908 هود 74، 76.

909 العنكبوت 32.

910 هود 76.

قد صدَّق لوط بدعوة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام واهتدى بهديه وهاجر معه، قال الله تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}911، وهذه هجرتهما من العراق إلى فلسطين والأردن حيث بعثت لوط لأهل سدوم قرب البحر الميّت. نزل لوط إلى سدوم من بلاد الأردن، التي اتصف أهلها بالرذائل حتى أنّهم يأتون الرّجال شهوة من دون النساء ولما دعاهم إلى ترك الرّذائل عصوا رسولهم فنزل بهم العذاب912.

أهم المشاهد من حياة لوط:

1 . إيمانه برسالة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام.

2 . نبي رسول.

3 . متطهّر، (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

4 . هاجر مع إبراهيم من العراق إلى فلسطين.

5 . اصطفائه نبيا ورسولا لأهل سدوم وعمورة بالأردن.

6 . دعوته لقومه ونصحه لهم بالحياد عمّا هم فيه من كفر.

7 .كفر قومه برسالته.

8 .كان منذرا لقومه.

9 . نبي لا عصبة له كونه لم يكن من أهل سدوم وعمورة.

10 . القوم الذي بعث لهم أهل شذوذ جنسي.

---

911 العنكبوت 26.

912 المعلم بفوائد مسلم، 1، ص 550.

11 . قومه عصاة.

12 . قومه بلا قدوة؛ فلا يتعظون ولا يعتبرون (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ).

13 . قومه قطّاع طرق؛ فلا يَدَعون مسافرا أو تاجرا يمر في طريقهم إلاَّ آذوه، واعتدوا عليه وسلبوه ماله.

14 . أرسل الله إليه الملائكة ضيوفا مكرّمين (مبشرين ومنقذين).

15. هجم القوم عليه رغبة في ضيوفه المكرّمين.

16 . أخبره الملائكة بحقّيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها، وبأنّ القوم لن يصلوا إليهم.

17 . أمر لوط بالخروج ومن أمن معه من القرية التي فسد أهلها.

18 . نفّذ أمر الخروج ليلا.

19 . أنزل العذاب والعقاب بهم صباحا.

20 . أمطرت القرية حتى انتهت من الوجود، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}913

مهاجر بأهله:

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: خَرَجَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَعَهُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام فَاحْتَبَسَ عَلَى النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام خَبَرُهُمْ فَكَانَ يَخْرُجُ يَتَوَكَّفُ عَنْهُمُ الْخَبَرُ فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَأَخْبَرَتْ أَنَّهَا رَأَتْهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

913 الأعراف 84.

«صَحِبَهُمَا اللَّهُ، إِنَّ عُثْمَانَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ"914

ولما أرادَ سيّدُنا إبراهيمُ الهِجرةَ من أرضِ بابلَ قرّرَ لوطٌ أيضا أن يُهاجِرَ معه، ولما وصَلَت القافلةُ إلى أرضِ سَدُوم أمرَ سيّدُنا إبراهيمُ لوطا أن يَسكُنَ في تلك القُرى، ويَدعو أهلَها إلى عبادةِ الله وحده لا شريك له، ولا شيء يعبد من دونه.

فالنبي لُوطٌ عليه السّلام من أرضِ بابلَ آمَنَ بسيّدِنا إبراهيمَ. وعندما أرادوا إحراقَ سيّدِنا إبراهيمَ بالنّار قالَ: إنّي مُهاجِرٌ إلى ربّي، فهاجَرَ مع إبراهيمَ إلى الأرض المقدّسةِ فلسطين.

في الطريقِ أمَرَ إبراهيمُ لوطا أن يَسكُن في أرضِ سَدُوم ليدعو أهلَها إلى دينِ اللهِ، هناكَ عاشَ لوط عليه السّلام، وهناك تَزوّجَ ورَزَقهُ الله بناتٍ مُؤمنات. وأهلُ سَدُوم كانوا يعيشونَ على الزراعة والرعي، ولكنَّ أخلاقهم ساءت وأصبَحوا يَعملونَ المنكَر؛ فيَقطعون الطَّريقَ على المِسافرين، ويُصادِرونَ أموالَهُم ويَنتَهكونَ أعراضَهُم.

ولهذا وجب الإصلاح؛ وكانت الرّسالة للوط عليه الصّلاة والسّلام الذي عاش في وسطِهم وكأنّه في وسط الجَحيم من مرارة وآلام ما يعملون، حتى أصبحت تلك الأعمالُ جُزءً من تقاليدِهم الاجتماعية؛ فلا يخجلون ممّا هو مخجل.

كانَ لوطٌ عليه السّلام يعيشُ غريبا بينهم، وهو المتعبّد (يَعبد اللهَ وحدَه)، ولهذا كان أهلِ سَدُوم يكرهونَ لوطا، ولكن مشيئة الله غالبة؛ فلا شيء يمّسه منهم.

---

914 مهاجر بأهله، الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، 5، ص 376.

وعندما جاء حكم الله فيهم وجب الرّحيل، وكانت السّاعاتِ الأخيرةَ من تلك الليلة، فكانَ على لوطٍ أن يُغادرَ أرضَ سَدُومَ قبلَ حُلولِ الغَضَب؛ فأمَرَ النبي لوطٌ عليه السّام أسرتَهُ أن تَستعدَّ للهجرة ولمغادرةِ القريةِ في قَلبِ الظلام (في مُنتَصفِ الليل).

كانَ عليه أن يَرحَلَ ويأخُذَ معه أُسرَتَهُ وماشِيَته بَعيدا.. سادَتِ الفَوضى أهلَ سَدُوم.. وغادَرَ لوطٌ وأُسرَتُه القريةَ على عَجَل، واختَفي لوطٌ خَلفَ التِّلال. ثمّ أطلّ الصباحُ وأشرَقَت الشمس ولا أثرَ لِقُرى سَدُوم.

قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم}915.

وقال تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}916

وعليه: كان لوط عليه السّلام:

---

915 الشعراء 160 . 175.

916 العنكبوت 28 . 30.

1 . رسول، (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ).

2 . أمين، (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ).

3 . داعي الله المناصرة، (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).

4 . منذر، (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ).

5 . مستجاب الدّعاء، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، وقال تعالى: {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}917، "طلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم فعند ذلك دعا عليهم وسأل ربّ العالمين أن ينصره على القوم المفسدين؛ فاستجاب الله لدعوته"918

6 . داعية لتقوى الله، (فَاتَّقُوا اللَّهَ).

7 . ناهٍ عمّا يفسد الأخلاق، فقال: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ) وقال: (وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ).

8 . متحدٍ، (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ). يعنى ممن له مساهمة مع المتقين في هذه الصفة، "وأنّ الوصف كاللقب المشهود له، وإنما جعل المتقي من يدع ما لا بأس به حذرًا لما به بأس"919

9 . ناجٍ، (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ).

---

917 العنكبوت 34.

918 الفتح الرّباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، 20، 62.

919 شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقّائق السنن، 7، ص 210.

10 . بيته من المسلمين، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}920 قَالَ: لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْنَتَاهُ"921.

بنات لوط:

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما هلك قوم لوط، مضى لوط عليه السّلام وبناتُه يريدون الشام، فماتت الكُبَرى من بناته، وكان يقال لها: (رَيَّة)، فدُفنت عند عين هناك، فسميت باسمها: عين رَيّة، ثمّ ماتت بعد ذلك الصّغرى، وكان اسمها: زُغَر، فدُفِنت عند عين، فسميت: عين زُغَ"922.

وهنا لم نكن على معرفة بغيرهما وإن عرفنا أنّ أهله من المؤمنين، قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}923، والمراد هما: أهل لوط عليه السّلام؛ فوصفهم تارة بأنّهم مؤمنون وتارة بأنّهم مسلمون"924. ومن هنا؛ أقول: هناك فرق من حيث المفهوم بين يدل عليه الإيمان وبين ما يدل عليه الإسلام وفقا للآتي:

الفرق بين الإيمان والإسلام:

الإيمان يؤسّس له بتخلي العبد عن كلّ ما هو باطل، والالتصاق بكل ما هو حقّ، وهذا يجعل الإنسان يرفض كلّ ما يناقض العقل فيتحرر من تعدد الباطل المتمثل في (أسماء آلهة وأرباب) مصداقا لقوله

---

920 الذاريات 36.

921 مصنف ابن أبي شيبة، 6، 331.

922 الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، 2، 162.

923 الذاريات 35، 36.

924 شرح أبي داود للعيني، 2، ص 486.

تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}925، وقوله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}926، وينفي الباطل بكلمة واحدة: (لا إله).

ثمّ يدخل الإنسان حصن الحقّ الذي لا يأتيه الباطل بكلمة تُثبِّت الحقّ: (لا إله إلا الله) اقتداء وإئتساءً بـ(محمّد رسول الله). فتجتمع شهادة (لا إله إلا الله محمّد رسول الله)، فينفي الإنسان باطلا لا أساس له، ويثبت حقّا هو الأساس، ليثبت به في الدنيا والآخرة باجتماع نفيه واستثنائه (لا إله إلا الله) ولا يكتمل تحقّق ذلك إلا بإغلاق باب النبوّة على خاتمها (محمّد رسول الله) فلا إله إلا الله مفتاحها محمّد رسول الله، ولا إله إلا الله حصن المؤمن، وهذا الحصن إن دُخل أمن من فيه بمن فيه، قال الله تعالى في كلمة الثبات والإخلاص الكلمة الطيبة: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}927؛ فكلمة الإيمان تنبت أحسن الشّجر وتثمر أطيب الثّمر، وتصل بين العبد وربّه وتدخله مدخل الصدق في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

925 النجم 23.

926 يوسف 40.

927 إبراهيم 24-25.

أمّا كلمة الكفر فهي خبيثة لا أصل لها تُجتثُ، وصاحبها ليس لها في الأرض قرار إنّما قرارها جهنم وبئس المصير، {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}928.

أثر الكلمة الطيبة:

قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}929، ففيها الثبات والأمان وهذا ما أكده النبي صلّى الله عليه وسلّم؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني فمن دخله أمن عذابي"930.

وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "يا معاذ بن جبل ما من أحد يشهد ألا اله إلا الله وأنّ رسول الله صدقا من قلبه إلا حرّمه الله على النّار، قال يا رسول الله أفلا اخبر النّاس فيستبشروا قال إذا يتكلوا"931.

فهذه الكلمة التي تصلح وتثمر لأنّها زرعت في قلب خِصب رضي بالتوحيد أصلا وبالإيمان يقينا وبالإسلام عملا وشريعة، أمّا من مال وغيّر؛ فهو كالأرض البور التي لا تصلح لأنّها بور لا يثمر فيها إلا الخبيث وقد صورهم الله بقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَار}932.

ولسائل أن يسأل:

---

928 إبراهيم 26.

929 إبراهيم 27.

930 مسند الشهاب القضاعي ج 5 ص 167.

931 كنز العمال – ج 1 ص 47.

932 إبراهيم 28-29.

لماذا يدخلون النّار؟

لأنّهم كما قال الله تعالى: {جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ}؛ فأهل البور كفروا وأثبتوا المنفي، وأدعوا أنّ هناك أندادا لله، ولكن الله متعالٍ؛ فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فيقول الله لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}933.

ولهذا فالإيمان بالله يتبعه سلسلة من الإيمان كلّها غيب، ومن يؤمن بعلّام الغيوب الله ومع أنَّ، قال الله تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}934. وهذا الغيب هو شهادة عند الله، أشهدها لبعض خلقه، وأشهدهم عليها، قال الله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}935.

وبعد اليقين بالغيب يأتي الإيمان، وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}936.

ومن هنا يمكن أن نبيّن مراتب الغيب، وهي: (الملائكة، والكتب والرّسُل).

---

933 إبراهيم 30.

934 البقرة 1-5.

935 آل عمران 18.

936 البقرة 285.

وزاد النبي صلّى الله عيه وسلّم كما جاء في الحديث: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام فَجَاءَهُ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ مُقَوَّمٌ حَسَنُ النَّحْوِ والنَّاحِيَةِ فَقَالَ: أَدْنُو مِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (ادْنُ) ثُمَّ قَالَ: أَدْنُو مِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (ادْنُ) فَلَمْ يَزَلْ يَدْنُو حَتَّى كَانَتْ رُكْبَتُهُ عِنْدَ رُكْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام ثُمَّ قَالَ: أَسْأَلُكَ؟ قَالَ: (سَلْ) قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ» قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا مُسْلِمٌ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ) قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: صَدَقْتَ، فَجَعَلْنَا نَعْجَبُ مِنْ قَوْلِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقْتَ كَأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالجنّة وَالنّار وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا مُؤْمِنٌ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ) قَالَ: صَدَقْتَ، فَجَعَلْنَا نَعْجَبُ مِنْ قَوْلِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقْتَ ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي مَا الْإِحْسَانُ قَالَ: «أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: صَدَقْتَ ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ هُنَّ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ}937؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: صَدَقْتَ"938

وعليه فإنّ مفهوم الإيمان غير مفهوم الإسلام؛ فالإيمان أن تؤمن:

1 . بالله تعالى.

---

937 لقمان 34.

938 مسند أبي داود الطيالسي، 1، ص 24.

2 . بالملائكة.

3 . بكتب الله.

4 . برسل الله.

5 . بالبعث.

6 . بالجنّة.

7 . بالنّار.

8 . القدر خيره وشرّه.

أمّا الإسلام أن تسلك ما يرسّخ الإيمان ويجسده حقّيقة فعلا وعملا وسلوكا، فتسلّم بالآتي:

1 . أن تشهد الحقّ وهو (لا إله إلّا الله محمّد رسول الله).

2 . إقامة الصّلاة.

3 . إيتاء الزكاة.

4 . حجّ البيت.

5 . صوم رمضان.

وعليه؛ فمن حيث الأولويّة الإيمان أوّلا، ثمّ الإسلام، ذلك لأنّ الإيمان هو (المعتقد) أمّا الإسلام فهو (التسليم به)، ومن هنا يكون الإيمان بالمنبِئ، والمنبَّئ له (الرّسول)، وبالنبأ العظيم، أي الإيمان بالمعجز الذي لا يُفعل ولا يكون إلّا بأمر الله تعالى، أمّا الإسلام فيفعل من قِبل من بلغ عقله وقلبه الإيمان، ولهذا يتجسّد في الفعل والعمل والسّلوك، ومن هنا، يصبح الإسلام العمل بالصّالح والنافع والمفيد والمفضّل.

الأساس العملي للإسلام:

ونقصد بالأساس العملي الجانب التطبيقي لما آمن به الإنسان ويظهر ذلك في العبادات التي هي أركان الإسلام، لأنّه في العقيدة لا إيمان بلا إسلام وعليه فلا يظهر الإيمان إلا أركان الإسلام، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ محمّدا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"939.

وأركان الإسلام هي التي لابدّ من إقامتها ليتحقّق الإيمان في قلب الإنسان، وعليه؛ هناك من يرى الإسلام يسبق الإيمان، وهناك من يرى الإيمان يسبق الإسلام، والبعض الآخر قد يرى أنّهما المتوحّدان، كونهما في دائرة واحدة يمكن أن تبدأ من أي نقطة فيها فتكون هي البداية في الوقت نفسه يمكن أن تكون هي النهاية، مثل المسبحة فأيّ مفردة فيها يمكن أن تكون البداية والنهاية في آن واحد، ونعتقد أنّه من المهم الوقوف مع هذا الموضوع لنتساءل:

هل الإسلام يسبق الإيمان؟

أم الإيمان يسبق الإسلام؟

أم الإيمان والإسلام متلازمان؟

كل هذه التساؤلات صحيحة، فالإسلام يسبق الإيمان في حالة من يدخل الدّين استسلاما، ثم يدخل الإيمان في قلبه إرادة، وهذا الأمر متحقّق في حالة الأعراب الذين دخلوا الإسلام بعد أن انتشر واشتد عوده، فأسلموا وامتنوا على رسول الله عليه الصّلاة والسّلام بأنّهم دخلوا

939 صحيح البخاري ج 1 ص 11.

الإسلام، وزاد الأمر على ذلك بأنّهم قالوا آمنا، ولكن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فأوضح الأمر لنبيّه وردّ عليهم في الحالتين بقوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}940.

ويمكن تفصيل الآيات السآبقة إلى أربعة محاور:

الأوّل: قول الأعراب (آمنّا)

الثاني: الردّ عليهم:

الثالث: الامتنان بالإسلام.

الرابع: التعريف بالمؤمنين.

الأوّل: مفاده أنّ الأعراب قالوا (آمنّا) من الأمان وليس من الإيمان ليأمنوا على أموالهم وأنفسهم.

الثاني: ردّ الله عليهم بأنّ طلب الأمان غير الإيمان.

وتوضيح ذلك في الآتي:

940 الحجرات-14-18

(قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ) نزلت في أعراب جهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار وأشجع كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مرّت بهم سرية من سرايا النبي عليه الصّلاة والسّلام قالوا: آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، وكان يومئذ من قال: لا إله إلا الله يأمن على نفسه وماله، فمرّ بهم خالد بن الوليد في سرية النبي عليه الصّلاة والسّلام فقالوا: آمنا، فلم يعرض لهم، ولا لأموالهم، فلما سار النبي عليه الصّلاة والسّلام إلى الحديبية واستنفرهم معه، فقال بعضهم لبعض: إنّ محمّدا وأصحابه أكلة رأس لأهل مكة، وأنّهم كلفوا شيئا لا يرجعون عنه أبدا فأين تذهبون تقتلون أنفسكم؟ انتظروا حتى ننظر ما يكون من أمره، فذلك قوله في الفتح: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرّسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدا}941.

فنزلت فيهم: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) يعنى صدّقنا، (قُل لَّمْ) يا محمّد: (قُل لَّمْ) لم تصدقوا (تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا) يعنى قولوا أقررنا باللسان، واستسلمنا لتسلم لنا أموالنا (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان) يعنى ولما يدخل التصديق (فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ).

وقوله تعالى: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) لما قال الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ}942، والاتّقاء لا يكون إلا بعد حصُول التقوى وأصله الإيمان والاتّقاء من الشِّرك، قالت الأعراب يكون لنا النسب الشريف يكون لنا الشّرف، قال الله تعالى ليس الإيمان بالقول إنّما بالقلب، فما آمنتم فإنّ الله خبير بعلم ما في الصدور ولكن قولوا أسلمنا أي أنْقَدْنَا وأَسْلَمْنَا. قيل: نزلت في نَفَرٍ من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في سَنةٍ مُجدِبَةٍ، فأظهروا الإِسلام

941 الفتح 12.

942 الحجرات 13.

ولم يكونوا مؤمنين في السرّ طالبين الصّدقة فأفسدوا طرق المدينة بالقاذورات وكانوا يغتدون وَيُروحُون إلى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام ويقولون: أَتَتْكَ العرب بأنفسها على ظهور رَوَاحِلهَا، وجئناك بالأثقال والعِيَال والذَّرارِي ولم نُقاتِلكَ كما قاتَلَكَ بنُو فلان يَمُنُّون على رسول الله عليه الصّلاة والسّلام ويريدون الصدقة، ويقولون أَعْطِنَا، فانزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقال السدّي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الفتح وهم جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وأَسْلَمُ، وأشْجَعُ وغِفَار وكانوا يقولون: آمنَّا ليأمَنُوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فأنزل الله تعالى: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) صدقنا (قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا) أنقَذْنا واسْتَسْلَمْنَا مخافَة القتل والسَّبْي.

الثالث: الامتنان بالإسلام والردّ عليه:

ردّ المنة عليهم (بل الله يمن عليكم) لأنّ النعمة من الله والفضل يعود إليه لهدايتهم إلى الإسلام وعدم محاربة النبي صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا المؤمنون فيعرفهم الله بقوله:

1 - {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ دَرجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}943.

943 الأنفال 4.

2 - {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}944.

3 - {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}945.

4 - {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}946، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}947.

5 - {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}948.

لذا فالصّلاة وهي من أركان الإسلام تأتي بعد الإيمان بالله لقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}949، وكذلك بقية الفرائض، مع العلم أنّ الفروض من أركان الإسلام، بدليل أنّ

---

944 الأنفال 74.

945 المؤمنون 1 . 11.

946 النور 62.

947 الحجرات 10

948 الحجرات 15.

949 النساء 103.

الإنسان لو لم يفعل أيّ منها لا يسقط عنه الإسلام إلا إذا أنكرها كالمرتدين الذين أرادوا أن يمتنعوا عن الزّكاة.

– ومن المعلوم أنّ القاعدة الإيمانية هي: (الإيمان بالله ثمّ الإسلام لله) فالإنسان يسلم لمن آمن به وليس العكس.

أمّا المنافقون فهم يدّعون كذبا فلا إسلام لديهم ولا إيمان فهم منافقون وهم الذين قال الله فيهم: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}950. قال قتادة: هذه الآية نعت المنافق، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، ويصدق بلسانه ويخالف بعمله، ويصبح على حالٍ ويمسي على غيرها، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هب معها951.

– والإسلام يسبق الإيمان في حال من أسلم استسلاما لا إسلاما، ومن يفعل ذلك يقل أنا مؤمن مثل حالة الأعراب لأنّهم لم يدخلوا الإسلام بل أسلموا خوفا على الأموال والأولاد، وليس انقيادا وطاعة لله لأنّهم لم يؤمنوا به، وأمّا فأبناء المسلمين قبل سن التكليف فإنّهم مسلمون قبل أن يدخل الإيمان إلى قلوبهم.

– والإيمان يسبق الإسلام في حالة مثل حالة سيدنا عمر لما سمع كلام الله تصدّع قلبه لقول الحقّ فآمن ثم ذهب للنبي ليعلن إسلامه. وكذلك من بعده الكثيرين وهم الذين يقرؤوا القرآن فيؤمنوا بما جاء فيه ثمّ يتجهوا لإعلان إسلامهم به، أي هم الذين آمنوا بأنّه الحقّ ثمّ قرّروا إيمانا اتباع الحقّ، ولذا فمن يؤمن بأنّ العدل حقّ فما عليه إلا اتباعه، ومن يؤمن أنّ الشورى حقّ فما عليه إلا اتباعها، ومن يؤمن بأنّ الصلاة

---

950 البقرة 8.

951 زاد المسير ج 1 ص 16.

حقّ فما عليه إلا إقامتها، وهكذا من يؤمن بأنّ الزكاة حقّ فما عليه إلا إخراجها وإيتاؤها، وعليه من يؤمن بأنّ القرآن حقّ فليس عليه إلا الاهتداء به في كل سبيل، ولذا لو لم يؤمن العباد ما أعلنوا إسلامهم، ولهذا فالإسلام هو اتباع الحقّ قولا وسلوكا إمّا الإيمان فهو التسليم بالحقّ.

- وقد يتزامن الإسلام مع الإيمان والعكس في حالة مثل الأنبياء فهم مؤمنون مسلمون ومسلمون مؤمنون في آن واحد، وحتى قبل إعلان نبوّتهم والأمر بالتبليغ بها فقال الله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}952.

وعليه فالقاعدة الإيمانية تقرّ: (الإيمان كونه التسليم بالحقّ، والإسلام كونه اتباع الحقّ)، ولذا فلا مسلّمات موروثة من أن الإسلام سابق على الإيمان أو غير ذلك، فالنصّ القرآني بحر علم وما أخذ منه إلا كوضع المخيط في الماء فلا أخذ المخيط ولا نقص الماء.

وعليه فالعلم بأسماء الله يؤسّس على الإيمان الحقّ والإسلام الحقّ، والعقيدة الراسخة، ويفتح طريقا للمعرفة للوصول إلى الحقّ، ولكن هناك من الحُجُب التي تَحْجُبُ رؤية طريق معرفة الحقّ للوصول إليه ومنها: القصور في فهم أسمائه تعالى، فكيف نصل إليه دون معرفته؟ ولإسفار ما حُجِبَ وجب علينا فهم أسمائه وصفاته للوصول إلى معرفته ومعرفة مراده فينا وفي خلقه، ومنّا جميعًا.

---

952 آل عمران 39.

إظهار المعذرة:

قال النووي: إنّ لوطا عليه الصّلاة والسّلام لما خاف على أضيافه، ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه، واشتد حزنه عليهم، فغلب ذلك عليه، فقال في ذلك الحال: (لو أن لي بكم قوّة) في الدفع بنفسي (أو آوي إلى ركن شديد) أي عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط عليه السّلام إظهار العذر عند أضيافه، وأنّه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله، وأنّه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم، ولم يكن ذلك إعراضا منه عليه الصّلاة والسّلام عن الاعتماد على الله تعالى، وإنّما كان لما ذكرنا من تطييب قلوب الأضياف953.

ولأنّ لوط عليه الصّلاة والسّلام نبيا مرسلا فلا يمكن أن يكون قد نسي الالتجاء إلى الله، كما ظن البعض، ولكن الذي لا يعلمه لوط هو: أنّ الملائكة المتجسدين بشرا لم يكن يعتقد أنّهما ملائكة، وهذا أمر الله، لأنّ إظهار صفة الكرم لا يكون إلّا من البشر إلى البشر، ومن هنا كان الكرم صفة للوط عليه السّلام.

ولأنّ لوط قدّر الضيوف بشرا؛ فأظهر لهم الواجب كرما وضيافة، ولذلك فقد اغتاظ ممّا يفعل القوم الجاهلون أمام الضيوم المكرّمين، ولأنّه يعلم أنّه لم يكن من هؤلاء القوم نسلا كونه جاءهم مهاجرا؛ فكان يظهر اللين مع الغضب كرامة. وهنا قال الحافظ ابن حجر: يقال: "إنّ قوم لوط لم يكن فيهم أحد يجتمع معه في نسبه، لأنّهم من سدوم وهي من بلاد الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشّام هاجر معه لوط فبعث الله لوطا إلى أهل سدوم، فقال

953 فتح المنعم شرح صحيح مسلم، 1، ص 483.

لقومه لما جاءته الأضياف: لو أنّ لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدفعوا عن الضيف، ولهذا جاء في بعض طرق الحديث عن النبي عليه الصّلاة والسّلام قال: قال لوط: لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد قال: فإنّه كان يأوي إلى ركن شديد ولكنّه عنى عشيرته، فما بعث الله نبيا إلا في ذروة من قومه، والمراد من الركن الشديد في الحديث هو الله تعالى، والمعنى: يرحم الله لوطا لقد كان – حين قال هذا القول – يأوي في نفسه إلى الله تعالى، لكنه قال ما قال اعتذارا لضيفه"954. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام فِي قَوْلِ لُوطٍ: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}955، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ إِلَى رَبِّهِ عزّ وجلّ"، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ"956. والكثرة هنا هي: (الثَّرْوَةُ: الْكَثْرَةُ وَالْمَنَعَةُ).

ولأنّ شعيب عليه الصّلاة والسّلام رشيدا فقد التجاء الى الرّشيد المطلق فقال: {يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}957. ذلك لأنّ الرّشيد على المستوى الآدمي قادر على أن يميّز بين الحقّ والباطل، وهو الذي لا يقدم على باطل ابدا. ولهذا فالرّشيد لا يلتجئ الاّ لرشيد.

ولأنّه شعيب نبي الله فقد التجاء قلبه الى الرّشيد الأعظم (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) أي أنّ رشد شعيب جعله قادرا على تفادي المظالم، ومع ذلك كان الرّشيد معه سميعا قريب مجيب. انّه عزّ وجلّ الرّشيد

954 فتح المنعم شرح صحيح مسلم، 1، ص 483.

955 هود 80.

956 مسند أحمد مخرجا، 14، ص 539.

957 هود 78.

الذي يُرشِد ولا يُرشَد، والرّشيد؛ انّه الكمال الذي لا يلحقّه النقص، وغيره على النواقص ما جعل الحاجة تحفهم من كل زاوية وجانب، ولهذا من يكون في حاجة فهو منقوص فيحتاج لمن يرشده إلى ما يهديه للحقّ وإتباعه. وعليه فمن اهتدى بما أرشد إليه أصبح مرشدا لغيره بالحقّ للحقّ.

الرّشيد "الله تعالى أرشد الخلق كلهم إلى مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلى الجنّة وطرق الثواب"958.

الرّشيد، هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سنن السداد من غير إشارة مشير وتسديد مسدد وإرشاد مرشد وهو الله سبحانه وتعالى ورشد كل عبد بقدر هدايته في تدابيره إلى ما يشاكل الصواب من مقاصده ودينه ودنياه959.

الرّشيد هو فعيل في معنى مفعل والله تعالى أرشد الخلق كلهم إلى مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلى الجنّة وطرق الثواب فهو الرّشيد960.

الرّشيد "المصيب الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده"961.

وفي النونية:

وهو الرّشيد فقوله وفعاله*** رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حقّ فهذا وصفه*** والفعل للإرشاد ذاك الثاني962

958 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 65.

959 الغزالي، المقصد الأسنى ص 149.

960 الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص 65.

961 تفسير الطبري، ج 17، ص 559.

الرّشيد اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدل على مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرّشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق كما بينا ذلك في مواضع كثيرة، فلما ثبتت أدلة الخلق على أن لها خالق فهو دليل على أن الخلق لم يتركوا هملا، وإنما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كل حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرّشيد فقد جاء في لسان العرب من أَسماء الله تعالى: "الرّشيد هو الذي أَرْشَد الخلق إلى مصالحهم أَي هداهم ودلهم عليها، وهو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد، والرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد نقيض الغيّ"963، فهو عزّ وجلّ أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تدبيراته، ولا يخرج الخلق ممّا نعلم عن أنواع ستة:

1 . الإنسان.

2 . الملائكة.

3 . الجن.

4 . الحيوان على اختلاف أنواعه من الطير والمواشي والزواحف والسوابح.

5 . النبات من العشب والشجر والجذور.

---

962 القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ج 2، ص 17.

963 لسان العرب، ج 3، 175ص

6 . الجمادات من الصلب والسائل والغازات.

وهذا يعني أنه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلغ الرّسُل، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرّشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

الله سبحانه وتعالى رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنى فهو رشيد بقربه وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيره، ورشيد بكونه حيا وقيوما، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيدا فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيدا مثل قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}964 وهو الرّشيد الحيّ لنفسه لتحقّيق ما نسب إليه ممّا لا يتصف به إلا من شرطه أن يكون حيا قيوما حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ

---

964 المعارج 6، 7

حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}965 لقيامه على كل حال نفس بما آتاها من رشاد، وهو الواجد لما طلب فلحقّ، فلا يفوته هارب كما لا يلحقّه في الحقّيقة طالب، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إله إلا هو الصمد حيث قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}966 الذي يُلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا، والتوكل عليه هو طريق الرشاد، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالى: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}967 فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ولهذه القدرة نطلب منه الرشاد، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه، والظاهر الباطن لنفسه، ظهر فما زال ظاهرا أو عن خلقه بطن فما يزال باطنا، ولذلك يطلب منه الرشد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهو البر أبدا بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده لأنه رشيد، وهو التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم ودنياهم، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرّشيد، فهذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لابدّ أن يدخلها القلة والكثرة فلابدّ أن يعمها العفو فإنه لابدّ من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد، وهو المقسط بما أعطى بحكم التقسيط حيث قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ

---

965 البقرة 255

966 الإخلاص 1، 2

967 البقرة 148

شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}968 وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق، وهو الغنيّ عن العالمين والمغني لهم، من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئا فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولابدّ من وجه به يتميز المثل عن مثله، ولا يتميز إلا بالإرشاد، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به ممّا هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة ورشاد اقتضاه علمه في خلقه، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة، وهو الرّشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه آخذ بناصية كل دابة، وهو الصبور برشده على ما أوذي به حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}969 فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك وإنما أخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة على أنه رشيد لجميع أنواع خلقه970.

968 الحجر 21

969 الأحزاب 57

970 طرق حديث الأسماء الحسنى، ج 1، ص 108.

وهذا الخلق الذي ينقسم إلى هذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كل واحد منهم في إرشاد الرّشيد له وفق مشيئة الله تعالى وإرادته التي أرادها لخلقه بحكمته واحدا بعد الآخر، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عمن أطاع أو عصى، فالله سبحانه وتعالى أرشد وأمر بالرشد كونه رشيدا، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه الله لخلقه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأما من أبى فلا يلومنّ إلا نفسه، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام بيده وأسكنه الجنّة مع زوجه وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته حيث قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}971 لقد أرشد الله آدم عليه الصّلاة والسّلام وزوجه إلى العيش في جنة النعيم بأن اسكنه هو وزوجه جنة الخلد يأكلان منها ما يشاءان أكلا هنيئا وافرا من أي مكان ومن أي ثمر يريدانه، ولكن الله ذكر لهما شجرة معينة وحذرهما الأكل منها وقال لهما: لا تدنوا من هذه الشجرة ولا تأكلا منها، وإلا كنتما من الظالمين العاصين، وإذا فعلا ما نهاهما عنه كانا بعيدين عن الرشاد، لقد نهى الله تعالى آدم عليه الصّلاة والسّلام عن تلك الشجرة وهو نهي إرشاد وتوجيه كانت فيه مصلحة لآدم وزوجه حتى لا تبدو لهما سوءاتهما وهذا إرشاد إلى الستر، والنهي يكون عادة ما يتوجه إلى أكثر من اتجاه، فمنه ما يكون نهي تأديب، ومنه ما يكون نهي تحريم، وقد جمع هذا النهي الجانبين معا، ولم نجد شيئا قد نهي عنه إلا بحقّ، وذلك أن ضرره راجع إلى بعده عن سبيل الرشاد فإن سبيل الرشاد مستقيم إلى الله تعالى لذلك فإن الله تبارك وتعالى أمر نبيه عليه الصّلاة والسّلام بالدعوة إلى

---

971 البقرة 35

الرشاد حيث قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}972 ومن زاغ فإنما يزيغ عن طريق الهدى وسبل الرشاد الذي أمر به الله تعالى، فالاستقامة تقرب العبيد إلى الله والطاعة تجعله رشيدا، وأن الله تبارك وتعالى دعا آدم إلى دار الخلود وأعلمه طريق الرشاد، لذلك فقد بين الرّشيد جل شأنه لآدم عليه الصّلاة والسّلام طريق الرشد بأسلوب المنع والنهي لما فيه من خير له ولزوجه، فوجدنا النهي على ضربين: منه نهي تأديب، ومنه نهي تحريم، فمن ترك الأدب انحط عن درجته، ومن وثب على التحريم سقط في التهلكة، ورحمة من الله الرّشيد فقد أرشد آدم عليه الصّلاة والسّلام مرة أخرى ليتوب عليه حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}973، وهذه التوبة أصلها الرجوع إلى الرشد بعد أن علم وعرف ضرر الذنب الذي أبعده عن الرشاد الذي يكمن فيه الخير له ولذريته، لذلك استشعر الندم بفوات ذلك النعيم الذي كان فيه، وما من طريق إلى النجاة إلا الترك والتدارك والعزم على عدم العودة إلى المعصية بأن يسلك طريق الرشاد الذي أمر به الرّشيد جل شأنه وطريق تحصيل الرشد وتكميله إنما هو بترك المعاصي لما فيها من ضرر الابتعاد عن الرشاد، لذلك كانت التوبة رجاء العفو عن الذنب والمغفرة ابتغاء العود إلى السبيل الذي أمر به الرّشيد الحكيم، فقد عرَّف الله تعالى حقّيقة التوبة لآدم عليه الصّلاة والسّلام بأنه ابتعد عن طريق الرشاد، فلابدّ أن يعرف ماهية التوبة ويتمكن بفعلها من تدارك ما بدر منه، وذلك بأن نبهه على المعصية الواقعة منه على وجه صار آدم عليه الصلاة السلام عند ذلك من التائبين المنيبين العائدين إلى الرشد، وأنه تعالى عرفه وجوب التوبة وكونها

---

972 يوسف 108

973 البقرة 37

مقبولة لا محالة على معنى أن من أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا ثم ندم على ما صنع وعزم على أن لا يعود فإنه قد أخذ بنصيبه من رشاد الرّشيد الذي يهدي إلى صراط مستقيم، وأحس آدم عليه الصّلاة والسّلام هو وزوجه بخطئه وظلمه لنفسه ولزوجه وندم على الابتعاد عن الرشد، فألهم الله تعالى آدم كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فتقبَّل الله منه وغفر له، فحين تلقى آدم عليه الصّلاة والسّلام الكلمات من الله الرّشيد استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها فكان بذلك من الراشدين، وهنا يجدر بنا القول أن آدم عليه الصّلاة والسّلام هو أول خليفة يستخلفه الله تعالى في الأرض فقد جعل رشاده وإرشاده سنة للخلفاء من بعده، فالخليفة رشيد بالإضافة في قوله وعلمه وعمله، أما في قوله فإنه لا يتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الرشد وطريق الخير والسداد وسبل الهدى والرشاد، وأما في علمه فإنه أوتي من العلم الرّشيد ما لم يؤتَ غيره مثله وذلك لنقاء قلبه وصفاء ذهنه وطيب سريرته فقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، فالقلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقّها وأصلبها وأصفاها، فقلب الخليفة أضاء بالرشد من الإيمان ذلك أن مصباح نور الإيمان في قلبه، كالشجرة المباركة، وهي شجرة الوحي والإلهام المتضمنة للهدى ودين الحقّ، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد الخليفة نورا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحقّ والحكمة والرشد قبل أن يسأل، ثم يبلغه بمثل ما وقع في قلبه وينطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه طريق الرشاد وسبيل الهدى الذي أمر بهما الرّشيد، فهما يتصادقان ويتوافقان في قلبه، فهذه علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون فهي في صدره كما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي

بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}974، فهنا نتبين من هذه الآيات الاختلاف والفروق بين الرشاد والغي، حيث اشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن النّاس قسمان: أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الرشد أمر به الرّشيد جل شأنه وبعث به أنبياءه ورسله ومن هؤلاء يكون الخليفة، وأن كل ما عارضه فشبهات تشتبه على من قل نصيبه من العقل والعلم فيظن أنه حصل له شيء ينتفع به، فهو كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}975، فلا هم في علمهم إلا من أهل الخوض الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم فلذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون حيث أضاء لهم نور الرشد المبين، فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتمتعون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، بعيدين عمّا بعث الله تعالى به أنبياءه ورسله من الحكمة وفصل الخطاب الذي يهدي إلى الرشاد، فتركوا ما أمر به الرّشيد جل شأنه واتبعوا الغي والضلال ورضوا به واطمأنوا إليه وقدموه على الرشد الذي يكمن فيه الخير والفوز بالدنيا والآخرة، لأن في صدورهم كبر أوجبه لهم إتباع الهوى واسترسالهم في غيّهم يعمهون. وأما الخليفة وأهل الهدى ودين الحقّ، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح والطريق الرّشيد والسبيل السديد، الذين صدقوا

974النور 40

975 النور 39، 40

الله في ما أرشدهم إليه، ولم يعارضوا الرشد والهدى بالشبهات، وأطاعوه في أوامره، ولم يضيعوها بالشهوات، وكانوا صادقين في رشدهم وإرشادهم لذلك خصهم الله تعالى بقوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}976 وهذا لصدق رشادهم بما علموا، وأما عمل الخليفة فيكون خالصا لوجه الله تعالى، داعيا إلى سبيله، فيكون بذلك من العمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، بنور الإيمان الصادق الذي يقذفه الله في قلب الخليفة، مع العمل الصالح الذي أرشد إليه وبما يحمل من العلم النافع، فكلما اتسع العلم انشرح الصدر واتسع، فالخليفة يبذل ما بيديه من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتم منه شيئا لأنه من الراشدين، فهو يسدي الإحسان إلى الخلق بأنواع الإحسان والنفع لهم بما يمكن لهم رشدهم لأنه رشيد، وهو برشده أشرح النّاس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا لما تمتع به من اليقين في رشده الذي اهتدى به إلى الحقّ ودعا بهذا الرشد إليه.

وأما سبب ابتعاد بعض الخلق عن الرشد والفضيلة فلا يخلو من أمور هي: إما أن تكون نقصا في أصل أخلاقه وعجزا مركبا في طبعه يتقاعس به عن تحصيل القوّة وجمع الإرادة التي يتوصل بها إلى الرشد كالذي تضعف عزيمته أمام الشهوات فيترك الفضيلة ويتبع الرذيلة وبهذا يكون قد عمد إلى مخالفة سنة الله في خلقه، فإذا رأى طريق الرشد لا يتخذه سبيلا وإن رأى طريق الغي يتخذه سبيلا، وإما أنه يؤجل طلب الرشد وهو يدرك حقّيقته ولكن لانشغاله بأمور يظن أنه بعد فراغه سيسعى إلى الرشاد فلا يجد هاديا يرشده، فيدركه الأجل ويكون من

976 المائدة 119

الهالكين، وإما أن يكون مصابا بعقله فلا يميز بين الغي والرشاد فذاك مرفوع عنه القلم، وإما أنه غير عاجز عن ذلك فعلم الرشد وسعى إليه وانعقدت نيته على ذلك فلم يمهله عمره من ساعته فقد وقع أجره على الله لما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}977 حيث أن الهجرة إلى الله ورسوله هي إتباع طريق الرشاد، وإما أن يتفق له مربٍ ومعلمٌ مضل فيضله عن الطريق، فقد غوى وما رشد، وأما أن يكون ترك الرشد واتبع الغي والضلال من جهة نفسه لا من جهة شيء ممّا ذكرنا وذلك هو المتوعد بالعذاب، فمن أزاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريق الرشاد، يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: {ولَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}978، وأكثر من ذلك ضلالا وغيا من وعى الرشد وعرف الحقّ وعلم السبيل وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا فيكون قد استبدل الرشد بالغي والهدى بالضلال فما له من رشيد. وأحوال الخلق ومراتبهم في الإقبال على الرشاد والابتعاد عنه إنما يكون على أنواع أيضا فمنهم من له المعرفة بما يجب أن يفعل ليسلك طريق الرشاد وله مع ذلك قوّة العزيمة على العمل به، ومنهم من له المعرفة في طريق الرشد وليس له قوّة العزيمة على إتباعه، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه، لأن العلم يكون شر من الجهل عندما يعلم العالم ولا يعمل بما يعلم، ومنهم من ليس له المعرفة والعلم لكن له قوّة العزيمة، فهذا متى انقاد لأهل العلم والمعرفة وعمل بقولهم أصبح من الراشدين، ومن النّاس من يقول لا نستطيع أن نميز بين الرشد والغي وإذا عرض لنا أمران لا ندري في أيهما الرشاد،

977 النساء 100

978 طه 56

فلينظر أيهما أقرب إلى هوى نفسه فليخالفه، لأن الرشد في مخالفة الهوى والصبر على المكاره، وليس لمن قل صبره عن الهوى حظ من بر ولا نصيب من رشاد، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها الهدى، ويدفع عنها الغي، كان ذلك من سوء اختياره، وبعيدا من الرشاد حقّيقا بالضلال. ولذلك فإن التفهم في الخير زيادة ورشد، وإن الرّشيد من رشد عن الغي، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكون مصيبا، وإن المعجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئا، وإنه من لا ينفعه عقله في الدلالة على الرشد كمن لا عقل له، فالرّشيد من يختص بإصابة المقصود من الخير الذي يكون له ذخر الدارين في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالرّشيد أيضا يجب أن يكون راشدا ومرشدا، أي راشدا في قوله وعلمه وعمله، ومرشدا إلى القول والعلم والعمل، لأن الله الرّشيد أضفي عليه من هذه الصفة فوجب عليه أن يكون راشدا ومرشدا، لذلك كان الخليفة رشيدا بالإضافة لأنه لم يحتفظ بهذا الرشد لنفسه وإنما استخدمه في إرشاد الآخرين إلى طرق الهدى ومنابع الخير والفوز العظيم في إرشاد الرّشيد من الخلق للخلق كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}979 فهنا الإرشاد إلى تجارة عظيمة تنجي من اتبع الرشد من عذاب شديد الألم، وهذه التجارة هي أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتُجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك الذي يرشدكم إليه خير لكم إن كنتم تعلمون، وهذا الإرشاد له ثمن وهو أن تؤمنوا

---

979 الصف 10، 12

وتجاهدوا في سبيل الله كي يغفر لكم ذنوبكم، ويُدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، وذلك نتيجة الرشاد وهو الفوز العظيم، وعلى هذا فالخليفة هو أحقّ النّاس بالدعوة إلى الرشاد لأنه رشيد فيعلم مكامن الرشد ونتائجه وثوابه وأجره، فالله سبحانه وتعالى رشيد بأن أرشد الخلق إلى طرق الهدى والصلاح فأرسل أنبياءه مرشدين، فهم مبشرون بجنّة عرضها السماوات والأرض ومنذرون بنار جهنّم التي أعدت لمن حاد عن طريق الرشاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى، وما من نبي إلا أرشده الرّشيد جل شأنه بحكمته إلى طريق الهدى والصلاح والتقى ليكون ذلك سببا لخير الخلق ومدعاة للنجاة ورحمة لهم ورأفة بهم حيث قال تعالى: {تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}980 فيؤتيه رشده ليرشد الخلق لما فيه خيرهم وصلاحهم لأن الله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه وحرمه بين عباده لذلك كان حقّيقا على الله تعالى أن يكون رشيدا ومرشدا وراشدا لأنه نفي الظلم عن نفسه فآتى الرشد لخلقه ليكون حجة على من ترك الرشاد واتبع سبيل الغي والضلال وكان من الذين قال فيهم جل شأنه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}981 فالله تعالى منع الرشد عن هؤلاء وصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق، أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب بغير وجه حقّ، فإن رأوا آيات الله التي تدل على صدق المرسلين الراشدين أعرضوا عنها كبرا وطغيانا وكفرا، لذلك فإن شاهدوا طريق الهدى وسبل الرشاد لا

980 آل عمران 108

981 الأعراف 146

يسلكوه، وإن شاهدوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه سبيلا لهم مبتعدين عن الرشد الذي أمر به الرّشيد الحكيم. والله سبحانه مع كونه رشيدا فهو يمنع الرشد أيضا عن أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبّرون عن قبول الصواب بغير الحقّ مخالفين الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه لذلك استحقّوا طريق الضلال لأنهم صدوا عن الرشاد وغفلوا عن الاهتداء به.

والرشد هو نقيض الضلال، وهو الذي يصيب وجه الأَمر والطريق الصحيح والسبيل الواضح الذي ليس فيه غيٌّ ولا عوج بحيث يرشد إلى الجادة الواضحة وطريق النجاة في الدين والدنيا ممّا يترتب عليه الصلاح والهداية للذي يأخذ في طريق الرشد وسبيله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضوا عليها بالنواجذ"982 وإنما جاء الأمر في التفضيل بإتباع الخلفاء لما هم عليه من الرشد الذي اتبعوا به هدى الله تعالى وهدى رسوله عليه الصّلاة والسّلام، وهو معقول تأكيد النبوّة وتأكيد الرسالة الراشدة من الحكيم الرّشيد بأن الذي جاء من الله تعالى هو الصراط الحميد الذي يهدي إلى الرشد، فكانت النبوّة مخالفة للملك حيث جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، وقد أجمعت الأمّة على ذلك، ومعنى هذا هو إخراج الخلق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود، بأن سنّ الله لهم الرشد في إتباع الخليفة لما تمتع به من صفة الرّشيد بالإضافة فكان رشيدا ومرشدا.

لقد بعث الله أنبياءه بالهدى والرشاد وأضفي عليهم من الرشد ما يمكنهم من إرشاد خلقه إلى ما أمر به الله تعالى من الخير والبر والنفع الذي فيه رشدهم ونجاتهم من الشر والغي والضلال فقد قال تعالى:

982مشكل الآثار للطحاوي 3، 183

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}983 لقد أرسل الله تعالى نوحا إلى قومه وجعله رشيدا مرشدا فقال لهم: إني محذركم من عذاب الله، ومبين لكم طريق النجاة والرشاد الذي أمر به الرّشيد الحكيم لما فيه من صلاح وهدى فجاءهم يوم عيد لهم وكانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمور ويواقعون النساء كالبهائم من غير ستر فنادهم ودعاهم إلى الرشد ففزعوا من صوت الحقّ ثم استمروا في غيّهم بعيدين كل البعد عن طريق الهدى وسبيل الرشاد، ثم نسبوا نوحا عليه الصّلاة والسّلام إلى الجنون وكذبوه، ولكونه رشيدا فقد احتمل كل أنواع الأذى من قومه ذلك أن الرّشيد حليم وحكيم وصبور وشكور لذلك لم يطلب منهم إلا أن يتبعوا الرشد الذي أرسل به، وأول الرشد هو التسليم بالوحدانية لله تعالى وذلك لخوفه عليهم وحرصا منه على نجاتهم، ولأنه رشيد فقد بذل كل جهده في دعوتهم وأفنى عمره في نصحهم وإرشادهم مخافة أن يحل عليهم ما هو أعلم به منهم، ألا وهو عذاب أليم في الدنيا وخلود في نار جهنم في الآخرة، ولقد اتضحت صفة الرّشيد في نوح عليه الصّلاة والسّلام بما كان يصدر من قومه من سفاهة وابتعاد عن طريق الرشاد، فعلى الرغم من نبوته كانوا يقولون: ما نرى إلا أنك بشر مثلنا، فليس فيك ما يجعل لك ميزة خاصة، وفضلا يحملنا على الإيمان بأنك رسول من عند الله، وما نرى الذين اتبعوك من بيننا إلا الطبقة الدنيا منا، وما نرى لكم من

983هود 25، 28

فضل علينا، بل إنا نعتقد أنكم كاذبون فيما تزعمون، فنوح عليه الصّلاة والسّلام مكث في قومه ألف عام إلا خمسين وهو يدعوهم إلى الحقّ وسبل الخير، فأية حكمة وأي رشد وأي هدى هذا الذي أتاه الله حتى صبر كل هذا الصبر على السفيه والمتكبر وأراذل النّاس ممن كانوا يستهزؤن ويسخرون ممّا كان يدعوهم إليه، فلولا الحكمة البالغة التي أيده بها الحكيم، والحلم العظيم الذي امتن عليه به الحليم العليم، والهدى الذي هداه إليه الهادي الكريم، والرشد الذي منحه إياه الرّشيد جل شأنه وعزت قدرته، لما كان رشيدا ومرشدا لقوم لا يفقهون، فهو لا يريد منهم جزاء ولا شكورا إلا إتباع سبيل الهدى والرشاد وما يطلب على ذلك من أجر إلا من الرّشيد الذي أوكله بإرشاد قومه حيث قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}984 ويا قوم، فهو لا يطلب على تبليغ رسالة ربّه من أجل إرشادهم مالا ولا أجرا، وإنما يطلب جزاءه من الله،

---

984 هود 29 . 37

وما هو بطارد الذين آمنوا بربهم عن مجلسه ومعاشرته لأنّهم أرشدوا إلى الحقّ ولأنّهم سيلاقون ربهم يوم القيامة، فيشكونه إليه إن طردهم لفقرهم أو أبعدهم عن سبيل الرشاد، غير أن قومه يجهلون ما يصح أن يتفاضل به الخلق عند الله بين من هو راشد إلى الحقّ وبين من هم في الغي والضلال يعمهون، فمن لم يأت إلى طريق الرشاد وسبيل الخير لا أحد يستطيع منع عقاب الله عنه، فهو لأنه رشيد ولأنه رسول، فلا يقول عنده خزائن رزق الله يتصرف فيها كما يشاء، فيجعل من يتبعنه غنيا ولا يقول إنه يعلم الغيب، فيخبرهم بما اختص به علم الله، بحيث لا يعلمه أحد من العباد، وكذلك فهو ليس ملك ردا على قولهم: ما ذاك إلا بشر، ولا يقول عن الذين يحتقروهم إن الله لن يؤتيهم خيرا إرضاء لرغبات الذين أبوا إلا الضلال والغي والابتعاد عن الرشد، لأنّ الله وحده هو الذي يعلم ما في أنفسهم من إخلاص، فإنّه إن قال لمن اتبعه ما يحب أصحاب الغي والضلال خرج من الرّشد إلى غيره من الصفات التي لا تليق بمن أرشده الله وجعله رشيدا في نفسه ومرشدا لغيره، فهذه صفة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، فالمبتعد عن الرشد لا يرى نور الهدى مهما تحاول معه من النصح والإرشاد، فهم لا يرون الدعوة إلى الرشاد إلا جدلا لا طائل من ورائه، لذلك ضاقوا ذرعا بهذه الدعوة حتى ملّوا منها ولم يعودوا يحتملوا إرشاد الرّشيد لهم وما كان منهم إلا أن قالوا، فأتنا بهذا العذاب الذي تهددنا به، إن كنت صادقا في أنّ الله سيعذبنا إذا لم نؤمن لك. غير أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام كونه رشيدا وهاديا وحكيما أجابهم بأن هذا الأمر بيد الله وحده، فهو الذي يأتيكم بما يشاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولأنّ الله الرّشيد يرشد من

يشاء إلى صراطه المستقيم كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}985 فلم ينفعهم نصحه لمجرد إرادته الخير لهم، إن كان الله يريد أن يضلوا لعلمه وتقديره فساد قلوبهم حتى صارت لا تقبل الرشد، وهو سبحانه ربهم، سيرجعكم إليه يوم القيامة، ويجازيهم على ما كانوا يعملونه، ثم إن الله الرّشيد أرشد نوحا عليه الصّلاة والسّلام إلى أن يصنع الفلك لأنهم مغرقون، وأرشده لأن يحمل معه من كل زوجين اثنين من أجل استمرار الحياة حتى لا تهلك جميع الحيوانات والبهائم، وهذا الإرشاد لا ينحصر في نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن آمن معه، وإنّما هو من عموم الخصوص، أي أنّه خص به نوحا عليه الصّلاة والسّلام، وعمومه يشمل من يأتي بعده من ذرية البشر دلالة على إرشادهم بما يفعلون إذا نزلت بهم النوازل أو أحاطت بهم الكوارث، فهذا سبيل رشد للخلق جميعا، وكذلك فالله تعالى آتى إبراهيم رشده وصلاحه وهداه ليكون مرشدا، لقد آتى الله الرّشيد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رشده من قبل وكان به عالما بفطرة الله التي فطره إيّاها على الرشد والاسترشاد حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السماوات وخالق العباد، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رأى كوكبا فقال هذا ربي ثم تبين له أنه ليس بإله فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فتبين له أنه ليس بإله فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريئ ممّا تشركون وهذا إشارة إلى الرشد الذي أتاه الله من قبل بدء أمر نبوته حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا

985 الجن 21

أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}986. فالله سبحانه وتعالى هو الرّشيد الذي أرسل الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام راشدين ومرشدين للبشرية يبينون لهم طرق الهدى وسبل الرشاد، بالعدل والحقّ ليأخذوا بأيدي النّاس إلى الرشاد بما أرشدهم الله تعالى، فما أحل الله تعالى من شيء إلا وفيه رشد للخلق، وما حرم عليهم من شيء إلا وفيه رشد لهم أيضا، وما نهى عن شيء أو أمر بشيء إلا وفيه الرشد والصلاح والهدى والاستقامة، وأول ذلك هي العبادات إذ ليس هناك عبادة إلا وفيها خير النّاس وصلاح أمرهم فالصلاة الكاملة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لأنها تقوي الإيمان بالله تعالى وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه وهذا كله من الرشاد، وإذا تعمق هذا الشعور الإيماني في قلب الإنسان فإنه يتكون لديه الوازع الديني الذي يدفعه إلى الفضائل ويردعه عن الرذائل، وبالتالي يكون حكما على تصرفاته وسلوكه في هذه الحياة وهذا معنى إرشاد العبادة، ولقد فهم قوم شعيب عليه الصّلاة والسّلام دعوته إلى هذه المزية من مزايا الصلاة فذكروا ذلك له بأسلوب من السخرية والإنكار وذلك فيما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرّشيد}987 فقوم شعيب عليه الصّلاة والسّلام ينكرون عليه أن أمرهم بالصلاة لله تعالى التي تمنعهم من السجود للأوثان ومن التصرف في أموالهم بما لا يرضي الله تعالى وبعبارة أخرى أنهم رفضوا سبيل الرشاد وقد كانوا يطففون في المكاييل

986 الأنبياء 51، 58

987 هود 87

والموازين ويبخسون النّاس أشياءهم، ومن مفهوم السياق العام للحوار الذي دار بين شعيب عليه الصّلاة والسّلام وبين قومه أن الصلاة التي كان يؤدّيها هي التي تدفعه إلى منعهم ما يفعلون، وهي بالتالي كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنها تأمر بالمعروف والرشد الذي أمر به الرّشيد، فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام راشدون بما هداهم الرّشيد إليه، وهم حلماء كرماء أصحاب قلوب صافية وأخلاق عالية ونفوس مطمئنة، وهذه الصفات يتحلى بها الخليفة كونه رشيدا ومرشدا، ومن خلال ما ذكرنا نتبيّن أنّ الرّشيد أيضا صاحب نفس مطمئنة، وهذا الاطمئنان يعود إلى رشده على الرغم ممّا يلاقي من منازعات وخصومات وطموح من أصحاب الغي والباطل، ليثبوا بغيهم وضلالهم على رشده وحكمته، لذلك فالرّشيد بالإضافة حكيم حليم راجح العقل صائب الرأي كامل النفس، لأنّ في تكميل النفس المطمئنة اكتساب الرشد لها وإبعاد الغي عنها، وهذا ما يستوعب أضعاف العمر كما رأينا، فكيف إذا كان العمر قصيرا، وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا من شأن النفس الأمّارة بالسوء السادرة في الغي والبعيدة عن الرشد، ومتى تكررت المساوئ على تلك النفوس انتقلت إلى القلوب وتطرقت إلى اللسان، وانتشرت في المحافل، والتفت بها بعضهم إلى بعض وهذه مكسرةٌ للهيبة، وقلة الهيبة رافعة للحشمة، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة، والوثبة غير مأمونةٍ من الهلكة، وما يخلو الخليفة من طامع راصد يناوئ الحلم بالجهل والهدى بالضلال والرشد بالغي، وليس ينبغي للخليفة الحازم أن يظن أنه لا ضد له ولا منازع، وقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب، وهنا أعظم ما يكون الخليفة رشيدا في استيعاب أهل الغي بمبادرتهم بالرشاد الذي أمر به من الرّشيد الجليل، ويسلم أمره للذي أرشده ولسان حله يقول اللهم هذا الجهد، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر

الرّشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنّة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود فما ينبغي للخليفة إلا أن يكون أهلا بما استخلفه الله فيه.

والرّشيد يرشد إلى الرشد الذي هو نقيض للغي ومنافٍ له، ذلك أن الغي يؤدّي إلى الضلال، والضلال يؤدّي إلى التهلكة، لذلك فإن الله تعالى أمر بالرشد ونهى عن الغي والضلال والتهلكة حيث قال تعالى: {أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}988 فسبيل الله تعالى هو الرشاد وهو متعدد الأسباب والأبواب فمنها ما يكون ببذل النفس، ومنها ما يكون ببذل المال، فإن ترك ذلك إنما هو الابتعاد عن الرشد والاقتراب من الغي المؤدي إلى الهلاك، وعلى هذا فهو أمر من الله بأن يتبع الخلق سبيل الرشد الذي أمر به الرّشيد بإحسان وإتقان، فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه ويتقنه حتى يكون رشيدا، ومن أمثلة الرشد التي لابدّ من التوجه لها بعقل واع إرشاد الأم للحنو على وليدها والوليد لمعرفة أمه ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى عن موسى عليه الصّلاة والسّلام {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ

---

988 البقرة 195

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}989.

كان قَتادة يقول، في معنى ذلك (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) : قذفنا في قلبها. وحيًا جاءها من الله، فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة، أن أرضعي موسى990.

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي) هناك أراء في الفترة التي بقي فيها موسى عليه الصّلاة والسّلام مع أمه فهناك من يقوا بعد ميلاده بأربعة أشهر وذلك حال طلبه من الرضاع أكثر ممّا يطلب الصبيّ بعد حال سقوطه من بطن أمه، وهناك من يقول: بعد ميلاده أُمِرت أن تلقيه في اليمّ بعد ولادها إياه، وبعد رضاعها991.

فها هو الرّشيد الخبير يوحي إلى أم موسى بالرشاد حين خافت على وليدها من القتل أن تقذفه في اليم ويرشد أعداءه لالتقاطه، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب وهذا من إرشاد الله لآل فرعون في التقاط هذا الطفل ليكون لهم عدوا ولغيرهم مرشدا وعاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولم يشعروا أنه الذي سيذهب بملكهم، وذلك بسبب إرشاد امرأة فرعون التي جعلت هذا الطفل قرة عين لها ولزوجها ومنعتهم من قتله لأنهم سوف ينفعهم باتخاذه ولدا لهم، بعد أن أخطأ الذبح هذا الغلام، وكان من إرشاد آسية امرأة فرعون أنها كانت أمّا للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة

---

989 القصص 7 . 13

990 تفسير الطبري، ج 19، ص 519.

991 المصدر السابق، ج 19، ص 519.

وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي فاستحياه فرعون وأرشد إلى محبة هذا الطفل وألقى الله محبته عليه، ثم إن الله تعالى أرشد أمه بأن ترسل أخته في أثره عن بعد فكانت تمشي جانبا وتنظره اختلاسا، ثم أرشد الله الطفل إلى ثدي أمه حيث كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم، فالله تعالى حرم عليه المراضع، تحريم منع، لا تحريم شرع وهو منعه من أن يرضع ثديا غير ثدي أمّه، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك، فأرشد الله أخته إليهم كي تدلهم على من يرضعه فقبلوا ذلك منها، فانطلقت إلى أمّها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يُعلله شفقة عليه، وهو يبكي ويطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنتِ منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إنّي امرأة طيبة الريح، لا أُوتَى بصبي إلا قَبِلَني، فدفعه إليها وأجرى عليها مؤنة الرضاع، وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبيا رشيدا ومرشدا، لأن الرّشيد حفظه بعناية إلهية كونه مكلفا بإرشاد غيره. وطرق الرشد من الرّشيد لا تنقضي أوقاتها ولا تنقطع أسبابها في كل وقت وحين، أما ترى الجنين في بطن أمه كيف تجلت فيه حكمة الرّشيد حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[992] فإذا أردنا أن نعرف رشد الرّشيد ونقف عليه من قرب علينا أن ننظر إلى أصل تكوين الخلق من البشر وما هو منّا ببعيد، فإنه من دلائل الرشد، القدرة الموجبة للإيمان بالله الرّشيد، فإنه خلق الإنسان من

---

992 المؤمنون 12، 14

خلاصة الطين، ثم خلق نسله فجعله نطفة من ماء فيه كل عناصر الحياة الأولى التي تستقر في الرحم، وهو مكان مستقر حصين منيع، ثم صيَّر هذه النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دما، ثم صيَّر الدم بعد ذلك قطعة لحم، ثم صيرها هيكلا عظميا، ثم كسى العظام باللحم، ثم أتمّ خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقا مغايرا لمبدأ تكوينه، فتعالى شأن الله في عظمته وقدرته، فهذا الخلق لا يشبه أحدا في خلقته وتصويره وإبداعه، ثم توّج ذلك كله بالعقل الذي هو مستودع الرشاد الذي ميزه به عن جميع مخلوقاته، فهو الدلالة الواضحة على رشد الرّشيد لما أنْ كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار المحبة له، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم، إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ وأرشده لذلك، فإذا كبر واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الرشاد، فابتعاده عن الرشد بَعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه الرشد، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته بإرشاده إلى طرق الرزق وأسباب العيش، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإرشاد الله تعالى وتسليط الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب الراشدين من خلقه الذين اختصهم بالرشاد، حتى إن

كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق على الطفل واحدا والآن المشفق عليه جميع من أرشدهم الرّشيد إلى الشفقة والرحمة والمودة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا، فإذا رأوه يتيما سلط الله داعية الرحمة على واحد من هؤلاء الراشدين أو على جماعة منهم حتى يأخذونه ويكفلونه، وبسبب من رشد الراشدين الذين اختصهم الرّشيد بهذا الفضل العظيم، فقد انتشرت الفضيلة واندحرت الرذيلة وعم الخير وانحسر الشر، لأن الرّشيد أوتي من الحكمة وفصل الخطاب وحسن المعاملة ما يستطيع به أن يقف طودا منيعا في وجه الغي والضلال الذي هو نفسه يرشد إلى الشر، ولذلك كان الخليفة رشيدا بهذه الصفات التي اختصه بها الرّشيد جل شأنه، ومن هنا كان الخليفة أيضا علما تشخص إليه الأبصار وتطمئن إليه القلوب مهتدية بهديه ومستنيرة برأيه ومسترشدة برشده، فهو الضامن لصواب الرأي والثقة في القول والعلم والعمل.

وأمّا إرشاد الرّشيد الجليل للملائكة فهو أعظم من أن نحصيه في ما نتناول من صفة الرّشيد، ولكننا سنأخذ غيضا من فيض من الأدلة الواضحة الدلالة على إرشاد الملائكة ورشدهم، لاسيما أن الملائكة الكرام يختلفون في صفة خلقهم عن الإنس والجن بأنهم خلقوا راشدين، بإرشاد الله تعالى لهم فيما كلفوا به من عبادة وتسبيح وتنزيه، وقيامهم بأمر الله فيما كلفوا به من أمور لا يستطيعها أحد من الإنس أو الجن لذلك عندما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}993 لم يذكر من ضمنهم الملائكة ليس استثناءً من العبادة لله تعالى، ولكن استثنائهم من الذكر مع الإنس والجن دليل على أنهم لا

993 الذاريات 56

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، على العكس من الجن والإنس، فإن منهم المطيع ومنهم العاصي على الرغم ممّا أمروا به، ولذلك فهم لا يأكلون ولا يشربون بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}994 فالملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتوالدون وإنما أرشدوا للطاعة والعبادة، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد"995 صوتت حتى كادت أن تتكسر وتقع من شدة ثقل الملائكة عليها، وحقّ لها أن تصوت لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهو إيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر وإن لم يكن ثم أطيط وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة الله عزّ وجلّ، وهذه الأدلة جميعها بأنهم راشدون في طاعة الله. فالله تعالى هو الرّشيد الذي أرشد الملائكة إلى ما أمروا به من الرشاد وأول رشدهم أنهم كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}996 فالرّشيد الذي أبدع البشر وخلقه من طين يابس، له صوت إذا نقر عليه، فهو متغير اللون وله صورة

---

994 هود 69، 70

995سنن الترمذي، ج 8، ص 288

996الحجر، ج 28، ص 30

حيث أمر الله تعالى ملائكته إذا أكمل خلق الإنسان ونفخ فيه الروح التي هي ملكه عزّ وجلّ وبهذه النفخة العلوية فرق بينه وبين سائر الأحياء، وشرّفه على سائر المخلوقات ومنحه خصائصه الإنسانية، حيث تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلا للاتصال بالله، أن يقعوا بوجوههم ساجدين له تحية وإكراما، وتعظيما ومهابة لقدرة الله على الخلق، ولأنهم راشدون سجدوا جميعا خاضعين لأمر الله، فالسجود هنا ليس سجود عبادة، وإنما هو سجود تحية للمخلوق وإذعان للخالق طاعة لأمره، لأن العبادة لله وحده، وبهذا هداهم الله إلى رشدهم في الامتثال للأمر. ولو كان من باب الموازنة بين الملائكة وبعض بني البشر في مجال الرشد الذي آتاه الرّشيد لخلقه، فهل أن بعض البشر أكثر رشدا من الملائكة وهذا أمر فيه كثير من الحذر عندما نتناول رشد الرّشيد لخلقه، ولكننا لا نخرج عن النصوص التي جاءت من خلالها الدلالة القطعية التي تنفي الاجتهاد والإدلاء بالرأي، ووجه التفصيل في ذلك أن سجود الملائكة لآدم تعظيما وتكريما، هذا من جانب ما أمر به الرّشيد لإرشاد الملائكة للسجود، ومن جانب آخر أن الملائكة منزهون عن الخطأ، وآدم عليه الصّلاة والسّلام انصاع لوسوسة الشيطان وعصى أمر ربه حيث قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}997.

997 طه 116. 122

وأما تعليم آدم عليه الصّلاة والسّلام، للملائكة الأسماء كلها فهو نوع خاص من الرشد حظي به من الله الرّشيد، ونحن نرى أن موازنة المفاضلة بالرشاد لا تقوم بين مخلوقين مختلفين في الأعراض والصفات فالله سبحانه وتعالى اختص جبريل عليه السلام من بين الملائكة وجميعهم لم يرتكب معصية، غير أن نصا قطعيا يثبت فضل بعض البشر على الملائكة وبهذا يثبت فضل رشدهم حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}998 والملائكة من جملة العالمين وأن طاعات الأنبياء على قهر دواعي النفس أشق وعبادة الملائكة على موجب طباعهم أسهل والأشق أفضل ونسأل الله العفو عن الزلل فإن قال قائل إن للملائكة في مقابلة عمل البشر صفات فاضلة يضمحل فضل العمل في حقّها، نقول هذا الادعاء ممّا لم يقبل في حقّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وأما تقديم الملائكة على غيرهم من الخلق فيما ذكر معهم من خلق الله تعالى في الآيات من أنه تقديم الأفضل على الفاضل في باب اللغة، وبهذا يفضلون غيرهم من الخلق كونهم أكثر رشدا، فالأمر هنا ليس كذلك على ما نرى، وإنما هو التسلسل في علم الإلهيات والغيبيات وصولا إلى اليقينيات وستجدني مضطرا لذكر عدد من الشواهد القرآنية ليتضح الأمر، فقد قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}999 فسياق الآيات جميعها يبدأ بلفظ الجلالة للذات الإلهية، ثم يأتي بعد ذلك ذكر الملائكة، وسبب تأخر ذكر جبريل عليه السلام عن ذكر الملائكة، ليس هنا من باب تقديم الأرشد على الرّشيد، وإنما هو من باب ما سبق ذكره في الغيبيات، لأن جبريل عليه السلام معروف ومعلوم للبشر أكثر

998 آل عمران 33، 34

999 البقرة 98

من غيره من الملائكة الكرام، قال تعالى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}1000، وهنا تأخر ذكر الملائكة عليهم السلام عن اليوم الآخر لأنه أكثر غيببية منهم وكذلك في قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}1001، فآخر ما جاء ذكره هم أولو العلم لأنهم آخر السلسلة في التدريج الذي ذكرناه من الأعلى إلى الأدنى، فكانت شهادة الله تعالى لنفسه بالألوهية والتفرد والوحدانية والرشاد كافية، ولكن الذين اتصفوا بالرشد شهدوا لله بهذا الحقّ، وهو توحيد الله الذي هو أعلى درجات الرشاد، حيث شهدت الملائكة قبل أولي العلم بذلك والرّسُل من بعدهم قد وحدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلا فإن الرّسول ما أشرك قط بسبب أنه رشيد وهو من أولي العلم، فقال شهد الله والملائكة وأولو العلم ولم يقل وأولو الإيمان، فرتبة العلم المحاط بالإيمان قوّة ترسخ الحقّيقة في النفس فتكون مع العليين، وفي هذا السياق الذي نتناوله بين الرّشيد والإرشاد، فشهادة الله من الرّشيد، وشهادة الملائكة وأولو العلم ومن ضمنه وأولهم الرّسُل هي من قبيل الإرشاد من الرّشيد المطلق وتصبح رشيدا بالإضافة، وأولو العلم يدخل ضمنهم الأنبياء والأولياء والخلفاء، وعلى الرغم من أن العلم أعلى درجة من الإيمان، إلا أن الإيمان شرط للشهادة، إذ لا يمكن لغير المؤمن أن يشهد شهادة الحقّ، وشهادة الحقّ دليل على الرشاد، ومع هذا فهناك كثير من المؤمنين ولكنهم من غير أولي العلم، ومع ذلك فهم راشدون كونهم أرشدوا إلى الإيمان، ورشد النبوّة الذي هو مقام القربة من الرّشيد أكثر وأعظم من رشد الأفراد، فرشد الأفراد دون رشد نبوة التشريع والوحي، ولكن الخليفة يترفع عن الأفراد متصلا بسلسلة الرشد كونه من

1000 البقرة 177

1001 آل عمران 18

أولي العلم، وهي في المنزلة عند الله من الدرجة الثانية بعد الملائكة، وكذلك يكون رشد الخليفة على مستوى البشر أيضا في الدرجة الثانية بعد الأنبياء لقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}1002 فمن يطع الله ورسوله فهو رشيد لا محالة، وأوّل الراشدين هم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ويأتي بعدهم الصدّيقون في المنزلة عند الله لأنه خصهم بالرشد من لدنه وهم المشار إليهم بالخلافة للسر الذي وقر في صدورهم من الرّشيد، فليس ما بين النبي والخليفة من رجل أكثر من الخليفة رشدا لأنه من الصديقين، ومن الأولياء الراشدين أيضا، الشهداء رضي الله عنهم، فقد تولاهم الله وأرشدهم إلى الشهادة وهم من المقربين وهم من أهل الرشد لأنهم ببذل أنفسهم وأرواحهم شهدوا شهادة الحقّ، فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم راشدون عن حضور إلهي وعناية أزلية فهم الموحدون وشأنهم عجيب وأمرهم غريب والإيمان فرع عن هذه الشهادة فإن بُعث رسول وآمنوا به أغنى هؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء الراشدون، ولهم الأجر التام يوم القيامة وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم الله عليهم في قوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}1003

اختلف في معنى: الصديقين، فقال بعضهم: "(الصديقون)، تُبَّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقّوا بهم، والصدِّيقين هم المصَّدِّقون، والصديق"، أن يكون معناه: المصدِّق قوله

1002 النساء 69

1003 النساء 69.

بفعله، و(الصالحين) هم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته"1004.

وفي تسمية الشهيد قولان:

أحدهما: لقيامه بشهادة الحقّ، حتى قتل في سبيل الله.

والثاني: لأنه يشهد كرامة الله تعالى. في الآخرة.

وأما الصالحون فجمع صالح وفيه قولان:

أحدهما: أنه كل من صلح عمله.

والثاني: هو كل من صلحت سريرته وعلانيته.

وأما الرفيق ففيه قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الرفق في العمل.

والثاني: أنه مأخوذ من الرفق في السير"1005.

وعليه لولا قوله وحسن أولئك رفيقا الحقّنا هؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هذه الآية فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرّسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين فإنهم يشوشون على المؤمنين إيمانهم وهؤلاء الأعداء الذين تعمهم هذه الآية هم العلماء، والشاهد ليس برسول فلابدّ أن يتأخر فلم يبق إلا أن يكون في الرتبة التي تلي الصديق فان الصديق أتم رشدا من الشهيد لأنه صديق من وجهين:

1004 تفسير الطبري، ج 8، ص 530.

1005 النكت والعيون، ج 1، ص 311.

الوجه الأوّل: من وجه التوحيد.

والوجه الثاني: من وجه القربة.

فالرشد من الرّشيد إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لأمر أراده تعالى، والرشد يجده المؤمن في قلبه ولا يقدر على دفعه، فالرّشيد من الخلق من آمن عن دليل يرسّخ الرشد في قلبه ويقينه بإيمانه أن الرّشيد المطلق إنما هداه إلى هذا الرشد ليس لنفسه فقط، وإنما ليكون رشيدا ومرشدا أيضا، ويلزمه تبيين ما أعطي من الرشد الذي جاء به حتى يفهمه للآخرين، وهو أن يخاطبهم بالتأسي والرفق واللين، لأن حاجة الخلق إلى معرفة أسماء الله وصفاته من أعظم الحاجات، فكانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه، ولهذا كان ذكرهم لأسمائه أيضا أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه، ومن اللطائف في هذا المجال أنّ الرّشيد جلّ شأنه أرشد الخلق لمعرفة أسمائه وصفاته بطرق كثيرة ومختلفة تهدي إلى الرشد، فالقرآن الكريم مرشد إلى الرّشيد، فالحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل عليه الصّلاة والسّلام وكتابه المنزل حيث قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}1006 حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور، ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير، لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند

1006 فصلت 42

أهل التلاوة كثرة الترديد، هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين حيث قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}1007، فكل من آمن به فقد وفق ورشد ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز، وهكذا أرشد الله تعالى فريقا من الجن ليستمعوا القرآن ويبلغوا قومهم فكان أمر هؤلاء أن اهتدوا إلى الرشد وكانوا راشدين ومرشدين، إذ أنهم أهل لذلك ففتحت لهم أبواب الهدى وذللت لهم سبل الرشاد، وبما أن الجن نوع خاص من الخلق أقرب بصفاته إلى الملائكة منه إلى الإنسان فقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى إفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقّهم ورشادا لهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين الذي أرشده فالتزم رشده، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين، ويبغض الآخر واسمه إبليس فأرشده الله الرّشيد ولكنه أبى، وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}1008 وقال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}1009 وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ

1007 الجن 1، 2

1008 النحل 102

1009 غافر 15

الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}1010 فالله تعالى أنكر عليه عصيانه بعد أن دله على طريق الرشاد بقوله: ما منعك عن تعظيم آدم وقد أمرتك به؟ أجاب إبليس في عناد وكبر: أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنّار أشرف من الطين فكان بذلك من الغاوين الذين ضلوا سبل الرشاد، فجزاه الله على عناده وكبره بطرده من دار كرامته، وأهبطه من جنة الخلد، بعد أن كان في منزلة عالية، فما ينبغي له أن تتكبر وتعصى فيها، فخرج منها محكوما عليك بالصغار والهوان بعد أن ترك سبيل الرشد، ولحقّده على آدم وحسده له، بسبب الحكم عليه بالغواية والضلال، أقسم ليضلنّ بني آدم ويصرفهم عن طريق الرشاد، متخذا في ذلك كل وسيلة ممكنة من أجل إغوائهم، والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة والرشاد، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في الحياة له مثال، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يقدم له الطعام وينظف فناء منزله وكان له عبدان فلا يستخدم للتنظيف إلا من هو أقل منزلة من الآخر، ولا يفوض حمل الطعام الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه وأرشدهما للحقّ، فالله تعالى رشيد في تدبيره وأموره وشؤون خلقه، فهو جل شأنه يعطي الرشد حينا ويعطي أسباب الرشد حينا آخر، ويجمع بين الاثنين فيعطي الرشد وأسبابه لمن يشاء من خلقه، فإن رشده تارة يتم بأمور لا مدخل لنا فيها، وتارة يتم بنا

1010 الأعراف 12، 18

فإننا أيضا من أفعاله، فقدرتنا وعلمنا وعملنا ورشدنا وسائر أسباب حركاتنا في التعبير هو فعله الذي رتبه الرّشيد ترتيبا تصدر منه الأفعال الرّشيدة، إلا أننا لا نرى إلا أنفسنا فنظن أن ما يظهر علينا في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك نضيفه إلى أنفسنا، وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تقدير الرّشيد الحكيم، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الخليفة الرّشيد الذي أوتي من الرشد ما لم يؤتى لغيره، إلا العارفون والعلماء الراسخون الراشدون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، وإنما بيقين القلوب وطرق الهدى وسبل الرشاد التي تفضل بها الرّشيد على خلقه كي يسلكوا طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الابدّية فكانت إجابة الحقّ إياهم حين دعوه ونهاية طريقهم إلى ما فرحت به نفوسهم، فالله تعالى برشده يؤلف بين قلوب الراشدين كي يجمعهم على الحقّ والعدل والصدق، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وأرشدهم إلى أمور الخير وسبل الهدى وطرق الرشد وسلط الأنس والمحبة عليهم بالرشد فيما بين الخلق حيث قال تعالى: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}1011 فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق وسائر أصناف البقاع ممّا يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد

1011 الأنفال 63

والمنافسة، وذلك ممّا يؤدّي إلى الصدام والصراع والتناحر والتقاتل، فالله تعالى بحكمته وعلمه وكونه رشيدا، اختار الخليفة الرّشيد وأمده بالقوّة والعدة والأسباب وألقى هيبته في قلوب النّاس حتى أذعنوا له لأنه رشيد، والرّشيد هدى الخليفة وأرشده إلى طريق إصلاح العباد حتى رتبوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت إرشاد الخليفة ورشده، كما يتعاون جميع أعضاء البدن، وينتفع بعضها ببعض. فالراشدون هم المصلحون لأنفسهم ولغيرهم في نشر الخير وحفظ العدل بين الخلق، فعرفهم برشده الحقّ من الباطل، ولولا رشده لهم إلى الخير والعدل والحقّ ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدهم إليه من إصلاح الدين، والله سبحانه وتعالى رشيد، أرشد الأنبياء بالملائكة، وأرشد الخلفاء بالأنبياء، وأرشد الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله، وعلى هذه السلسلة من الرشد المتصل إلى الرّشيد الحكيم كانت مشيئة الرّشيد، فالأنبياء يرشدون الخلفاء، والخلفاء يرشدون العباد إلى ما يهديهم إلى الحقّ، والملائكة يرشدون الأنبياء حتى يعود كل ذلك إلى الرّشيد الذي هو ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من الرّشيد الحكيم الهادي، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}1012 لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا

1012 العنكبوت 69

سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}1013 فإن تكلمنا فبإذنه بسطنا القول، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا، وهكذا الحال في الدار الآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحمن وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الحقّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}1014 إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأننا في كل لحظة نحن نحتاج إلى الرّشيد الذي يرشدنا على الصلاح ويدلنا على الهدى، كي نستطيع أن نصلح أمور حياتنا ومعاشنا ومن أجل ذلك فقد أوجد الله تعالى كل ما في العالم للإنسان وأرشده إليه ونبه عليه بقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}1015 فالله سبحانه وتعالى مهد الأرض بقدرته، وبسط رقعتها ليسهل على الخلق الرشاد والإقامة فيها والانتفاع بها، وجعل من السماء وأجرامها وكواكبها كالبنيان المشيد، وأمد خلقه بأسباب الحياة والنعمة وهو الماء الذي أنزله من السماء فجعله سببا لإخراج النباتات والأشجار المثمرة التي أرشد خلقه إلى فوائدها ومنافعها، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}1016 فالرّشيد جل شأنه أرشد السحاب بإنزاله من جهة السماء ماء منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وإلى هذا

1013 إبراهيم 34

1014 النبأ 38، 39.

1015 البقرة 22

1016 النحل 10، 12

الشجر أرشد الأنعام لتأكل منه، وأرشد النّاس إلى ألبانها ولحومها، وإلى الأصواف والأوبار والأشعار التي ينتجها كل نوع من هذه المخلوقات، ثم أرشد الخلق إلى الفائدة ممّا ينبته هذا الماء الذي ينزل من السماء من الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي فيها حياة النّاس ومعاشهم، إن في إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية للرشد لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون كيف أرشدوا إلى هذه الأشياء في القدرة التي أوجدتها، وقد أرشد الخالق عزّ وجلّ كل مخلوقاته لما خلقت له فسخر الليل إذ جعله مهيئا للنوم والراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، وأرشد الشمس في مسارها ودورانها وما تمد الأرض بالدفء والضوء، وأرشد القمر في فلكه ومساره ودورانه شكل يختلف عن الشمس لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله تهتدي في الظلمات ويرشد الذي يضل الطريق في البر والبحر، إن في ذلك لعلامات وأدلة لقوم يجب أن يكونوا راشدين بما وهبهم الله من عقل يدرك هذه الأشياء، ثم أن الله سبحانه وتعالى أباح للخلق الانتفاع بما أرشدوا إليه حيث قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}1017 فالله سبحانه وتعالى لم يحرم الزينة التي خلقها لعباده وأرشدهم إليها، إذ كيف يحرم الله الحلال الطيب من الرزق الذي أرشد عباده إليه بهديه، فهذه الطيبات نعمة من الله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا، لأنهم يؤدون حقّها بالشكر والطاعة، ولكن رحمة الله الواسعة شملت الكافرين والمخالفين في الدنيا الذين علموا الرشد ولم يتخذوه سبيلا، وستكون هذه النعم

1017 الأعراف 32

خالصة يوم القيامة للمؤمنين الراشدين خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم. لقد أرشد الله الإنسان إلى هذا الرزق الذي خلقه له وكل ما حصل عليه الإنسان من فائدة إما في غذائه أو في دوائه أو في ملابسه ومشموماته ومركوباته، وزينته والالتذاذ بصورته، أو رؤيته والاعتبار به، وباستفادة علم منه والاقتداءِ بفعله فيما يستحسن منه، والاجتناب عنه فيما يستقبح منه، فقد نبه الله تعالى إلى منافع جميع الموجودات وأرشد إليها، واطلع الخلائق عليها إما بألسنة الأنبياء عليهم الصلاة السلام، أو بإلهام الأولياء والخلفاء والصالحين رضي الله عنهم، وكما أنَّ حقّ الإنسان أن يعرف رشد الحيوانات في ذواتها فيرشد إليها في المطاعم والملابس والأدوية، فحقّه أن يرشد إلى أخلاقها وأفعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن، واجتناب ما يستقبح منها، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في إرشاد النحل فقال: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}1018 فألهم الله النحل أسباب حياتها، وأرشدها إلى وسائل معيشتها، بأن تتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها الرّشيد للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وأرشدهم أنّ في هذا الشراب غذاء ودواء، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل، فنبه على أن الإنسان حقّه أن يقتدي بالنحل ويسترشد به مراعاة لوحي الله عزّ وجلّ، فكما أن النحل

1018 النحل 68، 69

لا يتخطى وحي الله في تحري المصالح التي هي من طباعه التي أرشده الله إليها، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختيارا بما أرشد إليه، وعلى هذا الأساس كان الخليفة مهتديا طائعا لله رب العالمين بما أرشده به وما أرشده إليه.

ومن أعاجيب الإرشاد ما جاء ذكره في القرآن الكريم عندما بعث الله تعالى الغراب ليرشد الإنسان العاقل، وذلك ما أخبر به عزّ وجلّ من خبر ابني آدم، حين قربا قربانا فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه، فقال عندما هم به من قتله، وعند إمساكه عنه، والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ}1019 فلولا أن للغراب فضيلة وأمورا محمودة، وآلة وسببا ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب النّاس، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك، فأخبر أنه مبعوث، وأنه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير وأرشده ليرشد الإنسان ما يجب عليه فعله في أمور يجهلها، فاختصام ابني آدم وقتل أحدهما للآخر، وإرشاد أحدهما للخير والآخر للشر حيث أخبر بذلك قوله تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}1020 الذي أرشد للخير منهما لم يقاوم أخاه ولم ينازعه بسبب هداه واستقامته ومعرفته لسبيل الرشاد الذي بينه الرّشيد له كي يحتمل الآخر الذنب وينال جزاءه، والذي اتبع الغي والضلال فيما اقترفه من ذنب بابتعاده عن طريق الرشد في ارتكاب

1019 المائدة 29

1020 المائدة 29، 31

فعلته بقتل أخيه فاستحقّ أن يكون في الآخرة من أهل النّار، وذلك جزاء عادل من الله الرّشيد لكل ظالم. فقد سهَّلت له نفسه أن يخالف فطرة الرشد وأن يقتل أخاه، وقتله، فصار في حكم الله من الخاسرين، إذ خسر رشده فخسر إيمانه وخسر أخاه، بعد قتله أصابته حسرة وحيرة، ولم يدر ما يصنع بجثته، فأرسل الله غرابا مرشدا ينبش تراب الأرض ليدفن غرابا ميتا، حتى يُعَلِّم ذلك القاتل كيف يستر جثة أخيه، فقال القاتل مُحِسّا بوبال أمره وما ارتكب من جرم، متحسرا على جريمته بأنه أعجز من أن أكون مثل هذا الغراب فيستر جثة أخاه، فصار من النادمين على جرمه ومخالفته دواعي الفطرة الرّشيدة.

ومن إرشاد الرّشيد أيضا ما جاء عن النملة التي أرشدت قومها لدخول مساكنهم حتى لا يحطمهم جنود سليمان عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}1021 حتى إذا بلغوا وادي النمل قالت هذه النملة يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم، لكيلا يميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم فأرشدت قومها إلى النجاة وخلصتهم من الهلاك بما أوحى إليها خالقها الرّشيد كما أوحى إلى غيرها من المخلوقات من أمثالها كالنحل والعنكبوت، ثم أن سليمان عليه الصّلاة والسّلام تفقد ما حشر الله له من الجند حيث قال تعالى: {تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}1022 وتَعَرَّفَ جنوده من الطير فلم يجدوا

1021 النمل 18

1022 النمل 20، 22

الهدهد، فتعجب وقال: مالي لا أرى الهدهد، أهو بيننا ولم يقع عليه نظري، أم هو غائب عنا ليس بيننا، وتوعد به عذابا شديدا يردعه، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيما إلا أن يأتي بحجة بيّنة تُبرر غيابه عنه، وكان الهدهد قد مكث في مكان غير بعيد، ثم جاء إلى سليمان عليه الصّلاة والسّلام يقول له: قد أحطت علما بما لم يكن عندك علم به، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن به، فأرشد الهدهدُ نبي الله إلى شيء لم يكن يعلمه، ولذا فمهما أتي الإنسان من العلم فلم يؤتى منه إلا قليلا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}1023 ولوجود قوم لا يسجدون لله، وسليمان عليه الصّلاة والسّلام مكلف بإرشادهم، فأرشده الهدهد إليهم كي يرشدهم بأن أرسل لهم كتاب يدعوهم فيه إلى الرشد مع الهدهد الذي أرشده الله حيث قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فأنظر مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرّحمن الرّحيم أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}1024 فأراد أن يختبر رشد الهدهد ويتحرى صدقه فأرسله بكتاب يوصله إلى تلك المرأة وقومها، ووصل الكتاب إليها فجمعت أشراف قومها، وذوي مشورتها وأخبرتهم الخبر أنه أيها الملأ إني قد وصل إليّ كتاب عظيم الشأن، ثم تلت الكتاب عليهم قائلة: إنه من سليمان

1023 الإسراء 85.

1024 النمل 23، 31

وإنه مفتتح باسم الله الرّحمن الرّحيم الذي يفيض برحمته دائما على خلقه، فكانت المرأة رشيدة في فعل ما يجب عليها فعله من المحافظة على حياة قومها وهدايتهم ورشدهم بعد أن فوضوا أمرهم إليها، فهي لم ترمِ بهم إلى التهلكة وإنما أخذت بأيديهم إلى طريق النجاة حيث قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[1025] فلما رأت الآيات التي تهدي إلى سواء السبيل وطريق الرشاد استمسكت بها ودعت قومها إلى ذلك فكانت من الراشدات وكان قومها من الراشدين، وهذه المسألة سلسلة من الرشد المتبادل بين مخلوقات الله فيما أرشدهم إليه. واسترشاد الإنسان بمخلوقات أخرى لا يعني انتقاصا من قيمته أو علمه أو عقله، فعلى مستوى البشر نجد أن الصغير يسترشد بالكبير، والجاهل يقتدي بالعالم، ومن ليس له خبرة، يأخذ من أصحاب التجارب، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أشياء لا يكون لجنس البشر، وإنما اختص بها الله تعالى خلقا آخر لدلالة القدرة، بمعنى أن هذه المخلوقات التي لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان من العقل، فالإنسان بحاجة إليها، وبعبارة أدق فالإنسان بحاجة إلى الخلق الرّشيد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه لما خلق إليه، فعلى الرغم من تفاوت النّاس واختلافهم، فإن الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث أنها مصنوعة بالحكمة الرّشيدة، وعلى ذلك نبه الله تعالى حيث قال: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ}[1026] بحكمة الله تعالى في خلقه وإرشاد كل خلق لما يتناسب مع طبيعة ذلك الخلق، ومختلفة من حيث أن كل نوع يختص بفائدة، وكل نوع وأن اختلف فما من شيء أكثر اختلافا من النّاس،

1025 النمل 44

1026 الملك 3

كما قال الله تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}1027 أي طورا بعد طور وتارة بعد تارة وأن الإنسان على حالة منافية لما هو عليه بالكلية وهو أنه يعلم أن الله تعالى خلقه وقدره تارات أي مرات، حالا بعد حال من عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم أنشأه خلقا آخر فان التقصير في توقير من هذه شؤونه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن رشيد عاقل، وقال تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}1028 فالله تعالى برشده تولى تدبير الخلق معيشتهم لعجزهم عن ذلك، وفضل بعضهم على بعض في الرزق والجاه، ليتخذ بعضهم من بعض أعوانا يسخرونهم في قضاء حوائجهم، حتى يتساندوا في طلب العيش وتنظيم الحياة وما يتبعها من سعادة، لأنّ الرّفع والخفض هما من سنة الرّشيد لاستمرار الحياة حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}1029 فالله سبحانه وتعالى برشده جعل خلفاء من الأمم لأجل عمارة الكون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لمن أخذ في أسباب الرشد، وكذلك ليختبر الخلق فيما أعطاهم من النعم، هل يرشدون إلى شكرها، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفته بالمعنى العام لأنه يخلف من سبقه، وليس بالمعنى الخاص المقصود بالخلافة، والخلافة بالمعنى العام هو أنّ الله جعل كل واحد من بني آدم خليفة ربه في الأرض وسر الخلافة أنّه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا

1027 نوح 14

1028 الزخرف 32

1029 الأنعام 165

وهي صفات جزئية قياسا للخالق عزّ وجلّ، فمن أخذ بها فقد رشد، ومن تركها وابتعد عنها فقد ضل وغوى، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخلق في الهدى والضلال، والرشد والغي، لذلك قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}1030 فلو شاء الله تعالى لأرشد جميع الخلق إلى الخير ولجعل النّاس على صراط مستقيم، مطيعين الله بطبيعة خلقتهم، كالملائكة، فلو كان ذلك كذلك، لكان الخلق غير هذا الخلق، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه بين لهم سبل الهدى وطرق الرشاد وتركهم مختارين، لذلك فلا يزالون مختلفين في كل شيء، حتى في أصول العقائد، كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، ممّا لا يجوز الخلاف فيه، تبعا لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم، يتعصب كل فريق لرأيه، وما ينبغي هذا لمن بين له الله تعالى طرق الرشاد، لكن الذين رحمهم الله لسلامة فِطَرِهم، فإنهم اتفقوا على حُكم الله فيهم، فآمنوا بجميع رسله وكتبه واليوم الآخر عندما سلكوا مابيّن لهم من الرشد ما هم أهل له فاتبعوه، وهكذا اقتضت مشيئة الرّشيد وحكمته في نظام الخلق فمنهم شقي وسعيد، ولو أنهم أخذوا بما أمروا به لكان خيرا لهم، إذ أن الإنسان بحاجة إلى الرشد في أموره كلها، وبحاجة إلى من يدله على الرشد في المأكل والملبس وكثير من أحوال الدنيا وأمورها حتى في اختيار مستلزمات حياته اليومية، وفي تفضيل طعام على آخر، أو شراب على غيره كما قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}1031 فالأرض ذاتها فيها عجائب الرشاد ما لا يخفي على عاقل مدرك، ففيها قطع من

1030 هود 118، 119

1031 الرعد 4

الأرض يجاور بعضها بعضا، وهى مختلفة التربة مع ذلك، بعضها قاحل، وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة، ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنّها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن في هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله لمن له عقل يفكر به كيف أرشدت هذه العناصر التي شكلت الثمار إلى أشكالها وطعومها وألوانها ففي الثمر شكلا وقدرا وطعما ورائحة فمنها بياض وسواد وصغير وكبير وحلو ومر وحامض وجيد ورديء، وذلك أيضا ممّا يدل على الصانع الحكيم الرّشيد، وقدرته في إنبات الأشجار بالثمار المختلفة الأصناف والأشكال والألوان والطعوم والروائح مع اتحاد الأصول والأسباب، فهذا لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار رشيد، لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس أن لا يختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد، فكل هذه المخلوقات التي أبدعها الخالق إنما هي لحاجة مخلوق آخر يرشد إليها، ويرشد إلى جنسه أيضا ليستطيع العيش، ودلائل الرشد من الرّشيد الحكيم لا تنقضي في الكائنات من نبات وحيوان وإنسان، النبات من الذي أرشده لاختيار العناصر التي تجعل نوعا منه حلوا والآخر حارا والآخر حامضا وهذا بلون وذاك بآخر، فهذه وغيرها من دلائل رشده التي تثير في النفس إجلال الرّشيد ولم يفطن إليها الكثير ولم يدرك كنهها إلا من تحلى بروح صافية وعقل مستنير وقلب مفعم بالنور وهذا كله في المستحقّ لخلافة الله الرّشيد ولا أدل وأوضح من قول ربنا في كتابه العزيز حيث يرشد إلى هذا المعنى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا

قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}1032 فمن الذي أرشد كل صنف من النبات لاختيار المواد التي تلائم نوعه من حيث الشكل واللون والفائدة، لا إله إلا الله الذي أرشد الكل إلى ما فيه الفائدة له ولغيره، فهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف، فأخرج من النبات شيئا غَضّا طريا، ويخرج منه حبا كثيرا بعضه فوق بعض، ومن طلع النخل عرا جين يخرجها محملة بالثمار سهلة التناول مختلفة الشكل واللون والرائحة والفائدة، ويخرج الله الرّشيد كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ما هو متماثل الثمر في الشكل وغير متماثل في الطعم والرائحة ونوع الفائدة. وهنا دعوة تأمل كيف أرشد الله هذه العناصر إلى تشكيل هذه الثمار المختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة، وهي نظرة في تدبير الرّشيد وما في ذلك من اعتبار في تكوين ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة؟ إن في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحقّ ويؤمنون به ويذعنون له، فالراشدون هم الذين يستجيبون للرشد من خلال التأمل في خلقه المتنوع المتباين، وهم المتخلقون بأخلاق الهدى واستبيان سبل الرشاد وهذا من الدلائل على كمال إرشاد الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، وهذه الدلائل هي أيضا نعم بالغة في الرشد والتأمل والاعتبار وهي إحسانات كاملة، فالكلام إذا كان دليلا من بعض الوجوه، وكان إنعاما وإحسانا من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيما، وعند هذا يظهر أن المشتغل بإرشاد الخلق إلى طريق الحقّ لا ينبغي أن يعدل عن هذا السبيل في تبين الرشد من الدلائل التي بثها الله في مخلوقاته، فهي آيات دالة على وجود الرّشيد القادر الحكيم

1032 الأنعام 99

وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث رشيد قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته ممّا يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، ولا يفطن إليها إلا ذو عقل رشيد، ذلك أن الكمالات على المستوى الإنساني هي إرشاد الخلق بعضهم لبعض بما تفاضلوا به ممّا أنعم الرّشيد على البعض منهم بالرشد، والحكمة المقتضية لذلك هو أن الإنسان لما كان غير مكتفٍ بتفرده في بقائه، فإن أول ما يحتاج الإنسان إليه ما يواريه وما يغذيه، وليس يجد ما يواريه مصنوعا، ولا ما يغذيه مطبوخا، كما يكون لكثير من المخلوقات الأخرى التي أرشدت إلى طعامها، بل هو مضطر إلى إصلاحهما، وإصلاح ذلك يحوجه إلى آلاتٍ غير مفروغ منها، والإنسان الواحد لا توصل له إلى إعداد جميع ما يحتاج إليه ليعيش العيشة الحميدة، فلم يكن بُدٌّ للناس من تشارك وتعاون، فأرشد كلّ قوم إلى صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الأخرى ليقتسموا الصناعات بينهم، فيتولى كلٌّ منهم صنفا من الصناعات فيتعاطاه باعتزاز، كما قال الله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}1033 فاقتضت حكمة الرّشيد أن تختلف ألسنتهم وأشكالهم وألوانهم وقواهم وهممهم وأعمالهم، فيكون كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، فتكون معايشهم مقتسمة بينهم، كما بيناه في الآيات المتقدمة. والاختلاف الحاصل بين النّاس إنما هو من رشد الرّشيد، فالنّاس إذا اعتبر اختلاف أغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وإن كانوا في الظاهر مختارين، وقد أشار النبي عليه الصّلاة والسّلام إلى ما يتعلق من

1033 المؤمنون 53

المصلحة بتباينهم واختلاف أحوالهم وطبقاتهم فقال: "لا يزال النّاس بخير ما تباينوا، فإذا استووا فذاك حين هلاكهم"1034.

والرّشد هو من الرّشيد الذي يوجه العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}1035 وهو الرشد اللائق به وبأمثاله من الرّسُل الكبار وهو الرشد الكامل ونعني به الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ومحركة إليها، فالإنسان الذي يملك مالا على سبيل المثال واستطاع أن يحفظه وينميه في الطرق المشروعة التي أحلها الله تعالى، ولكنه مع ذلك يبذر، وهذا التبذير هو مضيعة لبعض المال فهو لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته، بل لقصور هدايته عن توجهه لما أرشد إليه، وحتى يكون رشيدا فيجب أن يكون كما قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}1036 فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنّه يضره، ولكنه لم يعطَ الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد فهو توجيه الرشد إلى صوب المطلوب واتجاهه من أجل إصابة الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجردها لا تكفي، بل لابدّ من هداية محركة للتسديد نحو الرشد، والرشد لا يكفي، بل لابدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات والجوارح حتى يتم المراد ممّا انبعث عليه الرّشيد، والرشد أيضا

1034 شعب الإيمان للبيهقي، ج 19، ص 84

1035 الأنبياء 51

1036 الإسراء 29

هو تنبيه الرّشيد ليستيقظ ويتحرك نحو السداد، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، ومن هنا يكون التأييد للرشيد الذي أرشد فكأنه جامع لأسباب الرشد، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من الداخل ومساعدة أعضائه من الخارج، وهذا مل يقربه من العصمة، وهي عبارة عن عناية إلهية تسبح في الباطن، فيقوى بها الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر كما كان حال يوسف عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}1037وهنا نتبين رشد يوسف عليه الصّلاة والسّلام عندما عزمت امرأة العزيز أن تخالطه ونازعته نفسه إليها، لولا أن رأى نور الله الحقّ نصب عينيه قد استضاء به، ولم يطاوع ميل النفس، وارتفع عن الهوى، فامتنع عن المعصية والخيانة وثبت على طهره وعفته. فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير ومن ملك ذلك كان من الراشدين، فالذين يتبصرون في آيات الله تعالى طالبين منها التمييز ما بين الخير والشر لعلهم يرشدون أي يسلكون طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الابدّية فإن الله يمكنهم من أسباب الخير ويهون عليه الشدائد ويرفع عنهم الأمور المحرجة ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة ومن الغيّ إلى الرشد كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}1038 فالذين بذلوا جهدهم، واحتملوا المشقة في نصرة في التبصر سوف يرشدون إلى طريق الهداية والخير والحقّ، والمجاهدة غض البصر وحفظ اللسان وخطرات

1037 يوسف 24

1038 العنكبوت 69

القلب ويجمعها كلها الخروج عن العادات البشرية، فمن أعطي ذلك كان من المستخلفين الراشدين، ولا يتوقف الرشد على خلق دون خلق، فالله سبحانه وتعالى قال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}1039 ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان وجميع المخلوقات على السواء في الهدى والرشاد الذي أراده الخالق، فكيف كان الحيوان مرشدا للاختراع فيما يعمل ممّا لا يستطيعه الإنسان، حيث يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون إرشاد الرّشيد لها، وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب، فالله تعالى هو المتفرد بالخلق ومتفرد بإرشاد خلقه الذي خلقه، فإن انفراد الله سبحانه بخلق الخلق وأعماله وحركات لا يخرجها عن كونها مقدورة لهذا المخلوق أو ذاك على سبيل الاكتساب والإرشاد، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا وهدى كل مخلوق إلى رشده، إن الخالق عزّ وجلّ لا تنقضي عجائبه في إرشاد خلقه ممّا كبر منها أو صغر، وممّا عظم منها أو هان وضعف فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}1040 فبيتها أوهن البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء ولكن مع هذا على ما نسج فله حقّيقة وانتفاع فلو رأينا العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدنا رشدا قد يعجز المهندس في صنعته، فهي إنما تطلب موضعين متقاربين، بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها، ثم تلقي لعابها على الجانبين، فإذا أحكمت المعاقد ورتبت القماط والركائز اشتغلت باللحمة، فيظن الظان أن نسجها عبث، وإنما هي شبكة للبعوض والذباب والحشرات، وإنها

1039 طه 50

1040 العنكبوت 41

إذا أتمت النسيج انزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر، وتقف في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها، واستعانت على قتلها بلف الخيط عليها، وهذه الصنعة أرشدها المرشد إليها، أفلا ننظر إلى حكمة الرّشيد الذي أرشدها وعلمها وفهمها. فها هي عجائب المخلوقات على نفسها ترشد الغافلين إلى باب الرّشيد وهم عن التبصر بعيدون.

فمن أعظم نعم الله تعالى على الخلق هو الرشاد، فهو يرشد الإنسان ويطبعه على العدل وحبه، وعلى الحقّ وإيثاره والمؤثرون على أنفسهم قليل جدا وذلك من صفات الراشدين الذين مدحهم الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[1041] فالإيثار من درجات الرشد العالية لما فيه من الكرم والصدق والأمانة والتواضع الذي هو رأس الحكمة والحلم حيث يبعد الغضب ويقوي الصبر ويقهر الكبر والخيلاء، ومن قدر في نفسه عجبا أو ظن أن له على سائر النّاس فضل فلينظر إلى صبره عندما يدهمه همٌّ أو نكبة أو وجع أو مصيبة، فإن رأى نفسه قليلة الصبر، فليعلم أنه بعيد عن الرشد قريب من الغي ومصروف عن الخير حيث قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ

1041 الحشر 9

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}1042 فالله تعالى وهو الرّشيد يمنع الرشد عن المتكبرين بأن يصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق، أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب غير محقّين، وإن يروا كل آية تدل على صدق لا يصدقوها، وإن يشاهدوا طريق الهدى لا يسلكوه، وإن يشاهدوا طريق الضلال يسلكوه، يحدث ذلك منهم بسبب أنهم كذبوا بآيات الله وغفلوا عن الاهتداء بها فابتعدوا عن سبيل الرشاد. إن الإنسان رأى نفسه صابرة، فليعلم أنه قد هدي إلى الرشد، وكذلك من أراد أن يعلم أنه على طريق الرشد أو الغي، فلينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما خوله الله من نعمة أو مال أو صحة أو جاه، فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر للذي أرشد إليه هذه النعم، فقد ضل وغوى مبتعدا عن سبيل الرشاد، وإن كان غير ذلك فليأخذ بما هو فيه لأنه على جادة الصواب في موازين الأخلاق ومقاديرها من الخير والهداية والتواضع، فالرّشيد بعيد عن العجب بنفسه، لعلمه بموازين الأشياء، ومقادير الأخلاق، والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال، فإن أعجب فلم يعدل ولم يرشد، بل قد مال إلى الإفراط في أموره، والرشد حصن يلجأ إليه كل إنسان في المواقف التي تظهر للعيان أمام النّاس، وذلك أننا نرى الرّشيد وغير الرّشيد، يدعو إلى الرشد إن لم يأخذ به لما علم هذا وذاك من فضائل الرشد، ولم نرى أحدا يمدح الغي والضلال وإن عمل به، فمن أعمال الرشد الكثيرة حسن المجاورة، والنصح عند المشاورة، والبر في المجاورة، ومن عمل بهذه الأخلاق فهم كما قال تعالى: {فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}1043، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كنز النّاس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم

1042 الأعراف 146

1043 الجن 14

إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم إنّك أنت علام الغيوب"1044. والحمد لله ربّ العالمين.

1044 مسند أحمد 34، 478